إعْلَامُ الأُمَّةِ

بِمَعنَى سَبِيلِ اللهِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

بِفَهمِ أَعلامِ الأَئِمَّةِ

الأردن - عمان - سحاب

ت/ ٠٠٩٦٢٧٨٨٤٤٣٩٢٣

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م

الطبعة الأولى

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

()

إِعْلَامُ الأُمَّةِ

بِمَعنَى سَبِيلِ اللهِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

بِفَهمِ أَعلامِ الأَئِمَّةِ

تأليف

سليمان العايدي



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى أَشرَفِ الْمُرسَلِينَ وخَاتَمِ النَّبِيِّينَ، الدَّاعِي إِلَى اللهِ بِإذنِهِ والسِّرَاجِ الْمُنِيرِ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ، والْمُهتَدِينَ بِهَديِهِ، والدَّاعِينَ بِدَعْوَتِهِ إلى يومِ الدِّينِ .

أَمَّا بَعدُ :

فَإِنَّ اللهَ ﷻ قَد جَعَلَ فَلاحَ الثَّقَلَينِ فِي الدَّارَينِ فِي سَبِيلٍ وَاحِدَةٍ، وصِرَاطٍ وَاحِدٍ، أَلَا وهُوَ دِينُ الإِسلَامِ؛ وقَد أَمَرَ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ بِالدَّعوَةِ إلى هَذِهِ السَّبيلِ، فَقَالَ : ﴿ **ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ** ﴾[النحل:١٢٥]؛ وقد دَعَا ﷺ إلى هَذهِ السَّبِيلِ، وبَيَّنَهَا أَحسَنَ بَيَانٍ وأَوضَحَهُ، وجَاهَدَ فيهَا حَقَّ الجِهَادِ وأَقوَمَهُ، حَتَّى نَصَرَهُ اللهُ ﷻ عَلى سَائِرِ أَهلِ الْمِلَلِ وأَظْهَرَهُ؛ واختَارَ اللهُ ﷻ أُمَّتَهُ ﷺ لِتَخلُفَهُ وتَنُوبَ عَنهُ، في القِيَامِ بِهذهِ السَّبِيلِ وإِقَامَتِهَا، وحِفظِهَا والدِّفَاعِ عَنهَا، ونَشرِهَا والدَّعوَةِ إِلَيهَا، والمجاهَدَةِ فيها والجِهَادِ فِي سَبِيلِهَا؛ فَقَالَ ﷻ: ﴿ **كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ** ﴾ [آل عمران:١١٠]، فَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ أَفَادَتْ خَيرِيَّةَ هَذِهِ الأُمَّةِ وأَفضَلِيَّتَهَا عَلَى بَاقِي الأُمَمِ، كَمَا أَفَادَتْ أَنَّهَا إِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْخَيْرِيَّةَ لِقِيَامِها بِوَظِيفَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالدَّعوَةِ إلى اللهِ ﷻ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ : **كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي الْأَقْيَادِ وَالسَّلَاسِلِ حَتَّى تُدْخِلُوهُمْ الْجَنَّةَ**. فَبَيَّنَ ﷻ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ خَيْرُ الْأُمَمِ لِلنَّاسِ : فَهُمْ أَنْفَعُهُمْ لَهُمْ، وَأَعْظَمُهُمْ إِحْسَانًا إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَمَّلُوا أَمْرَ النَّاسِ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنْ الْمُنْكَرِ، مِنْ جِهَةِ الصِّفَةِ وَالْقَدْرِ؛ حَيْثُ أَمَرُوا بِكُلِّ مَعْرُوفٍ، وَنَهَوْا عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ، لِكُلِّ أَحَدٍ، وَأَقَامُوا ذَلِكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَهَذَا كَمَالُ النَّفْعِ لِلْخَلْقِ [(١)] .

وهَذَا ما كَانَ يُقَرِّرُهُ الصَّحَابَةُ ؓ أَمامَ مَنْ يَدعُونَهُ مِنَ الأُمَمِ والشُّعُوبِ، كَمَا قَالَ رِبْعِيُّ ابْنُ عَامِرٍ ؓ لِرُسْتُمَ مَلِكِ الفُرْسِ مُبَيِّناً عَنْ مَقْصَدِ «خُرُوجِهِم في سَبيلِ اللهِ» : **اللهُ ابْتَعَثَنَا**

---

(١) «مجموع الفتاوى لابن تيمية» (١٢٣/٢٨) .

لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِيْنِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ (١) .

والجِهَادُ في سَبيلِ اللهِ ﷻ لَيسَ مَقصُوداً مُنفَصِلًا عَنِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ، بَل هُو مُرتَبِطٌ بها ارتِبَاطًا كَامِلًا، يَدُورُ لِأَجلِ الدَّعوَةِ، ويَتَوَقَّفُ لِأَجلِهَا؛ فَهُوَ إِذَنْ **وَسِيلَةٌ** مِنْ وَسَائلِ الدَّعوَةِ إلى اللهِ، وقُوَّةٌ مِنْ قُوَاهَا، لِإخرَاجِ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إلى عِبَادَةِ اللهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ، ولِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُليَا؛ وهُوَ أَيضاً **وَسِيلَةٌ** مِنْ وَسَائلِ حِمَايَةِ الدَّعوَةِ، وحِمَايةِ الْمُسلِمينَ أَنفُسًا ودَارًا وثَرَواتٍ ومِنهَاجًا؛ وهُوَ أَيضاً **وَسِيلَةٌ** لِدَفعِ الدَّعوَةِ في الأَرضِ، حَتَّى تَبلُغَ النَّاسَ كَافَّةً، حِينَ لَا تَنفَعُ الحِكمَةُ والْمَوعِظَةُ الحَسَنَةُ، ولَا يَكفِي جِهَادُ اللِّسَانِ والبَيَانِ، وحِينَ تُصَدُّ الدَّعوَةُ عَن غَايَتِهَا، وتُقفَلُ الدُّرُوبُ والْمَسَالِكُ أَمَامَهَا، وتُبذَلُ الجُهُودُ لِخَنقِهَا (٢) .

قَالَ العَلَّامَةُ عَبدُ العَزِيزِ بنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ : الجِهَادُ جِهَادَانِ : جِهَادُ طَلَبٍ، وجِهَادُ دِفَاعٍ، والْمَقصُودُ مِنهُمَا جمِيعاً هُوَ : **تَبلِيغُ دِينِ اللهِ، ودَعوَةُ النَّاسِ إِلَيهِ، وإِخرَاجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ، وإِعْلاءُ دِينِ اللهِ في أَرضِهِ، وأَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ وَحدَهُ**، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ **وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ** ﴾ [البقرة : ١٩٣] (٣) .

فَالْمَقصُودُ لِذَاتِهِ هُوَ هِدَايَةُ النَّاسِ إلى سَبِيلِ اللهِ ﷻ، وهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالدَّعوَةِ بِالحِكمَةِ والْمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ، وقَد يُحتَاجُ في بَعضِ الأَحْيَانِ إلى الْمُجَادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أَحسَنُ؛ فَإِذَا وَقَفَ أَحَدٌ في طَرِيقِ هَذِهِ الدَّعوَةِ، وأَرَادَ مَنعَهَا عَنِ الْمُضِيِّ في طَرِيقِهَا، فَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّ كَيدِهِ، وإِزَالَةِ أَذَاهُ الْمُتَعَدِّي، بِحَسبِ الإِمكَانِ؛ وذَلِكَ لِتَصِلَ هِدَايَةُ اللهِ ﷻ ورَحمَتُهُ إلى النَّاسِ، وتَعلُوَ كَلِمَةُ الحَقِّ، ويَأمَنَ النَّاسُ عَلَى حُرِّيَّتِهِم الدِّينِيَّةِ في الإِيمَانِ بِاللهِ وَحدَهُ، واتِّبَاعِ شَرعِهِ الحَنِيفِ؛ فَـ«سَبِيلُ اللهِ» عَلَى الحَقِيقَةِ وَاحِدَةٌ : وهِيَ دِينُهُ وشَرِيعَتُهُ الْمُوصِلَةُ إِلَيهِ؛ ويَتَفَرَّعُ عَنهَا سُبُلٌ كَثِيرَةٌ تَابِعَةٌ لَهَا، كُلُّهَا يَصِحُّ أَن يُطلَقَ عَلَيهَا أَنَّهَا «سَبِيلُ اللهِ»، بِاعتِبَارِ أَنَّ اللهَ شَرَعَهَا وأَمَرَ بِهَا .

كَمَا يُطلَقُ مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» أَيضاً عَلَى مَفهُومٍ خَاصٍّ، أَلَا وهُوَ الجُهْدُ والجِهَادُ في سَبِيلِ دَعوَةِ النَّاسِ إلى اللهِ ﷻ وإلى سَبِيلِهِ؛ مِنْ خِلَالِ إِرسَالِ السَّرَايَا والبُعُوثِ والجُيُوشِ،

---

(١) «البداية والنهاية» (٣٩/٧) و«تاريخ الطبري» (٥١٨/٣) .

(٢) «أصول الدعوة وطرقها – جامعة المدينة –» ص (٣٢٨) .

(٣) «مجموع فتاوى ابن باز» (٤٣٦/٢) .

وإخراجِ الأَفرَادِ والجَماعَاتِ «في سَبِيلِ اللهِ»، لِدَعوَةِ النَّاسِ إلى اللهِ ﷻ؛ فَإِن قُبِلَتِ الدَّعوَةُ، فَقَد تَحَقَّقَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الخُرُوجِ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة:١١]. وإلَّا، فَإِنْ كَانَ لَدَينَا قُدْرَةٌ عَلَى مُطَالَبَتِهِم بالجِزيَةِ، طَالَبنَاهُم؛ وذَلِكَ لِيَتَسَنَّى لَهُم التَّعَرُّفُ عَلَى الإِسلَامِ عِنْ قُربٍ، ويَتَأَثَّرُوا بِأَخلَاقِ أَهلِهِ؛ وإِنْ لَمْ يَقبَلُوا بالجِزيَةِ، وَكَانَ لَنَا طَاقَةٌ بِمُنَاجَزَتِهِم، نَاجَزنَاهُم، حَتَّى يَفتَحَ اللهُ بَينَنَا وبَينَهُم، وهُوَ خَيرُ الفَاتِحِينَ؛ وإِنْ لَمْ تَكُن لَدَينَا طَاقَةٌ بِهِم، فَيُكْتَفَى بِدَعوَتِهِم إلى الرَّبِّ الرَّحِيمِ، وإلى سَبِيلِهِ القَوِيمِ، كَمَا كَانَت دَعوَتُهُ ﷺ في العَهدِ الْمَكِّيِّ، ودَعوَةُ غَالِبِ الأَنبِيَاءِ عَلَيهِمُ السَّلَامُ، مَعَ الصَّبرِ عَلَى أَذَاهُم، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالفَتحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِندِهِ، ويَتَحَقَّقَ وَعدُ اللهِ ﷻ بِنَصرِ دُعَاتِهِ الْمُخلِصِينَ، فَيَستَخلِفَهُم في الأَرضِ كَمَا استَخلَفَ أَنبِيَائَهُ ودُعَاتَهُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم، ويُمَكِّنَ لَهُم دِينَهُمُ الَّذِي ارتَضَى لَهُم؛ إِذْ إِنَّ دَعوَةَ الكُفَّارِ إلى دِينِ الحَقِّ، والخُرُوجَ لِأَجلِ ذَلِكَ غَيرُ مَشرُوطٍ لَهَا تَوَفُّرُ القُوَّةِ لِقِتَالِهِم، كَمَا كَانَ حَالُ دَعوَةِ غَالِبِ الأَنبِيَاءِ السَّابِقِينَ، وكَذَلِكَ دَعوَتُهُ ﷺ في العَهدِ الْمَكِّيِّ؛ أَمَّا طَلَبُ الجِزيَةِ مِنهُم، وقِتَالُهُم إِنْ لَمْ يَقبَلُوا الحَقَّ، فَهُوَ مَشرُوطٌ بِتَوَفُّرِ القُوَّةِ عَلَى ذَلِكَ؛ وفي هَذَا يَقُولُ الإِمَامُ بَدرُ الدِّينِ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وهُوَ ﷻ حَكِيمٌ، أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ ضَعْفِهِ مَا يَلِيْقُ بِتِلْكَ الحَالِ رَأْفَةً بِمَنْ تَبِعَهُ وَرَحْمَةً، إِذْ لَوْ وَجَبَ لأَوْرَثَ حَرَجاً ومَشَقَّةً، فَلَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلامَ، وأَظْهَرَهُ ونَصَرَهُ، أَنْزَلَ عَلَيهِ مِنَ الْخِطَابِ مَا يُكَافِئُ تِلْكَ الْحَالَةَ مِنْ مُطَالَبَةِ الْكُفَّارِ بِالإِسْلامِ، أَوْ بِأَدَاءِ الجِزْيَةِ إِنْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ، أَوِ الإِسْلامِ أَوِ الْقَتْلِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ، ويَعُودُ هذَانِ الحُكْمَانِ – أَعْنِي الْمُسَالَمَةَ عِنْدَ الضَّعْفِ وَالْمُسَايَفَةَ عِنْدَ الْقُوَّةِ – بِعَوْدِ سَبَبِهِمَا، ولَيْسَ حُكْمُ الْمُسَايَفَةِ نَاسِخاً لِحُكْمِ الْمُسَالَمَةِ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَجِبُ امْتِثَالُهُ فِيْ وَقْتِهِ [(١)] .

وقَد غَلَبَ اسْتِعمَالُ هَذَا الْمُصطَلَحِ عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ، حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ مَقصُورٌ عَلَيهَا؛ كَمَا قَالَ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الهُمَامِ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَالجِهَادُ أَيْضًا أَعَمُّ؛ غَلَبَ فِي عُرْفِهِمْ عَلَى جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ : **دَعْوَتُهُمْ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، وَقِتَالُهُمْ إِنْ لَمْ يَقْبَلُوا** [(٢)]. وذَلِكَ لِأَنَّهَا السَّبِيلُ الأَهَمُّ، والَّتِي بِهَا تَقُومُ بَاقِي السُّبُلِ وتَحيَا، وبِتَركِهَا تَضِيعُ بَاقِي السُّبُلِ وتَمُوتُ؛ غَيرَ أَنَّ

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢/٤٢-٤٣) .

(٢) «فتح القدير» (٥/٤٣٥) وجاء في «العناية شرح الهداية» (٥/٤٣٧) : الْجِهَادُ : هُوَ الدُّعَاءُ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ، وَالْقِتَالُ مَعَ مَنْ امْتَنَعَ عَنْ الْقَبُولِ، بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ؛ وَلَمْ يُفْرَضْ لِعَيْنِهِ، وذلك لِكَوْنِهِ إِفْسَادًا فِي نَفْسِهِ، بِتَخْرِيبِ الْبِلَادِ وَإِفْنَاءِ الْعِبَادِ، لَكِنْ فرض لِإِعْزَازِ دِينِ اللَّهِ، وَدَفْعِ الشَّرِّ عَنْ الْعِبَادِ.

قَصرَ مُصطلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» عَلَى القِتَالِ أَمْرٌ غَيرُ سَدِيدٍ، ومَنهَجٌ غَيرُ رَشِيدٍ، لِأَنَّ في هَذَا إِخرَاجًا لِبَاقِي السُّبُلِ عَن كَونِهَا سُبُلاً للهِ، عَلَاوَةً عَلَى الْمُخَالَفَةِ لِمَنْهَجِ أَئِمَّةِ الدِّينِ في استِعمَالِ هذا الْمُصطَلَحِ عَلَى إطلَاقِهِ، دُونَ تَقييدٍ مُخرِجٍ لِأَكثَرِ أَفرَادِ هَذَا السَّبِيلِ. قَالَ العَلَّامَةُ جَمَالُ الدِّينِ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : **وليُعلَمَ أَنَّ «سَبِيلَ اللهِ» يَشمَلُ كُلَّ مَا فِيهِ نَفعٌ وخَيرٌ، وفَائِدَةٌ وقُربَةٌ ومَثُوبَةٌ؛ وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى الجِهَادِ لِأَنَّهُ فَردُهُ الأَشهَرُ، وجُزئِيُّهُ الأَهَمُّ، وَقتَ نُزُولِ الآيَاتِ، وإِلَّا فَلَا يَنحَصِرُ فِيهِ**[1].

كَمَا أَنَّ القِتَالَ غَيرُ مَقصُودٍ لِذَاتِهِ، وإِنَّمَا شُرِعَ لِضَرُورَةِ الدَّعوَةِ، كَمَا سَيَأتِي في كَلَامِ الأَئِمَّةِ، وأَنَّهُ يَدُورُ مَعَ مَصلَحَةِ الدَّعوَةِ؛ فَيَلزَمُ مِنْ هَذا التَّقيِيدِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ في أَكثَرِ أَوقَاتِ عُمُرِهِ في غَيرِ سَبِيلِ اللهِ؛ وَكَذَلكَ أَصحَابُهُ والتَّابِعُونَ، والأَئِمَّةُ الْمَهدِيُّونَ؛ ثُمَّ إِنَّ القِتَالَ قد يَكُونُ في بَعضِ الأَحَايِينِ أَو الحَالَاتِ مُخَالِفاً لِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي جَاءَت بِتَحقِيقِ الْمَصَالِحِ وتَكمِيلِهَا، وتَعطِيلِ الْمَفَاسِدِ وتَقلِيلِهَا، فَلَا يَتَحَقَّقُ مَقصُودُهُ الَّذِي شُرِعَ لِأَجلِهِ، فَيَعُودُ بِالضَّرَرِ عَلَى الأُمَّةِ في دِينِهَا ودُنيَاهَا، ثُمَّ يُتَّهَمُ مَنْ نَهَى عَنِ القِتَالِ في هَذِهِ الحَالِ بِأَنَّهُ يَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ؛ وفي هذا مِنَ الإِجحَافِ وَالتَّضيِيقِ وَالتَّحَكُّمِ مَا يَعُودُ عَلَى الأُمَّةِ بِأَسوَءِ الْمَفَاسِدِ، الَّتِي تَتَنَزَّهُ عَنهَا شَرِيعَةُ الحَكِيمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وسَيَأتِي الكَلَامُ عَلَى هذا عِندَ الكَلَامِ عن صُلحِ الحُدَيبِيَةِ .

وهَذِهِ مَسأَلَةٌ وَاضِحَةٌ جِدّاً لِمَن تَدَبَّرَ كَلَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهَديَ رَسُولِهِ ﷺ، وهَديَ أَصحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في خُرُوجِهِم لِدَعوَةِ الخَلقِ؛ وَكَذَلكَ كَلامَ أَئِمَّةِ هذا الدِّينِ سَلَفاً وخَلَفاً؛ فَإِنَّهُم مُجمِعُونَ على هَذِهِ الغَايَةِ وهَذَا الْمَقصُودِ .

ولَمَّا كَانَ هَذَا الأَمرُ قد يَخفَى على كَثيرٍ مِنَ العَامَّةِ، بل وعَلَى بَعضِ مَن يَنتَسِبُ إلى العِلمِ الشَّرعِيِّ، أَحبَبتُ أَنْ أَجمَعَ مَا تَيَسَّرَ لِي جَمعُهُ في هذا البَابِ، مِن أَقوَالِ أَهلِ الفِقهِ في الدِّينِ، مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ، والأَئِمَّةِ الْمَهدِيِّينَ، مِنَ الْمُفَسِّرِينَ والْمُحَدِّثِينَ، والفُقَهَاءِ والْمُرَبِّينَ؛ حَتَّى يَتَسَنَّى لنا فَهْمُ «سَبِيلِ اللهِ» حَقّاً، لِنَتَيَقَّنَ بِهَا، ونَسلُكَهَا، ونَخرَجَ فِيهَا عَلَى بَيِّنَةٍ وبَصِيرَةٍ مِنهَا، ونَجتَهِدَ حَقَّ الاِجْتِهَادِ، ونُنفِقَ أَموَالَنَا فِيهَا، ونَحتَسِبَ كُلَّ مَا نُقَدِّمُهُ فِيهَا «في سَبِيلِ اللهِ». ولِدَفعِ أَيِّ وَهمٍ قَد يَعرِضُ نَتِيجَةَ ضَعفِ الإِدرَاكِ لِفَهمِهِم، وقِلَّةِ الاِطِّلَاعِ عَلَى أَقوَالِهِم وأَفعَالِهِم؛ ولِئَلَّا نُخَطِّيءَ الدُّعَاةَ الْمُوَفَّقِينَ، والْمُبَلِّغِينَ الْمُخلِصِينَ، الَّذِينَ وَافَقُوا الحَقَّ

---

(١) «محاسن التأويل» (٨/٤٨٠) .

والصَّوَاب، وأَنزَلُوا آيَاتِ الكِتَابِ العَزِيزِ عَلَى مَا أُنزِلَتْ لَهُ، فَنَتَّهِمَهُم بِأَنَّهُم يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ، وأَنَّهُم يُنزِلُونَ الآيَاتِ عَلَى غَيرِ مَا أُنزِلَت لَهُ؛ وفي هذا الفَهمِ الخَاطِيءِ مِنَ الخَطَرِ الكَبِيرِ والشَّرِّ الْمُستَطِيرِ، في الصَّدِّ عَن سَبِيلِ اللهِ، وإعَاقَةِ طَرِيقِ الدَّعوَةِ مَا لَا يَعلَمُهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وقَدْ قَسَّمْتُ هَذَا البَحْثَ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ فُصُولٍ وَخَاتِمَةٍ، وفي كُلِّ فَصلٍ عُدَّة مَبَاحِثَ:

الفَصْلُ الأَوَّلُ ؛ وَفِيهِ سِتَّةُ مَبَاحِث :

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ الْمَعنَى الشَّرعِيِّ لِمُصطَلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» .

الْمَبْحَثُ الثَّانِيْ : بَيَانُ حَقِيقَةِ الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ، وأَنوَاعِهِ، ومَرَاتِبِ كُلِّ نَوعٍ .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : بَيَانُ أَنَّ جِهَادَ النَّفسِ فِي اللهِ هو أَسَاسُ الجِهَادِ، ولا يَتَمَكَّنُ مِن جِهَادِ اللِّسَانِ أَوِ السِّنَانِ إِلَّا مَن جَاهَدَ نَفسَهُ فِي اللهِ، وهُوَ الجِهَادُ الأَكبَرُ .

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : بَيَانُ أَنَّ الجِهَادَ الكَبِيرَ - بِنَصِّ القُرآنِ الكَرِيمِ - هُوَ جِهَادُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ؛ وتَقَدُّمِ جِهَادِ الدَّعوَةِ عَلَى جِهَادِ القِتَالِ في الرُّتبَةِ والفَضِيلَةِ .

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ : بَيَانُ أَنَّ جِهَادَ الْمُنَافِقِينَ هُوَ جِهَادٌ بِالدَّعوَةِ والحُجَّةِ .

المَبحَثُ السَّادِسُ : بَيَانُ أَنَّ مَا يُوَاجِهُهُ الدَّاعِيَةُ مِنَ الصَّدِّ والأَذَى أَشَدُّ عَلَى النَّفسِ مِنْ مُقَارَعَةِ العَدُوِّ بِالسِّيفِ .

الفَصْلُ الثَّانِي : وَفِيهِ خَمسَةُ مَبَاحِث :

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ فَهمِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم لِلغَايَةِ مِنَ الخُرُوجِ والجِهَادِ والقِتَالِ في سَبِيلِ اللهِ، وأَنَّ الغَايَةَ مِنْ خُرُوجِهِم هِيَ عَينُ الغَايَةِ مِنْ خُرُوجِ الْمُبَلِّغِينَ فِي زَمَانِنَا .

الْمَبْحَثُ الثَّانِي : بَيَانُ أَنَّ سَبِيلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّتِي بُعِثَ بِهَا هِيَ «الدَّعوَةُ إِلى اللهِ»، وهِيَ أَيضاً سَبِيلُ أَتْبَاعِهِ .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : بَيَانُ الغَرَضِ الأَسَاسِيِّ مِن وَرَاءِ تَشرِيعِ الخُرُوجِ لِلجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ، ومَرَاحِلِ تَشرِيعِهِ .

الْمَبْحَثُ الرابع : بَيَانُ مَفهُومِ النُّصرَةِ الْمَطلُوبَةِ لِلدِّينِ، والنَّصرِ الْمَوعُودِ عَليهَا، وأَسبَابِ انتِصَارِ هَذهِ الأُمَّةِ على أَعدَاءِهَا .

المَبحَثُ الخَامِسُ : بَيَانُ حَقِيقَةِ الفَتحِ الَّذِي بَشَّرَ اللهُ ﷻ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وأَنَّهُ فَتحُ قُلُوبِ العِبَادِ لِقَبُولِ الإِسلَامِ، ودُخُولُهُم فِيهِ .

الفَصْلُ الثَّالِثُ :

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وحَملِ أَئِمَّةِ التَّفسِيرِ لِآيَاتٍ فِيهَا هذا الْمُصطَلَحُ عَلَى مَفهُومِهِ العَامِّ :

(١) «الإِحصَارُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .
(٢) «الإِصَابَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .
(٣) «الإِضلَالُ وَالضَّلَالُ عَن سَبِيلِ اللهِ» .
(٤) «الإِنفَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .
(٥) «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»
(٦) «الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ».
(٧) «الدَّعوَةُ إِلَى سَبِيلِ اللهِ» .
(٨) «الرِّبَاطُ فِي سَبِيلِ اللهِ».
(٩) «الصَّدُّ عَن سَبِيلِ اللهِ» .
(١٠) «الصَّدَقَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ».
قَرَارُ الْمَجمَعِ الفِقهِيِّ بِرَابِطَةِ العَالَمِ الإِسلَامِيِّ فِي بَيَانِ أَنَّ الدَّعوَةَ إِلى اللهِ مِنْ أَعظَمِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ودُخُولِهَا فِي مَعنَى قَولِهِ ﷻ : ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ .
(١١) «الضَّربُ فِي سَبِيلِ اللهِ».
(١٢) «القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .
(١٣) «القَتلُ والْمَوتُ فِي سَبِيلِ اللهِ».
(١٤) «النَّفرُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .
(١٥) «الهِجرَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ»

المَبحَثُ الثَّانِي :

ذِكرُ أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ وآثَارٍ سَلَفِيَّةٍ عَن الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ، والأَئِمَّةِ الْمَهدِيِّينَ، فِيهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» بِمَفهُومِهِ العَامِّ :

أَوَّلاً : بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» .

ثَانِياً : الحَجُّ والعُمرَةُ «فِي سَبِيلِ اللهِ» .

ثَالِثاً : الخُرُوجُ لِطَلَبِ العِلمِ هُوَ خُرُوجٌ «فِي سَبِيلِ اللهِ» .

رَابِعاً : الخُرُوجُ لِلجِهَادِ الكَبِيرِ، بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ، بِاللِّسَانِ، ولِلجِهَادِ بِالسَّيفِ والسِّنَانِ، هُوَ خُرُوجٌ وجِهَادٌ «فِي سَبِيلِ اللهِ» .

خَامِساً : السَّعيُ على إِعفَافِ النَّفسِ والوَالِدَينِ وَالأَولَادِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» .

سَادِساً : الْمَشيُ إلى الجُمُعَةِ والجَمَاعَةِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» .

سَابِعاً : الْمَشيُ لِتَودِيعِ الْمُجَاهِدِينَ والخَارِجينَ لِخِدمَةِ الدِّينِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» .

واللهَ أَسأَلُ أَنْ يَنفَعَ بِهَذَا العَمَلِ ويُبَارِكَ فِيهِ، وأَنْ يَجعَلَهُ عَمَلاً صَالِحاً، ولِوَجهِهِ خَالِصاً، وأَنْ يَغفِرَ لَنَا الخَطَأَ والزَّلَلَ، ويُجَنِّبَنَا سُوءَ الفَهمِ وسُوءَ العَمَلِ؛ وأَنْ يُوَفِّقَنَا لِلخُرُوجِ فِي سَبِيلِهِ، لِنُصرَةِ دِينِهِ، وإِعلَاءِ كَلِمَتِهِ، وأَنْ يَجعَلَنَا مِن عِبَادِهِ الْمُخبِتِينَ، وجندِهِ الْمُوَحِّدِينَ، ودُعَاتِهِ الْمُخلِصِينَ، وآخِرُ دَعوَانَا أَنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.



سليمان بن زهدي العايدي

الفَصلُ الأَوَّلُ

الْمَبحَثُ الأَوَّلُ :

بَيَانُ الْمَعنَى الشَّرعِيِّ لِمُصطلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» :

«**السَّبِيلُ**» : قَالَ ابْن السِّكِّيتِ وغَيرُهُ : السَّبيلُ والطَّرِيقُ يُؤَنَّثَانِ ويُذَكَّرَانِ .. وكُلُّ سَبِيلٍ أُرِيدَ بِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَفِيه بِرٌّ، فَهُوَ داخلٌ فِي «**سَبِيلِ اللهِ**» (١) .

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ في قَولِهِ تَعَالَى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ **[البقرة:٢٦٢]** : هَذَا بَيَانٌ لِلقَرضِ الحَسَنِ، مَا هُوَ ؟ وهُوَ أَن يَكُونَ في سَبِيلِهِ، أَيْ في مَرضَاتِهِ، والطَّرِيقِ الْمُوصِلَةِ إِلَيهِ، ومِنْ أَنفَعِهَا سَبِيلُ الجِهَادِ . **فَسَبِيلُ اللهِ : خَاصٌّ وَعَامٌّ، والخَاصُّ جُزءٌ مِنَ السَّبِيلِ العَامِّ** (٢) .

فَيُؤخَذُ مِن هَذَا : أَنَّ «سَبِيلَ اللهِ» يُطلَقُ عَلَى مَفهُومَينِ : عَامٍّ وخَاصٍّ، والخَاصُّ جُزءٌ مِن العَامِّ :

أَوَّلاً : الْمَفهُومُ العَامُّ لِمُصطلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» :

قَالَ ابنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ : و«**سبيل الله**» عامٌّ، يقعُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ خَالِصٍ سُلِكَ بِهِ طَرِيقُ التقرُّب إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، بأداءِ الفَرَائض والنَّوافل وأنْواع التَّطوعات، وَإِذَا أُطْلق فَهُوَ فِي الغالِب واقعٌ عَلَى الجهَاد، حَتَّى صارَ لكَثْرة الاسْتِعْمال كَأَنَّهُ مقصورٌ عَلَيْهِ (٣) .

---

(١) «تهذيب اللغة» (٣٠٢/١٢) .
(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» ص (٣٦٥) .
(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣٣٨/٢) .

وقَالَ العَلَّامةُ مُحَمَّدُ الطَّاهِرُ بنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَ«سَبِيلُ الرَّبِّ» : طَرِيقُهُ؛ وَهُوَ مَجَازٌ لِكُلِّ عَمَلٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبَلِّغَ عَامِلَهُ إِلَى رِضَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لِأَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي يَحْصُلُ لِعَامِلِهِ غَرَضٌ مَا، يُشْبِهُ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَ إِلَى مَكَانٍ مَقْصُودٍ، فَلِذَلِكَ يُسْتَعَارُ اسْمُ السَّبِيلِ لِسَبَبِ الشَّيْءِ .. وَإِضَافَةُ «سَبِيلِ» إِلَى «رَبِّكَ» بِاعْتِبَارِ أَنَّ اللَّهَ أَرْشَدَ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِالْتِزَامِهِ؛ وَصَارَ هَذَا الْمُرَكَّبُ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ [(١)] .

وقَالَ العَلَّامةُ ابنُ بَادِيسَ الصُّنهَاجِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ** ﴾: وسَمَّاهُ «سَبِيلاً» لِيَلتَزِمُوهُ فِي جَمِيعِ مَرَاحِلِ سَيرِهِم فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، لِيُفضِيَ بِهِم إِلى الغَايَةِ الْمَقصُودَةِ، وهِيَ السَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ فِي الحَيَاةِ الأُخرَى؛ وأَضَافَهُ إِلى نَفسِهِ، لِيَعلَمُوا أَنَّهُ هُوَ وَضَعَهُ، وأَنَّهُ لا شَيءَ يُوصِلُ إِلى رِضوَانِهِ سِوَاهُ .. وأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَدعُوَ النَّاسَ أَجمَعِينَ إِلى هَذِهِ السَّبِيلِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ** ﴾ [(٢)] .

وقَالَ العَلَّامةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ ؛ «سَبيل» بِمعنَى طَرِيق؛ و«سَبيلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى » : هُو شَرعُهُ؛ لأَنَّهُ يَهدِي إِليهِ، ويُوصِلُ إِليهِ؛ قَال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ** ﴾ **[الأنعام: ١٥٣]**؛ وأُضِيفَ إِلى اللهِ لِسَبَبَينِ؛ السَّبَبُ الأَوَّلُ : أَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَهُ لِعِبَادِهِ، وشَرَعَهُ لَهُم؛ والسَّبَبُ الثَّانِي : أَنَّهُ مُوصِلٌ إِلَيهِ؛ ويُضَافُ «السَّبِيلُ» أَحيَاناً إِلى سَالِكِ السَّبِيلِ؛ فَيُقالُ : سَبِيلُ الْمُؤمِنِينَ، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ **[النساء: ١١٥]**؛ ولا تَناقُضَ بَينَهمَا؛ لأَنَّهُ يُضَافُ إِلى المؤمِنِينَ بِاعتِبَارِ أَنَّهم هُمُ الَّذِينَ سَلَكُوهُ؛ وإِلى اللهِ بِاعتِبَارِ أَنَّهُ الَّذِي شَرَعَهُ، وأَنَّهُ مُوصِلٌ إِلَيهِ[(٣)].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٤/٣٢٦) .

(٢) «تفسير ابن باديس» ص (٣١٨) .

(٣) «تفسير العثيمين» (٣/٣٠٩) .

فَالْمَعنَى الشَّرعِيُّ العَامُّ لِمُصطَلَحِ «**فِي سَبِيلِ اللهِ**» : هُوَ طَاعَتُهُ ومَرضَاتُهُ، والطَّرِيقُ الْمُوصِلَةُ إلى ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما : **إِنَّ سَبِيلَ اللهِ كُلُّ عَمَلٍ صَالِحٍ** (١) .

وسُئِلَ مُجَاهدٌ رحمه الله عَنْ رَجُلٍ قَالَ : كُلُّ شَيْءٍ لِيْ فِي سَبِيلِ اللهِ . فَقَالَ مُجَاهدٌ رحمه الله : **لَيْسَ سَبِيلُ اللهِ وَاحِداً، كُلُّ خَيْرٍ عَمِلَهُ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ** (٢) .

وقَالَ النَّوَوِيُّ رحمه الله في شَرحِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :" **مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ** ..". قَالَ : قَوْلُهُ «**فِي سَبِيلِ اللهِ**» قيل : هُوَ عَلَى العُمُومِ فِي جَمِيعِ وُجُوهِ الْخَيرِ، وقِيلَ هُوَ مَخْصُوصٌ بِالجِهَادِ، والأَوَّلُ أَصَحُّ وأَظْهَرُ (٣) .

وقَالَ الْمُنَاوِيُّ رحمه الله : «سَبِيلُ اللهِ» : هِيَ طَرِيقُ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ بكُلِّ عَمَلٍ خَالِصٍ(٤) .

قُلتُ : وسَيَأتِي الكَثِيرُ مِنْ أَقوَالِ الأَئِمَّةِ فِي هَذَا البَابِ، عِندَ الكَلَامِ عَلَى الآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» بِعَونِهِ سبحانه وتعالى .

ثَانِياً : الْمَفهُومُ الخَاصُّ لِمُصطَلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» :

إِنَّ فِي قَولِهِ سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ بَيَاناً : أَنَّ سَبِيلَ رَسُولِهِ ﷺ وسَبِيلَ أَتبَاعِهِ : هِيَ الدَّعوَةُ إلى اللهِ؛ ولا فَرقَ فِي الحَقِيقَةِ بَينَ سَبِيلِ اللهِ عز وجل وسَبِيلِ رَسُولِهِ ﷺ وسَبِيلِ الْمُؤمِنِينَ؛ فَإِنَّ «سبِيلَ اللهِ» : هِيَ طَرِيقُهُ الَّتِي شَرَعَهَا لَنَا لِنَيلِ مَحَبَّتِهِ ورِضوَانِهِ، ودُخُولِ جَنَّتِهِ؛ و«سَبِيلَ رَسُولِهِ» : هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا لَهُ ﷺ ولَنَا لِنَيلِ مَحَبَّتِهِ ورِضوَانِهِ، ودُخُولِ جَنَّتِهِ؛ وَكَذَلِكَ «سَبِيلُ الْمُؤمِنِينَ» : هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا لَنَا لِنَيلِ مَحَبَّتِهِ ورِضوَانِهِ،

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح برقم (٣٦٩) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة مصنفه برقم (٣٠٨٣٩) .
(٣) «شرح مسلم للنووي» (١١٧/٧) .
(٤) «فيض القدير» (٤٠٠/٤) .

ودُخُولِ جَنَّتِهِ؛ كَمَا قَالَ أَهلُ التَّفسِيرِ : وَسَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ : هُوَ الدِّينُ الْحَنِيفِيُّ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ[١] .

فسَبِيلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وسَبِيلُ رَسُولِهِ ﷺ وسَبِيلُ الْمُؤمِنِينَ في الحَقِيقَةِ هِيَ سَبِيلٌ وَاحِدَةٌ وصِرَاطٌ وَاحِدٌ؛ مَنْ جَاهَدَ نَفسَهُ فِيهَا هَدَاهُ اللهُ سُبُلَ السَّلامِ؛ ولَيسَ «سَبيلُ اللهِ» مُغَايِراً لِسَبِيلِ رَسُولِهِ؛ فَهِيَ بِاعتِبَارِ مَنْ شَرَعَهَا ويُرَادُ الوُصُولُ إِلَيهِ بِهَا، هِيَ «سَبِيلُ اللهِ»، وباعتِبَارِ مَنْ شُرِعَتْ لَهُ، ويُرَادُ إِيصَالُهُ إلى اللهِ بِهَا هِيَ : «سَبِيلُ رَسُولِهِ ﷺ وسَبِيلُ الْمُؤمِنِينَ»؛ كَمَا تَقَدَّمَ في كَلامِ العَلَّامَةِ ابْنِ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وأَخَصُّ السُبُلِ الْمُقَرِّبَةِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَفضَلُهَا مَكَانَةً، وأَعْلاهَا دَرَجَةً، وأَقْرَبُهَا وَسِيلَةً عِنْدَ اللهِ هِيَ : سَبِيلُ الْجِهَادِ فِي دَعْوَةِ الْخَلْقِ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِنَوْعَيْهِ : **الجِهَادِ بالدَّعْوَةِ بِالْقُرْآنِ**، وهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جِهَاداً كَبِيراً، كَمَا سَيَأتِي. **وَالجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ** .

فَالْمَعنَى الشَّرعِيُّ الخَاصُّ لِمُصطَلَحِ «**سَبِيلِ اللهِ**» : هُوَ الجُهدُ والجِهَادُ لِإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ، ودَعوَةِ الخَلقِ إِلَيهِ؛ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّه للهِ، وتَكُونَ الدَّعوَةُ للهِ ولِدِينِهِ؛ سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الجِهَادُ جِهَادَ طَلَبٍ أَو دِفَاعٍ، بِالحُجَّةِ واللِّسَانِ، أَوِ القُوَّةِ والسِّنَانِ؛ كَمَا قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُرَادُ بِـ«**كَلِمةِ اللهِ**» : دَعْوَةُ اللهِ إِلَى الإِسْلامِ[٢] .

وإِذَا أُطْلِقَتْ «**سَبِيلُ اللهِ**»، أُرِيدَ بِهَا غالبا هَذِهِ السَّبِيلُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ** ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ لِمَا فِيهَا مِنْ إِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وإِتْمَامِ نُورِهِ، وإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ والَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ من إِنْزَالِ الْكُتُبِ، وإِرسَالِ الرُّسُلِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ **الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم: ١].

(**١**) «البحر المحيط» (٦٧/٤) و«تفسير الطبري» (٢٠٤/٩) .

(**٢**) «فتح الباري» (٣٦/٦) .

وهَذَا التَّفْسِيرُ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ – «**فِي سَبِيلِ اللهِ**» – هُوَ الَّذِي بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ حِينَمَا سُئِلَ عَنِ الرَّجلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَحَمِيَّةً وَرِيَاءاً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ فَقَالَ ﷺ :" **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ** "(١)؛ فهذا تَقْيِيْدٌ لِلقِتَالِ «فِي سَبيلِ اللهِ» بِأَنَّهُ مَا كَانَ لِهَذِهِ الغَايةِ، ولَيْسَ فِيهِ تَقْيِيْدٌ لِـ«سَبيلِ اللهِ» بِالقِتَالِ، بَلْ سُبُلُ اللهِ كَثِيرةٌ، كَمَا تَقَدَّمَ، لَكِنَّ أَخَصَّهَا، وأَعظَمَهَا أَجراً، وأَدوَمَهَا نَفعاً هُوَ : الدَّعوَةُ إِلَى اللهِ، والجِهَادُ فِي سَبِيلِهَا .

وفِي شَرحِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :" **لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ – إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ** " (٢). قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَولِهِ ﷺ : (**وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ**) : هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى الإِخْلاص فِي الْغَزْو، وَأَنَّ الثَّوَابَ الْمَذْكُورَ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ أَخْلَصَ فِيهِ، وَقَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَة اللهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ قَالُوا – أَي الْعُلَمَاءُ –: وَهَذَا الْفَضْلُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي قِتَال الْكُفَّار، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ **خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللهِ** فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ، وَفِي إِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ (٣) .

ولَمَّا كَانَتِ الدَّعوَةُ إِلَى اللهِ والجِهَادُ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الدَّعوَةِ سَبَباً وَحِيداً لإِعلاَءِ كَلِمَةِ اللهِ وإِحيَاءِ دِينِهِ ونَشرِهِ، والدِّفَاعِ عَنهُ، غَلَبَ استِعمَالُ مُصطَلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» فِيهِ، وصَارَ إِذَا أُطلِقَ، انْصَرَفَ إِلَى هَذِهِ السَّبِيلِ، حَتَّى كَأَنَّمَا انحَصَرَ فِيهَا؛ وذَلِكَ لِمَا سَبَقَ مِنْ أَنَّهُ بِالقِيَامِ بِالدَّعوَةِ إِلَى الدِّينِ، والجِهَادِ فِي سَبِيلِهَا، فَإِنَّهُ يَقُومُ الدِّينُ، ويَظهَرُ عَلَى غَيرِهِ، وتَعلُو كَلِمَةُ اللهِ، وتَحيَا شَعَائِرُهُ فِي النَّاسِ؛ وإِذَا تُرِكَتِ الدَّعوَةُ، ولَمْ يُجَاهَدْ فِي سَبِيلِهَا، فَإِنَّ الدِّينَ يَخْرُجُ مِنْ حَيَاةِ النَّاسِ، وتَمُوتُ

---

(١) رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري (١٠٢٣) و(١٨١٠) ومسلم (٥٠٢٨) و(٥٠٢٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٨٠٣) ومسلم برقم (٤٩٧٠) .

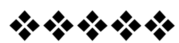
(٣) «شرح مسلم للنووي» (١٣/٢٦). قلت : هنا يثبت الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ نقلاً عن العلماء مشروعيَّة «الخروج في سبيل الله لإقامة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر»؛ وهذا كخروج الدُّعاة والْمُبلِّغين في زماننا؛ ولمعرفة المزيد عن التَّأصيل الشَّرعيِّ لهذا الخروج، يُرجى الرجوعُ لكتاب «التَّأصيل الشرعيّ البليغ للخروج في سبيل الله للدعوة والتَّبليغ» للعبد الفقير عفا الله عنه .

شَعَائِرُهُ فِيهِم، ويَقَعُونَ في التَّهلُكَةِ؛ فَكَانَتِ الدَّعوَةُ إلى اللهِ وإلى سَبِيلِهِ بِمَثَابَةِ السَّبِيلِ الأُمِّ، الَّتِي بِوُجُودِهَا عَلَى مِنهَاجِ النُّبُوَّةِ تَحيَا بَاقِي السُّبُلِ، وبِتَركِهَا تَمُوتُ بَاقِي السُّبُلِ .

وقَالَ الإِمَامُ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ في قَولِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : **والجِهَادُ بِالنَّفسِ يَكُونُ بِاللِّسَانِ كَمَا يَكُوُن بِاليَدِ، بَل قَدْ يَكُونُ أقوَى مِنهُ**؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **جَاهِدُوا المُشرِكِينَ بِأَيدِيكُم وأَلسِنَتِكُم وأَموَالِكُم** ". رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وغَيرُهُ [١] .

وقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في قَولِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ الجِهَادُ : بَذلُ الوُسعِ فِي حُصُولِ الغَرَضِ الْمَطلُوبِ؛ فَالجِهَادُ في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ : هُوَ القِيَامُ التَّامُّ بِأَمرِ اللهِ، ودَعوَةِ الخَلقِ إلى سَبِيلِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ مُوصِلٍ إلى ذَلِكَ : مِنْ نَصِيحَةٍ وتَعلِيمٍ وقِتَالٍ وأَدَبٍ وزَجرٍ ووَعْظٍ، وغَيرِ ذَلِكَ [٢] .

فَعَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، يَكُونُ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَخُرُوجُهُ هَذَا «**فِي سَبِيْلِ اللهِ**»، سَوَاءٌ كَانَ خُرُوجُهُ لِلجِهَادِ بِاللِّسَانِ، بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ، أَوْ لِلجِهَادِ بِالْقِتَالِ عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ، طَلَباً وَابْتِدَاءاً لِنَشرِهَا، أَو دِفَاعاً عَنهَا، أَوْ لِتَعَلُّمِ العِلْمِ النَّافِعِ وتَعْلِيمِهِ ونَشرِهِ؛ وفي هَذَا يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : **وَالْمَقْصُودُ أَنَّ سَبِيلَ اللهِ : هِيَ الْجِهَادُ وَطَلَبُ الْعِلْمِ، ودَعْوَةُ الْخَلْقِ بِهِ إلى اللهِ** [٣]. ومَنْ أَنْفَقَ مَالَهُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وذَلِكَ بِأَيٍّ مِنَ الجِهَاتِ السَّابِقَةِ، فَنَفَقَتُهُ هَذِهِ «في سَبيلِ اللهِ».



(١) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ص (٢٠٦) .

(٢) «تفسير السعدي» (٥٤٦) .

(٣) «مفتاح دار السعادة» ص (٧٠) .

الْمَبْحَثُ الثَّانِي:

بَيَانُ حَقِيقَةِ الجهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأَنواعِهِ، ومَرَاتِبِ كُلِّ نَوعٍ:

قَالَ الإِمَامُ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «**الْجِهَادُ**»: **حَقِيقَتُهُ الِاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ وَمِنْ دَفْعِ مَا يَبْغُضُهُ اللهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ**[1].

وقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ ذِرْوَةَ سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَقُبَّتَهُ، وَمَنَازِلُ أَهْلِهِ أَعْلَى الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا لَهُمُ الرِّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا، فَهُمُ الْأَعْلَوْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الذِّرْوَةِ الْعُلْيَا مِنْهُ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَنْوَاعِهِ كُلِّهَا، فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ: بِالْقَلْبِ وَالْجَنَانِ، وَالدَّعْوَةِ وَالْبَيَانِ، وَالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ؛ وَكَانَتْ سَاعَاتُهُ مَوْقُوفَةً عَلَى الْجِهَادِ: بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ. وَلِهَذَا كَانَ أَرْفَعَ الْعَالَمِينَ ذِكْرًا، وَأَعْظَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا.

وَأَمَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْجِهَادِ مِنْ حِينِ بَعَثَهُ، وَقَالَ: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [الْفُرْقَانُ: **٥٢**][2]. فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ أَمَرَ فِيهَا بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ وَتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا هُوَ بِتَبْلِيغِ الْحُجَّةِ، وَإِلاَّ فَهُمْ تَحْتَ قَهْرِ أَهْلِ الإِسْلامِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣].

فَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَصْعَبُ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ جِهَادُ خَوَاصِّ الْأُمَّةِ وَوَرَثَةِ الرُّسُلِ، وَالْقَائِمُونَ بِهِ أَفْرَادٌ فِي الْعَالَمِ، وَالْمُشَارِكُونَ فِيهِ وَالْمُعَاوِنُونَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانُوا هُمُ الْأَقَلِّينَ عَدَدًا، فَهُمُ الْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٩١ - ١٩٢).

(٢) يعني القُرْآنَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما. «تفسير ابن كثير» (٣/٣٢٦).

وَلَمَّا كَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ قَوْلُ الْحَقِّ مَعَ شِدَّةِ الْمُعَارِضِ، مِثْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهِ عِنْدَ مَنْ تَخَافُ سَطْوَتَهُ وَأَذَاهُ، كَانَ لِلرُّسُلِ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ – مِنْ ذَلِكَ الْحَظُّ الْأَوْفَرُ، وَكَانَ لِنَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ أَكْمَلُ الْجِهَادِ وَأَتَمُّهُ.

وَلَمَّا كَانَ جِهَادُ أَعْدَاءِ اللَّهِ فِي الْخَارِجِ فَرْعًا عَلَى جِهَادِ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ** ". كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ، وَأَصْلًا لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا، لِتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَتَتْرُكَ مَا نُهِيَتْ عَنْهُ، وَيُحَارِبَهَا فِي اللَّهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ؛ فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ وَالِانْتِصَافُ مِنْهُ وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ، مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ، لَمْ يُجَاهِدْهُ وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ، بَلْ لَا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ.

فَهَذَانِ عَدُوَّانِ قَدِ امْتُحِنَ الْعَبْدُ بِجِهَادِهِمَا، وَبَيْنَهُمَا عَدُوٌّ ثَالِثٌ لَا يُمْكِنُهُ جِهَادُهُمَا إِلَّا بِجِهَادِهِ، وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَهُمَا، يُثَبِّطُ الْعَبْدَ عَنْ جِهَادِهِمَا، وَيُخَذِّلُهُ وَيُرْجِفُ بِهِ، وَلَا يَزَالُ يُخَيِّلُ لَهُ مَا فِي جِهَادِهِمَا مِنَ الْمَشَاقِّ وَتَرْكِ الْحُظُوظِ وَفَوْتِ اللَّذَّاتِ وَالْمُشْتَهَيَاتِ، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُجَاهِدَ ذَيْنِكَ الْعَدُوَّيْنِ إِلَّا بِجِهَادِهِ، فَكَانَ جِهَادُهُ هُوَ الْأَصْلَ لِجِهَادِهِمَا، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** ﴾ [فاطر: ٦]، وَالْأَمْرُ بِاتِّخَاذِهِ عَدُوًّا تَنْبِيهٌ عَلَى اسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ فِي مُحَارَبَتِهِ، وَمُجَاهَدَتِهِ، كَأَنَّهُ عَدُوٌّ لَا يَفْتُرُ وَلَا يُقَصِّرُ عَنْ مُحَارَبَةِ الْعَبْدِ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ.؛ كما قَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣١].

وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُجَاهِدُوا فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ، كَمَا أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَكَمَا أَنَّ حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، فَحَقُّ جِهَادِهِ أَنْ يُجَاهِدَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ، لِيُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ لِلَّهِ، فَيَكُونَ كُلُّهُ للهِ وَبِاللَّهِ، لَا لِنَفْسِهِ وَلَا بِنَفْسِهِ، وَيُجَاهِدَ شَيْطَانَهُ بِتَكْذِيبِ وَعْدِهِ، وَمَعْصِيَةِ أَمْرِهِ، وَارْتِكَابِ نَهْيِهِ، فَإِنَّهُ يَعِدُ الْأَمَانِيَّ وَيُمَنِّي الْغُرُورَ، وَيَعِدُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَيَنْهَى عَنِ التُّقَى وَالْهُدَى وَالْعِفَّةِ وَالصَّبْرِ، وَأَخْلَاقِ الْإِيمَانِ كُلِّهَا،

فَجِهَادُهُ بِتَكْذِيبِ وَعْدِهِ، وَمَعْصِيَةِ أَمْرِهِ، فَيَنْشَأُ لَهُ مِنْ هَذَيْنِ الْجِهَادَيْنِ قُوَّةٌ وَسُلْطَانٌ، وَعُدَّةٌ يُجَاهِدُ بِهَا أَعْدَاءَ اللَّهِ فِي الْخَارِجِ : بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَيَدِهِ وَمَالِهِ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي حَقِّ الْجِهَادِ : فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ اسْتِفْرَاغُ الطَّاقَةِ فِيهِ، وَأَلَّا يَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ. وَقَالَ مُقاتلٌ : اعْمَلُوا للهِ حَقَّ عَمَلِهِ، وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ : **هُوَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى** ..

[فَصلٌ فِي مَرَاتِبِ الْجِهَادِ]

إِذَا عُرِفَ هَذَا، فَالْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ : جِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ.

فَجِهَادُ النَّفْسِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ أَيْضًا :

إِحْدَاهَا : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، الَّذِي لا فَلاحَ لَهَا وَلا سَعَادَةَ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلاَّ بِهِ، وَمَتَى فَاتَهَا عِلْمُهُ شَقِيَتْ فِي الدَّارَيْنِ .

الثَّانِيَةُ : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلاَّ فَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بلا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعْهَا .

الثَّالِثَةُ : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لا يَعْلَمُهُ، وَإِلاَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ، وَلا يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ وَلا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

الرَّابِعَةُ : أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ وَأَذَى الْخَلْقِ، وَيَتَحَمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ للهِ .

فَإِذَا اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الْمَرَاتِبَ الأَرْبَعَ صَارَ مِنَ الرَّبَّانِيِّينَ؛ فَإِنَّ السَّلَفَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ الْعَالِمَ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى رَبَّانِيّاً حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ، وَيَعْمَلَ بِهِ، وَيُعَلِّمَهُ؛ **فَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ، فَذَاكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ**[1][2] .

[فَصْلٌ فِي مَرَاتِبِ جِهَادِ الشَّيْطَانِ]

وَأَمَّا جِهَادُ الشَّيْطَانِ فَمَرْتَبَتَانِ :

إِحْدَاهُمَا : جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إِلَى الْعَبْدِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ الْقَادِحَةِ فِي الْإِيمَانِ.

الثَّانِيَةُ : جِهَادُهُ عَلَى دَفْعِ مَا يُلْقِي إِلَيْهِ مِنَ الْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالشَّهَوَاتِ؛ فَالْجِهَادُ الْأَوَّلُ يَكُونُ بَعْدَهُ الْيَقِينُ، وَالثَّانِي : يَكُونُ بَعْدَهُ الصَّبْرُ. قَالَ ﷻ : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السَّجْدَة: ٢٤]؛ فَأَخْبَرَ أَنَّ إِمَامَةَ الدِّينِ إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَالصَّبْرُ يَدْفَعُ الشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةَ، وَالْيَقِينُ يَدْفَعُ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ.

[فَصْلٌ فِي مَرَاتِبِ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ]

وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَأَرْبَعُ مَرَاتِبَ : بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْمَالِ، وَالنَّفْسِ؛ وَجِهَادُ الْكُفَّارِ أَخَصُّ بِالْيَدِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَخَصُّ بِاللِّسَانِ.

[فَصْلٌ فِي جِهَادِ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ]

---

(١) رواه الترمذي عن الفضيل بن عياض قال : **عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ، يُدْعَى كَبِيراً فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.** وسنده إلى الفضيل صحيح، ورواه أحمد في كتاب «الزهد» (٣٣٠) عن عبد العزيز بن ظبيان، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٩٣) عن ثور بن يزيد، كلاهما من قول المسيح ابن مريم عليه السلام .

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٦) .

وَأَمَّا جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ فَثَلَاثُ مَرَاتِب، **الْأُولَى** : بِالْيَدِ إِذَا قَدَرَ، فَإِنْ عَجَزَ انْتَقَلَ إِلَى اللِّسَانِ، فَإِنْ عَجَزَ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَرْتَبَةً مِنَ الْجِهَادِ، وَ" **مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ** " [(١)] .

[فَصْلٌ : أَكْمَلُ الْخَلْقِ مَنْ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ]

وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ كُلَّهَا، وَالْخَلْقُ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَفَاوُتَهُمْ فِي مَرَاتِبِ الْجِهَادِ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ خَاتِمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّهُ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَشَرَعَ فِي الْجِهَادِ مِنْ حِينِ بُعِثَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ ﷻ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ **[الْمُدَّثِّر: ١ – ٤]** شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الدَّعْوَةِ، وَقَامَ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَتَمَّ قِيَامٍ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجِهَارًا؛ وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ **[الْحِجْر: ٩٤]** فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا تَأْخُذُهُ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، فَدَعَا إِلَى اللَّهِ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالْحُرَّ وَالْعَبْدَ، وَالذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، وَالْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ.

وَلَمَّا صَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَصَرَّحَ لِقَوْمِهِ بِالدَّعْوَةِ، وَنَادَاهُمْ بِسَبِّ آلِهَتِهِمْ، وَعَيْبِ دِينِهِمْ، اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ، وَلِمَنِ اسْتَجَابَ لَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَنَالُوهُ وَنَالُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ ﷻ فِي خَلْقِهِ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ **[فصلت: ٤٣]**.. [(٢)] .

---

(١) قلت : انظر كيف يشيرُ الإمامُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ هذه المراتب الثَّلاث عشرة للجهاد تدخل في حديث :" **مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ** ..". الحديث . حيثُ حَمَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ مفهوم «الغزو» هنا على المفهوم العامِّ للجهاد في سبيل الله. وسيأتي نظائرُ كثيرةٌ لهذا من كلامه وكلام غيره من أئمَّة الهدى .

(٢) «زاد المعاد» (٣/٥ – ١٧) قلت : وانظر هنا كيف جعل ابن القيِّم مرتبة الجهاد بالدَّعوة إلى الدِّين أوْلَى مراتب الجهاد النبويِّ في مكَّة؛ فهو الجهاد الكبير، والأساس الَّذي يُجاهَد عليه ولأجله .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ:

بَيَانُ أَنَّ جِهَادَ النَّفسِ في اللهِ هو أَسَاسُ الجِهَادِ، ولا يَتَمَكَّنُ مِن جِهَادِ اللِّسَانِ أَوِ السِّنَانِ إلا مَن جَاهَدَ نَفسَهُ في اللهِ، وهُوَ الجِهَادُ الأَكبَرُ:

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ في «حَقِّ الجِهَادِ»: **هُوَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى، وَهُوَ الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ، وَهُوَ حَقُّ الْجِهَادِ** [(١)].

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تَفسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾: أَيْ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ فِينَا. أَيْ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِنَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: **إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ قَبْلَ فَرْضِ الْقِتَالِ**. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: فَهِيَ قَبْلَ الْجِهَادِ الْعُرْفِيِّ، وَإِنَّمَا هُوَ جِهَادٌ عَامٌّ فِي دِينِ اللَّهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ. وقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: **لَيْسَ الْجِهَادُ فِي هَذِهِ الآيَةِ قِتَالَ الْعَدُوِّ، بَلْ هُوَ نَصْرُ الدِّينِ، وَالرَّدُّ عَلَى الْمُبْطِلِينَ، وَقَمْعُ الظَّالِمِينَ، وَأَعْظَمُهُ الأَمْرُ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنكَرِ، وَمِنْهُ مُجَاهَدَةُ النُّفُوسِ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْجِهَادُ الأَكْبَرُ؛ قَالَهُ الحَسَنُ وغَيرُهُ** [(٢)]؛ وقَالَ الضَّحَّاكُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي الْهِجْرَةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سَبِيلَ الثَّبَاتِ عَلَى الإِيْمَانِ[(٣)]؛ وقَالَ سَهلُ بنُ عَبدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي إِقَامَةِ السُّنَّةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الْجَنَّةِ**؛ وقَالَ: **مَثَلُ السُّنَّةِ فِي الدُّنيَا كَمَثَلِ الْجَنَّةِ فِي الْعُقْبَى، مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فِي الْعُقْبَى سَلِمَ، فَكَذَلِكَ مَنْ لَزِمَ السُّنَّةَ فِي الدُّنيَا سَلِمَ** [(٤)]؛ وقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: **لَيْسَ عَلَى الأَرْضِ عَبْدٌ أَطَاعَ رَبَّهُ، وَدَعَا إِلَيْهِ، وَنَهَى عَنهُ، إلاَّ وَإِنَّهُ قَدْ جَاهَدَ فِي اللهِ**[(٥)][(٦)].

---

(١) «تفسير البغوي» (٣/٣٥٤).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/٢٩٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) «تفسير البغوي» (٦/٢٥٦) و«تفسير الثعلبي» (٧/٢٩٠).

(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (١١/٤٧٣) برقم (١٨٢٩٩).

(٦) «تفسير القرطبي» (١٣/٢٩٤).

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ **[العنكبوت:٦٩]**، عَلَّقَ تَعَالَى الْهِدَايَةَ بِالجِهَادِ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ هِدَايَةً أَعْظَمُهُمْ جِهَاداً، وأَفْرَضُ الجِهَادِ جِهَادُ النَّفْسِ وجِهَادُ الْهَوَى وجِهَادُ الشَّيطَانِ وجِهَادُ الدُّنيَا، فَمَنْ جَاهَدَ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ فِي اللهِ هَدَاهُ اللهُ سُبُلَ رِضَاهُ الْمُوصِلةَ إِلى جَنَّتِهِ، ومَنْ تَرَكَ الجِهَادَ، فَاتَهُ الْهُدَى بِحَسَبِ مَا عَطَّلَ مِنَ الجِهَادِ، قَالَ الْجُنَيدُ رَحِمَهُ اللهُ : **والَّذِينَ جَاهَدُوا أَهْوَائَهُمْ فِيْنَا بالتَّوْبَةِ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَ الإِخْلاصِ**. ولا يَتَمَكَّنُ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّهِ فِي الظَّاهِرِ إلاَّ مَنْ جَاهَدَ هَذِهِ الأَعدَاءَ بَاطِناً، فَمَنْ نُصِرَ عَلَيهَا نُصِرَ عَلَى عَدُوِّهِ، ومَنْ نُصِرَتْ عَلَيهِ نُصِرَ عَلَيهِ عَدُوُّهُ [١] .

وقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : إِنَّ جِهَادَ الْهَوَى إِنْ لَمْ يَكُنْ أَعظَمَ مِنْ جِهَادِ الكُفَّارِ فَلَيْسَ بِدُونِهِ؛ قَالَ رَجُلٌ لِلحَسَنِ البِصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ! أَيُّ الجِهَادِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : **جِهَادُ هَوَاكَ**. وسَمِعْتُ شَيْخَنَا رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : **جِهَادُ النَّفْسِ والْهَوَى أَصْلُ جِهَادِ الكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى جِهَادِهِمْ حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ وهَوَاهُ أَوَّلاً، حَتَّى يَخْرُجَ الْهَوَى** [٢] .

قُلتُ : وجِهَادُ الدَّعوَةِ والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ بِمَعنَاهُ الشَّامِلِ، يَدخُلُ فِيهِ جَمِيعُ أَنوَاعِ الجِهَادِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا فِي الْمَبحَثِ السَّابِقِ : فَجِهَادُ النَّفسِ هُوَ أَمرٌ لَهَا بِالْمَعرُوفِ، ونَهيٌ لَهَا عَنِ الْمُنكَرِ؛ وجِهَادُ الشَّيطَانِ هُوَ أَمرٌ لِلنَّاسِ بِاجتِنَابِ مَكَائِدِهِ، ونَهيٌ عَنِ اتِّبَاعِ مُنكَرِهِ الَّذِي يَدعُو إِلَيهِ؛ وجِهَادُ الكُفَّارِ بِدَعوَتِهِم إِلى دِينِ الحَقِّ، وقِتَالُهُم إِن لَم يَقبَلُوا، هُوَ أَمرٌ لَهُم بِالْمَعرُوفِ الأَكبَرِ، وهُوَ الإِيمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ونَهيٌ لَهُم عَنِ الْمُنكَرِ الأَكبَرِ، وهُوَ الكُفرُ بِهِ؛ وَكَذَلِكَ جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ، والظَّلَمَةِ، والفَاسِقِينَ؛ وتَقَدَّمَ كَلَامُ ابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَرَاتِبِ جِهَادِ النَّفسِ، وقَولُهُ : ولَمَّا كَانَ جِهَادُ أَعدَاءِ اللهِ فَرْعاً عَلَى جِهَادِ الْعَبدِ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللهِ، كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّماً عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ، وَأَصْلاً لَهُ .

---

(١) «الفوائد» ص (٨٢-٨٣) .

(٢) «روضة الْمُحبِّين» ص (٤٧٨) .

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ :

بَيَانُ أَنَّ الجِهَادَ الكَبِيرَ - بِنَصِّ القُرآنِ الكَرِيمِ - هُوَ جِهَادُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ؛ وتَقَدُّمِ جِهَادِ الدَّعوَةِ عَلَى جِهَادِ القِتَالِ في الرُّتبَةِ والفَضِيلَةِ :

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ مِنْهُ مَا يَكُونُ بِالْقِتَالِ بِالْيَدِ، ومِنْهُ مَا يَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ وَالدَّعْوَةِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا** ﴿٥١﴾ **فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [الْفُرْقَانُ : ٥٢]؛ فَأَمَرَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ بِالْقُرْآنِ جِهَاداً كَبِيراً، وهَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، نَزَلَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ، ولَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْجِهَادُ بِالْعِلْمِ وَالْقَلْبِ، وَالْبَيَانِ وَالدَّعْوَةِ، لا بِالْقِتَالِ، .. وأَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مُقَدَّمَانِ فِي أَنْوَاعِ الْجِهَادِ غَيْرِ قِتَالِ الْبَدَنِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدِ ابْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : .. الْجِهَادُ يَنْقَسِمُ أَقْسَاماً ثَلاثَةً : **أَحَدُهَا** : الدُّعَاءُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِاللِّسَانِ؛ **وَالثَّانِي** : الْجِهَادُ عِنْدَ الْحَرْبِ بِالرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ؛ **وَالثَّالِثُ** : الْجِهَادُ بِالْيَدِ فِي الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ؛ فَوَجَدْنَا الْجِهَادَ بِاللِّسَانِ لا يَلْحَقُ فِيهِ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَلا عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَمَّا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَإِنَّ أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ أَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ، **فَهَذَا أَفْضَلُ عَمَلٍ**، .. وأَمَّا عُمَرُ فَإِنَّهُ مِنْ يَومِ أَسْلَمَ عَزَّ الإِسْلامُ، وعُبِدَ اللهُ عَلانِيَةً، وهَذَا أَعْظَمُ الْجِهَادِ، وقَدِ انْفَرَدَ هَذَانِ الرَّجُلانِ بِهَذَيْنِ الْجِهَادَيْنِ اللَّذَيْنِ لا نَظِيرَ لَهُمَا ..

وبَقِيَ الْقِسْمُ الثَّانِيْ، وهُوَ الرَّأْيُ وَالْمَشُورَةُ، فَوَجَدْنَاهُ خَالِصاً لأَبِيْ بَكْرٍ ثُمَّ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ وبَقِيَ الْقِسْمُ الثَّالِثُ، وهُوَ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ وَالْمُبَارَزَةُ، فَوَجَدْنَاهُ **أَقَلَّ مَرَاتِبِ الْجِهَادِ** بِبُرْهَانٍ ضَرُورِيٍّ، وهُوَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شَكَّ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ فِي أَنَّهُ الْمَخْصُوصُ بِكُلِّ فَضِيْلَةٍ، فَوَجَدْنَا جِهَادَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا كَانَ فِي أَكْثَرِ أَعْمَالِهِ وأَحْوَالِهِ بِالْقِسْمَيْنِ الأَوَّلَيْنِ مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّدْبِيرِ وَالإِرَادَةِ، وَكَانَ أَقَلَّ عَمَلِهِ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ وَالْمُبَارَزَةُ، لا عَنْ جُبْنٍ، بَلْ كَانَ

أَشْجَعَ أَهْلِ الأَرْضِ قَاطِبَةً نَفْساً وَيَدًا، وأَتَمَّهُمْ نَجْدَةً، ولَكِنَّهُ كَانَ يُؤْثِرُ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ الأَعْمَالِ، فَيُقَدِّمُهُ ويَشْتَغِلُ بِهِ (١) .

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَا رَيْبَ أَنَّ الأَمْرَ بِالْجِهَادِ الْمُطْلَقِ – أَيْ مَا يَعُمُّ الْجِهَادَ باليَدِ واللِّسَانِ وغَيْرِهِ – إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، فأَمَّا جِهَادُ الْحُجَّةِ فأُمِرَ به في مَكَّةَ بِقَولِهِ : ﴿ **فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٥٢]، أَيْ بِالقُرْآنِ؛ فَهَذِهِ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وَالجِهَادُ فِيهَا هُوَ التَّبْلِيْغُ وجِهَادُ الْحُجَّةِ، وأَمَّا الجِهَادُ الْمَأْمُورُ به في سُورَةِ الْحَجِّ، **فَيَدْخُلُ فِيهِ الجِهَادُ بِالسَّيْفِ** (٢) .

قُلتُ: قَوْلُهُ: «**فَيَدْخُلُ فِيْهِ الجِهَادُ بالسَّيف**» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُصطَلَحَ «الجِهَادِ» الخَاصِّ إِذَا أُطْلِقَ، أُرِيدَ بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي مَكَّةَ مِنَ التَّبْلِيْغِ لأَوَامِرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ودَعوَةِ الخَلقِ إِلَيهِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا أُمِرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِيْنَةِ مِنِ اسْتِعْمَالِ السَّيْفِ فِي خِدمَةِ هَذِهِ الدَّعوَةِ؛ إِذِ الْمَقْصَدُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ، وهُوَ إِقَامَةُ دِيْنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وإِعْلاءُ كَلِمَتِهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٣] .

فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَا جَاءَ فِي الآيَاتِ والأَحَادِيثِ، مِمَّا يُرَغِّبُ الشَّارِعُ فِيهِ بِـ«الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ» يَدْخُلُ فِيهِ الجِهَادُ الْمَكِّيُّ، وهُوَ جِهَادُ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ وإِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِاللِّسَانِ، كَمَا يَدْخُلُ الْجِهَادُ الْمَدَنِيُّ، وهُوَ جِهَادُ التَّبْلِيغِ وَالدَّعْوَةِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ .

وقَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : كَانَ جِهَادُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلَ مِنْ جِهَادِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ جِهَادَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، حِيْنَ كَانَ الإِسْلامُ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ، وأَمَّا جِهَادُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّمَا ظَهَرَ فِي الْمَدِيْنَةِ فِي الْغَزَوَاتِ، وَكَانَ الإِسْلامُ وَقْتَ ذَاكَ قَوِيّاً .

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٤/٤٣١-٤٣٣) .

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٦٣) .

وَالثَّانِي : أَنَّ جِهَادَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ كَانَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الدِّيْنِ، وَأَكْثَرُ أَفَاضِلِ الْعَشَرَةِ إِنَّمَا أَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْجِهَادِ هُوَ حِرْفَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمَّا جِهَادُ عَلِيٍّ ﷺ فَإِنَّمَا كَانَ بِالْقَتْلِ، ولا شَكَّ أَنَّ الأَوَّلَ أَفْضَلُ مِنْهُ [(١)] .

فَالدَّعوَةُ مَقصُودَةٌ لِذَاتِهَا، والقِتَالُ مَقصُودٌ لِلدَّعوَةِ، ومَا كَانَ مَقصُوداً لِذَاتِهِ فَهُوَ أَعْلَى رُتبَةً، وأَعظَمُ أجراً مِمَّا قُصِدَ لِغَيرِهِ[(٢)]؛ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : وأَمَّا مُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ بِاللِّسَانِ فَمَا زَالَ مَشْرُوعاً مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ إِلَى آخِرِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا شُرِعَ جِهَادُهُم بِالْيَدِ فَبِاللِّسَانِ أَوْلَى، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** "[(٣)]. ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ القِتَالَ إِنَّمَا شُرِعَ لِلضَّرُورَةِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ آمَنُوا بِالبُرْهَانِ والآيَاتِ لَمَا احْتِيْجِ إِلى الْقِتَالِ؛ فَبَيَانُ آيَاتِ الإِسْلامِ وبَرَاهِيْنِهِ وَاجِبٌ مُطْلَقاً وُجُوباً أَصْلِيّاً، وأَمَّا الْجِهَادُ فَمَشْرُوعٌ لِلضَّرُورَةِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَدَ بِإِظْهَارِهِ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ، ظُهُورَ عِلْمٍ وَبَيَانٍ، وظُهُورَ سَيْفٍ وسِنَانٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [الصف: ٩]. وقَدْ فَسَّرَ العُلَمَاءُ ظُهُورَهُ بِهَذَا وهَذَا، ولَفْظُ الظُّهُورِ يَتَنَاوَلُهُمَا، فَإِنَّ ظُهُورَ الْهُدَى بِالعِلْمِ والبَيَانِ، وظُهُورَ الدِّيْنِ بِاليَدِ والعَمَلِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ؛ ومَعْلُومٌ أَنَّ ظُهُورَ الإِسْلامِ بالعِلْمِ والبَيَانِ قَبْلَ ظُهُورِهِ باليَدِ والقِتَالِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُظْهِرُ الإِسْلامَ بِالعِلْمِ والبَيَانِ والآيَاتِ والبَرَاهِينِ، فَآمَنَتْ بِهِ الْمُهَاجِرُونَ والأَنْصَارُ طَوعاً وَاخْتِيَاراً بِغَيْرِ سَيْفٍ، لِمَا بَانَ لَهُمْ مِنَ الآيَاتِ والبَيِّنَاتِ والبَرَاهِيْنِ والْمُعْجِزَاتِ، ثُمَّ أَظْهَرَهُ بِالسَّيْفِ، فَإِذَا وَجَبَ عَلَيْنَا جِهَادُ الكُفَّارِ بالسَّيْفِ ابْتِدَاءً ودَفْعاً، فَلَئِنْ

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي (١٠/١١) .

(٢) قلت : المقصود من قتال الابتداء والطلب : هو إزالة العقبات من طريق الدَّعوة لنشر الإسلام؛ والمقصود من قتال الدفع : هو دفع أي اعتداء عن أرض المسلمين، لئلَّا تقع تحت احتلال عدوٍّ غاشم يستبيح بيضتها، ويمنعها من القيام بشعائر دينها؛ وعلى كلِّ حال، فالمقصود من كلا النَّوعين هو مصلحة الدعوة، فالأول : لجلب المصالح للدَّعوة، والثاني : لدرء المفاسد عنها . والله أعلم .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك (١٢٢٤٦) و(١٢٥٥٥) و(١٣٦٣٨) وأبو داوود (٢٥٠٦) والنسائي في سننه (٣٠٩٦) وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك (٢٤٢٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

يَجِبَ عَلَيْنَا بَيَانُ الإِسْلامِ وإِعْلامُهُ ابْتِدَاءاً ودَفْعاً لِمَنْ يَطْعَنُ فِيهِ بِطَرِيقِ الأَوْلَى وَالأَحْرَى، فَإِنَّ وُجُوبَ هَذَا قَبْلَ وُجُوبِ ذَاكَ، وَمَنْفَعَتَهُ قَبْلَ مَنْفَعَتِه (١) .

وقَالَ الخَطِيْبُ الشِّرْبِيْنِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وُجُوبُ الجِهَادِ – أَيِ القِتَالِ – وُجُوبُ الوَسَائِلِ لا الْمَقَاصِدِ، إِذِ الْمَقْصُودُ بالقِتَالِ إِنَّمَا هُوَ الْهِدَايَةُ ومَا سِوَاهَا مِنَ الشَّهَادَةِ، وأَمَّا قَتْلُ الكُفَّارِ فَلَيْسَ بِمَقْصُودٍ، حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ الْهِدَايَةُ بِإِقَامَةِ الدَّلِيْلِ بِغَيْرِ جِهَادٍ، كَانَ أَوْلَى مِنَ الْجِهَادِ (٢) .

وقَالَ الإِمَامُ الجَلِيلُ العِزُّ بنُ عَبدِ السَّلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ : يَخْتَلِفُ أَجْرُ وَسَائِلِ الطَّاعَاتِ بِاخْتِلَافِ فَضَائِلِ الْمَقَاصِدِ وَمَصَالِحِهَا؛ فَالْوَسِيلَةُ إِلَى الْمَقَاصِدِ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْوَسَائِلِ، فَالتَّوَسُّلُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَعْرِفَةِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ أَفْضَلُ مِنَ التَّوَسُّلِ إِلَى مَعْرِفَةِ أَحْكَامِهِ .. وَالتَّوَسُّلُ بِالسَّعْيِ إِلَى الْجِهَادِ أَفْضَلُ مِنَ التَّوَسُّلِ بِالسَّعْيِ إِلَى الْجُمُعَاتِ .. وَكُلَّمَا قَوِيَتْ الْوَسِيلَةُ فِي الْأَدَاءِ إِلَى الْمَصْلَحَةِ، كَانَ أَجْرُهَا أَعْظَمَ مِنْ أَجْرِ مَا نَقَصَ عَنْهَا؛ فَتَبْلِيغُ رِسَالَاتِ اللهِ مِنْ أَفْضَلِ الْوَسَائِلِ، لِأَدَائِهِ إِلَى جَلْبِ كُلِّ صَلَاحٍ دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَإِلَى دَرْءِ كُلِّ فَاسِدٍ زَجَرَتْ عَنْهُ الرُّسُلُ، وَالْإِنْذَارُ وَسِيلَةٌ إِلَى دَرْءِ مَفَاسِدِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَالتَّبْشِيرُ وَسِيلَةٌ إِلَى جَلْبِ مَصَالِحِ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ .. وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَسِيلَةٌ إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ الْمَعْرُوفِ الْمَأْمُورِ بِهِ، ورُتْبَتُهُ فِي الْفَضْلِ وَالثَّوَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى رُتْبَةِ مَصْلَحَةِ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ فِي بَابِ الْمَصَالِحِ، فَالْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ أَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ.

فَالْمَقْصُودُ مِنَ الجِهَادِ هُوَ مَا شُرِعَ الْجِهَادُ لِأَجْلِهِ، وَالْجِهَادُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ، وَأَسْبَابُ الْجِهَادِ كُلُّهَا وَسَائِلُ إِلَى الْجِهَادِ، الَّذِي هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى مَقَاصِدِهِ(٣)، فَالِاسْتِعْدَادُ لَهُ مِنْ بَابِ وَسَائِلِ الْوَسَائِلِ ..

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/١٤٧) .

(٢) «مغني المحتاج» (٤/٢٧٧) .

(٣) قلت : تقدَّم بيان مقاصد الجهاد في سبيل الله، وسيأتي المزيد، من أنَّه إعلاء كلمة الله ونشر دعوته، والذبِّ عنها؛ فنشر الدعوة مقصود لذاته، والجهاد على ذلك تبعٌ لهذا المقصود؛ لذلك كان الأول مشروعاً في كل وقت وحال، أما الثَّاني فيُشرعُ بحسب تحقيقه لمصلحة الدَّعوة؛ ولذلك أيضاً كان الأوَّلُ أعظمَ أجراً، وأعلى درجةً، ومقدماً في الرُّتبة والفضيلة .

والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَسِيلَةٌ إِلَى دَفْعِ مَفْسَدَةِ ذَلِكَ الْمُنْكَرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَرُتْبَتُهُ فِي الْفَضْلِ وَالثَّوَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى رُتْبَةِ دَرْءِ مَفْسَدَةِ الْفِعْلِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فِي بَابِ الْمَفَاسِدِ، ثُمَّ تَتَرَتَّبُ رُتَبُهُ عَلَى رُتَبِ الْمَفَاسِدِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى أَصْغَرِ الصَّغَائِرِ، فَالنَّهْيُ عَنِ الْكُفْرِ بِاللهِ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ نَهْيٍ فِي بَابِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ [١].

وقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : ومَنْ جَاءَ مِنَ الْمُشرِكِينَ يُرِيدُ الإِسلَامَ، فَحَقٌّ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يُؤَمِّنَهُ، حَتَّى يَتلُوَ عَلَيهِ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ويَدعُوَهُ إلى الإِسلامِ، بِالْمَعنَى الَّذِي يَرجُو أَنْ يُدخِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَلَيهِ الإِسلَامَ، لِقَولِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ **[التوبة: ٦]**[٢].

وقَالَ الفَخْرُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : نُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَأْتِيَ الرَّسُولَ بَعْدَ انْقِضَاءِ هَذَا الْأَجَلِ لِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّه أَوْ لِحَاجَةٍ أُخْرَى، فَهَلْ نُقْتَلُ ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ : **لَا؛ إِنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ** : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ** ﴾، أَيْ : فَأَمِّنْهُ، ﴿ **حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾ .. وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ : بَيَانُ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا جَاءَ طَالِبًا لِلْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ، أَوْ جَاءَ طَالِبًا لِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ إِمْهَالُهُ، وَيَحْرُمُ قَتْلُهُ، وَيَجِبُ إِيصَالُهُ إِلَى مَأْمَنِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ «**الْمَقْصُودَ مِنْ شَرْعِ الْقَتْلِ : قَبُولُ الدِّينِ، وَالْإِقْرَارُ بِالتَّوْحِيدِ**» [٣].

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : فَمَنْ كَانَ مُجَاهِداً فِي «سَبِيلِ اللهِ» بِاللِّسَانِ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَانِ الدِّينِ، وتَبْلِيغِ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ

---

(١) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١٢٣/١) وما بعدها .
(٢) «الأم» (٢٠٠/٤) .
(٣) «التفسير الكبير» (٥٢٩/١٥) .

والْخَبَرِ، وبيَانِ الأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ، وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ بِالْيَدِ كَقِتَالِ الْكُفَّارِ، فَإِذَا أُوْذِيَ عَلَى جِهَادِهِ بِيَدِ غَيْرِهِ أَوْ لِسَانِهِ، فَأَجْرُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى اللهِ [1] .

قُلتُ : يَتَبَيَّنُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ هُنَاكَ جِهَاداً في «سَبِيلِ اللهِ» بِاللِّسَانِ : بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَانِ الدِّينِ، وتَبْلِيغ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ والْخَبَرِ؛ فَمَنْ خَرَجَ لِأَجلِ هَذَا الجِهَادِ يُسَمَّى خَارِجاً ومُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَيَنَالُهُ مَا وَعَدَ اللهُ ﷻ مِنَ الأُجُورِ والدَّرَجَاتِ عَلَى الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ بِدُونِ أَدْنَىٰ شَكٍّ؛ وإِذَا رَبَطَ نَفسَهُ وحَبَسَهَا عَلَى هَذَا العَمَلِ مُحتَسِباً أَجرَهُ عَلَى اللهِ، كَانَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى ثَغْرٍ، هُوَ مِنْ أَعظَمِ الثُّغُورِ خَطَراً عَلَى الإِسلَامِ والْمُسلِمِينَ؛ وإِذَا أَصَابَهُ شَيءٌ مِنَ الأَذَى في طَرِيقِهِ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ في «سَبِيلِ اللهِ»، وإِذَا مَاتَ أَو قُتِلَ فِي ذَلِكَ السَّبِيلِ كَانَ مَوتُهُ أَو قَتلُهُ شَهَادَةً في «سَبِيلِ اللهِ»، ويَقَعُ أَجرُهُ عَلَى اللهِ .

ومَا جَاءَ مِنَ الآيَاتِ والأَحَادِيثِ والآثَارِ الَّتِي تُبَيِّنُ فَضلَ الجِهَادِ والْمُجَاهِدِ في «سَبِيلِ اللهِ»، فَإِنَّ جِهَادَ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ يَدخُلُ فِيهَا دُخُولاً أَوَّلِيّاً بِالقَصْدِ الأَوَّلِ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الأَئِمَّةِ: ابنِ تَيمِيَةَ وابنِ القَيِّمِ والرَّازِيِّ وغَيرِهِم، وسَيَأتِي الْمَزِيدُ مِنْ بَيَانِهِ؛ كَمَا أَنَّهُ يَدخُلُ فِيهَا جِهَادُ الكُفَّارِ بِالسَّيفِ؛ ولَا يَجُوزُ أَنْ يُخْرَجَ مِنهَا جِهَادُ الدَّعوَةِ، وهُوَ الْمَقصُودُ الأَسَاسِيُّ مِنْ جِهَادِ السَّيفِ، ومُقَدَّمٌ عَلَيهِ فِي الرُّتبَةِ والفِعْلِ والفَضِيلَةِ، وقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ الجِهَادُ الكَبِيرُ، ومَا كَانَ مَقصُوداً لِذَاتِهِ أَعْلَى رُتبَةً مِمَّا هُوَ مَقصُودٌ لِغَيرِهِ؛ فَإِخرَاجُ الجِهَادِ الكَبِيرِ مِنْ فَضَائِلِ الجِهَادِ العَامِّ الْمُطلَقِ، تَخصِيصٌ لِنُصُوصِ الشَّرعِ العَامَّةِ بِلَا مُخَصِّصٍ، وتَقيِيدٌ لِلنُّصُوصِ الْمُطلَقَةِ بِغَيرِ مُقَيِّدٍ؛ وقَدْ ثَبَتَ دُخُولُهُ بِنَصِّ القُرآنِ والسُّنَّةِ، وفَهمِ سَلَفِ الأُمَّةِ وخَلَفِهَا؛ كَمَا سَيَأتِي في فَتوَى الْمَجمَعِ الفِقْهِيِّ بِرَابِطَةِ العَالَمِ الإِسلَامِيِّ .



---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/٢٠١) .

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ:

بَيَانُ أَنَّ جِهَادَ الْمُنَافِقِينَ هُوَ جِهَادٌ بالدَّعوَةِ والحُجَّةِ:

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفسِيرِ قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٣]: **فَأَمَرَهُ بِجِهَادِ الْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ**. ورُوِيَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ والرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ مِثْلُهُ [(١)].

وقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَصْعَبُ مِنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ جِهَادُ خَوَاصِّ الأُمَّةِ وَوَرَثَةِ الرُّسُلِ، وَالْقَائِمُونَ بِهِ أَفْرَادٌ فِي الْعَالَمِ، وَالْمُشَارِكُونَ فِيهِ وَالْمُعَاوِنُونَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانُوا هُمُ الأَقَلِّينَ عَدَدًا فَهُمُ الأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللهِ قَدْرًا [(٢)].

وقَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الآيَةِ: والصَّحِيحُ أَنَّ الْجِهَادَ عِبَارَةٌ عَنْ بَذْلِ الْجُهْدِ، وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْجِهَادَ بِالسَّيْفِ أَوْ بِاللِّسَانِ أَوْ بِطَرِيقٍ آخَرَ؛ فَنَقُولُ: إِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْجِهَادِ مَعَ الْفَرِيقَيْنِ، فأَمَّا كَيفِيَّةُ تِلْكَ الْمُجَاهَدَةِ، فَلَفْظُ الْآيَةِ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا، بَلْ إِنَّمَا يُعْرَفُ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ؛ وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: دَلَّتِ الدَّلَائِلُ الْمُنْفَصِلَةُ عَلَى أَنَّ الْمُجَاهَدَةَ مَعَ الْكُفَّارِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِالسَّيْفِ، وَمَعَ الْمُنَافِقِينَ بِإِظْهَارِ الْحُجَّةِ تَارَةً، وَبِتَرْكِ الرِّفْقِ ثَانِيًا، وَبِالِانْتِهَارِ ثَالِثًا. قَالَ عَبْدُ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾. قَالَ تَارَةً بِالْيَدِ، وَتَارَةً بِاللِّسَانِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُكَشِّرْ فِي وَجْهِهِ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِالْقَلْبِ[(٣)].

وقَالَ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَن جِهَادِ الْمُنَافِقِينَ: وَالْمُعَاوِنُ عَلَى كَفِّ شَرِّهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَإِنَّ **الْمَقْصُودَ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ هُوَ هِدَايَتُهُمْ**، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٠٦١٦) و(١٠٦١٧).

(٢) «زاد المعاد» (٣/٣).

(٣) «التفسير الكبير» (١٠٣/١٦).

عمران: ١١٠]، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ : **كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَأْتُونَ بِهِمْ مِنْ الْقُيُودِ وَالسَّلَاسِلِ حَتَّى تُدْخِلُوهُمْ الْإِسْلَامَ**. فَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ : هِدَايَةُ الْعِبَادِ لِمَصَالِحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ؛ فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ كَفَّ اللَّهُ ضَرَرَهُ عَنْ غَيْرِهِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجِهَادَ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ هُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ .. (١) .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً فِيمَنْ تَكَلَّمَ فِي أَهْلِ الْبِدَعِ والضَّلَالِ، وَرَدَّ أَقوالَهُم : إِنَّ نَفْعَ هَذَا عَامٌّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ إِذْ تَطْهِيرُ سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَمِنْهَاجِهِ وَشِرْعَتِهِ وَدَفْعِ بَغْيِ هَؤُلَاءِ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْلَا مَنْ يُقِيمُهُ اللَّهُ لِدَفْعِ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ، لَفَسَدَ الدِّينُ، وَكَانَ فَسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ فَسَادِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا اسْتَوْلَوْا لَمْ يُفْسِدُوا الْقُلُوبَ وَمَا فِيهَا مِنْ الدِّينِ إِلَّا تَبَعًا، وَأَمَّا أُولَئِكَ فَهُمْ يُفْسِدُونَ الْقُلُوبَ ابْتِدَاءً .. ثُمَّ الْقَائِلُ فِي ذَلِكَ بِعِلْمٍ، إِنْ تَكَلَّمَ لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَانَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، خُلَفَاءِ الرُّسُلِ (٢) .

وقَالَ العَلَّامَةُ الشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْأَمْرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا الْجِهَادِ أَمْرٌ لِأُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ يَكُونُ بِمُقَاتَلَتِهِمْ حَتَّى يُسْلِمُوا، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ يَكُونُ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَخْرُجُوا عَنْهُ، وَيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ (٣) .

وقَالَ العَلَّامَةُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جِهَادِ الْمُنَافِقِينَ بِالقَولِ والْحُجَّةِ : ولَكِنَّ جِهَادَهُمْ بِالْقُرْآنِ لا يَقِلُّ شِدَّةً عَلَيهِم مِنَ السَّيْفِ، لِأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا فِي خَوفٍ وذُعْرٍ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ

---

(١) «الفتاوى الكبرى» (٣/٥١٢) .
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٣١ – ٢٣٥) .
(٣) «فتح القدير» (٢/٤٣٦) .

عَلَيْهِم، وأَصْبَحَتْ قُلُوبُهُم خَاوِيَةً كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ، وهَذَا أَشَدُّ عَلَيْهِم مِنَ الْمُلاقَاةِ بِالسَّيْفِ[1].

وقَالَ العَلَّامَةُ مُحَمَّد رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ : الجِهَادُ : مُشَارَكَةٌ مِنَ الجُهْدِ، وَهُوَ الطَّاقَةُ وَالْمَشَقَّةُ، كَالْقِتَالِ مِنَ الْقَتْلِ، وَهو حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ، وَقَوْلِيٌّ وَفِعْلِيٌّ، وَاتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُعَامَلُونَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ كَالْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ، فَلَا يُقَاتَلُونَ إِلَّا إِذَا أَظْهَرُوا الْكُفْرَ الْبَوَاحَ بِالرِّدَّةِ، أَوَ بَغَوْا عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقُوَّةِ، أَوِ امْتَنَعَ بَعْضُ طَوَائِفِهِمْ مِنْ إِقَامَةِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَأَرْكَانِهِ، وَرُوِيَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْمَأْثُورُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : جِهَادُ الْكَفَّارِ بِالسَّيْفِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ، فَفَسَّرَ الْكَفَّارَ هُنَا بِالْحَرْبِيِّينَ، وَسَيَأْتِي مِنْ جِهَادِ الْمُنَافِقِينَ حِرْمَانُهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ وَالْقِتَالِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ صَلَاتِهِ عَلَى جَنَائِزِهِمْ [2].

وقَالَ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَسَّرَ ابنُ عَبَّاسٍ والسُّدِّيُّ ومُجَاهِدٌ جِهَادَ الأَوَّلِينَ بِالسَّيفِ، والآخَرِينَ بِاللِّسَانِ، وذَلِكَ بِنَحوِ الوَعظِ وإِلْزَامِ الحُجَّةِ، بَنَاءً عَلَى أَنَّ الجِهَادَ : بَذْلُ الجُهدِ فِي دَفعِ مَا لَا يُرضَى؛ وهُوَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِالقِتَالِ أَوْ بِغَيرِهِ [3].

وقَالَ ابنُ حِبَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ : [**بَابُ فَرْضِ الْجِهَادِ**]

[ذِكْرُ مَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ مُجَاهَدَةِ الشَّيَاطِينِ عِندَ تَزْيِينِهِمْ لَهُ الْمَعَاصِي، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مُجَاهَدَةُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الكفرة]

عَن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :" **الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي الله** " [4].

---

(١) «أضواء البيان للشنقيطي» (٨/٢٤٤) .

(٢) «تفسير المنار» (١٠/٤٧٣ – ٤٧٥) .

(٣) «روح المعاني» (٥/٣٢٧) .

(٤) «الجهاد لابن المبارك» (١٧٤) و(١٧٥) والطبراني في الكبير وأحمد والترمذي والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي .

[ذِكْرُ الإِبَاحَةِ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُهَاجِيَ الْمُشْرِكِينَ إِذْ هُوَ أَحَدُ الْجِهَادَيْنِ]

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَرَى فِي الشِّعْرِ قَالَ : " **إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّمَا تَنضَحُونَهُم بِالنَّبْلِ** " [1] .

وقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ : وغَزوُ الْمُسلِمِينَ لَيسَ بِالسِّلَاحِ فَقَط، وإِنَّمَا هُوَ بِالسِّلَاحِ والفِكرِ والخُلُقِ؛ والغَزوُ بِالفِكرِ لَا يُقَاوَمُ إِلَّا بِالعِلمِ؛ والأَخلَاقُ أَيضاً لَا تُقَاوَمُ إِلَّا بِالعِلمِ والِاستِقَامَةِ؛ ورُبَّمَا يَكُونُ غَزوُ الأَعدَاءِ مِن سِنِينَ غَزواً فِكرياً، أَعظَمَ فَتكاً مِنَ السِّلَاحِ الْمَادِّيِّ، لِأَنَّ النَّوعَ الأَوَّلَ مِنَ الغَزوِ غَزوٌ يَدخُلُ بِدُونِ استِئذَانٍ، ويَحتَلُّ بِدُونِ قِتَالٍ؛ فَهُوَ أَنكَى وأَعظَمُ مِنَ الجِهَادِ الْمُسَلَّحِ بِالسِّلَاحِ الْمَادِّيِّ، والْمُسلِمِينَ يَجِبُ عَلَيهِم هَذَا وهَذَا؛ ولِهَذَا قَالَ اللهُ تعالى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ**﴾؛ ومَعلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُجَاهِدِ الْمُنَافِقِينَ بِالسِّلَاحِ الْمَادِّيِّ، ولَمْ يُؤمَرْ بِهِ، وإِنَّمَا يُجَاهِدُ الْمُنَافِقِينَ بِالسِّلَاحِ العِلمِيِّ، والبَيَانِ والإِرشَادِ [2] .



---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٧٠٧) واللفظ له، والطبراني في الكبير (١٥٢) وأحمد في مسنده (١٥٧٨٦) وقال الهيثمي في «المجمع» : رواه أحمد بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

(٢) «فتاوى نور على الدرب» (٨/٣٩٠) .

الْمَبحَثُ السَّادِسُ :

بَيَانُ أَنَّ مَا يُوَاجِهُهُ الدَّاعِيَةُ مِنَ الصَّدِّ والأَذَى أَشَدُّ عَلَى النَّفسِ مِنْ مُقَارَعَةِ العَدُوِّ بِالسَّيفِ :

رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِيْنَ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ :" **لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ**". فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً** "[(١)] .

هَذَا الْحَدِيْثُ يُبَيِّنُ أَنَّ مَا يُوَاجِهُهُ الدَّاعِيَةُ مِنَ الصَّدِّ والإِعْرَاضِ عَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ يكُونُ أَشَدَّ عَلَى النَّفْسِ مِمَّا يُوَاجِهُهُ الْمُقَاتِلُ، فَإِنَّ الْمُقَاتِلَ يَسْتَطِيعُ أَنَّ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ ويَشْفِيَ صَدْرَهُ ويُذْهِبَ غَيْظَهُ مِنْ عَدُوِّهِ، أَمَّا الدَّاعِي فَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْمَدْعُوِّ والتَّلَطُّفُ لَهُ بِالقَولِ، ويَكْظُمُ غَيْظَ نَفْسِهِ، ويَتَجَرَّعُ مَرَارَتَهُ، ويَعْتَذِرُ لَهُ عِنْدَ اللهِ ﷻ، كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ وحَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﵁ حَيْثُ قَالَ :" **كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ** "[(٢)] .

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٢٣١) ومسلم برقم (٤٧٥٤) .

(٢) رواه البخاري عن ابن مسعود برقم (٣٤٧٧) و(٦٩٢٩) ومسلم برقم (٤٧٤٧) .

الفَصْلُ الثَّانِي

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ:

بَيَانُ فَهمِ الصَّحَابَةِ ﷺ لِلغَايَةِ مِنَ الخُرُوجِ والجِهَادِ والقِتَالِ في سَبِيلِ اللهِ، وأَنَّ الغَايَةَ مِنْ خُرُوجِهم هِيَ عَيْنُ الغَايَةِ مِنْ خُرُوجِ الْمُبَلِّغِينَ في زَمَانِنَا:

إِنَّ فَهمَ الصَّحَابَةِ ﷺ لِحَقِيقَةِ الخُرُوجِ لِلجِهَادِ والْمَقصُودِ مِنهُ، هُوَ الفَهمُ الْمُقَدَّمُ عَلَى غَيرِهِ؛ كَيفَ لَا وقَد عَرَفُوا أَسبَابَ النُّزُولِ، ومَا أَحَاطَ بِالآيَاتِ مِنْ ظُرُوفٍ ومُلَابَسَاتٍ، تُعِينُ عَلَى فَهمِهَا، بِالإِضَافَةِ إلى مَعرِفَتِهِم طَرَائِقَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وأَسرَارِهَا في التَّعبِيرِ؛ فَإِذَا اختَلَفَ أَهلُ القِبلَةِ وتَنَازَعُوا الحَقَّ، فَإِنَّ أَجدَرَ الفِرَقِ بِالصَّوَابِ وأَولَاهَا بِالحَقِّ، وأَقرَبَهَا إلى التَّوفِيقِ مَنْ كَانَ في جَانِبِ أَصحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وإِذَا كَانَتِ النُّصُوصُ تَحتَمِلُ أَوْجُهاً في الفَهْمِ مُختَلِفَةً؛ فَإِنَّ بَيَانَ أَصحَابِ نَبِيِّنَا ﷺ لَهُ حُجَّةٌ وأَمَارَةٌ عَلَى الفَهمِ الصَّحِيحِ؛ فَقَد كَانُوا بِحَقٍّ أَفْقَهَ الْأُمَّةِ، وَأَبَرَّهم قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهُمْ عِلْمًا، وَأَقَلَّهُمْ تَكَلُّفًا، وَأَصَحَّهُمْ قُصُودًا، وَأَكْمَلَهُمْ فِطْرَةً، وَأَتَمَّهُمْ إِدْرَاكًا، وَأَصْفَاهُمْ أَذْهَانًا؛ شَاهَدُوا التَّنْزِيلَ، وَعَرَفُوا التَّأْوِيلَ، وَفَهِمُوا مَقَاصِدَ الرَّسُولِ؛ فَنِسْبَةُ آرَائِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَقُصُودُهُمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ كَنِسْبَتِهِمْ إِلَى صُحْبَتِهِ؛ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْفَرْقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ فِي الْفَضْلِ؛ فَنِسْبَةُ رَأْيِ مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى رَأْيِهِمْ كَنِسْبَةِ قَدْرِهِمْ إِلَى قَدْرِهِمْ.

وفِي مَنزِلَةِ عِلمِهِم واجتِهَادِهِم وفَتَاوَاهُم، قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِسَالَتِهِ الْبَغْدَادِيَّةِ الَّتِي رَوَاهَا عَنْهُ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ، وَهَذَا لَفْظُهُ: وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَسَبَقَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْفَضْلِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ، فَرَحِمَهُمْ اللَّهُ، وَهَنَّأَهُمْ بِمَا آتَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ، بِبُلُوغِ أَعْلَى مَنَازِلِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، أَدَّوْا إِلَيْنَا سُنَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَشَاهَدُوهُ وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ، فَعَلِمُوا مَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامًّا وَخَاصًّا، وَعَزْمًا وَإِرْشَادًا، وَعَرَفُوا مِنْ سُنَّتِهِ مَا عَرَفْنَا وَجَهِلْنَا، وَهُمْ فَوْقَنَا فِي كُلِّ عِلْمٍ وَاجْتِهَادٍ، وَوَرَعٍ وَعَقْلٍ، وَأَمْرٍ اسْتُدْرِكَ بِهِ عِلْمٌ وَاسْتُنْبِطَ بِهِ، وَآرَاؤُهُمْ لَنَا

أَحْمَدُ، وَأَوْلَى بِنَا مِنْ رَأْيِنَا عِنْدَ أَنْفُسِنَا، وَمَنْ أَدْرَكْنَا مِمَّنْ يَرْضَى أَوْ حُكِيَ لَنَا عَنْهُ بِبَلَدِنَا صَارُوا فِيمَا لَمْ يَعْلَمُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ سُنَّةً إلَى قَوْلِهِمْ إنِ اجْتَمَعُوا، أَوْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ إنْ تَفَرَّقُوا، وَهَكَذَا نَقُولُ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَنْ أَقَاوِيلِهِمْ، وَإِنْ قَالَ أَحَدُهُمْ وَلَمْ يُخَالِفْهُ غَيْرُهُ أَخَذْنَا بِقَوْلِهِ [(١)] .

ومِمَّا يُبَيِّنُ فَهمَ الصَّحَابَةِ ﷺ لِحَقِيقَةِ الخُرُوجِ لِلجِهَادِ في «سَبِيلِ اللهِ» والْمَقصُودِ مِنهُ، مَا رَوَاهُ الشَّيخَانِ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ :" **لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ** ". قَالَ : فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ :" **أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** ؟" فَقِيلَ : هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ : فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ :" **انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** " [(٢)] .

فَقَولُ عَلِيٍّ ﷺ : «**أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟**» فِيهِ أَنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ كَانُوا يَفْهَمُونَ أَنَّ الْمَقْصُودَ الأَعْلَى لِلْقِتَالِ هُوَ هِدَايَةُ النَّاسِ إلى مَا كَانَ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ ﷺ مِنَ الإِيْمَانِ باللهِ ﷻ والْعَمَلِ بِشَرَائِعِ الإِسْلامِ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿**فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ**﴾ [البقرة: ١٣٧]، وأَنَّ الْقِتَالَ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ، بَلِ الْمَقْصُودُ هُوَ الْهِدَايَةُ إِلى الدِّينِ الْحَقِّ[(٣)]، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿**وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٩٣]، قَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَكَأَنَّهُ ﷺ اسْتَحْسَنَ قَولَهُ : (**أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟**)

---

(١) «إعلام الموقعين لابن القيم» (٦٣/١) .

(٢) رواه البخاري برقم (٢٩٤٢) و(٣٧٠١) و(٤٢١٠) ورواه مسلم برقم (٦٣٧٦) .

(٣) قلت : تقدَّم قول الإمام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ : فَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، هِدَايَةُ الْعِبَادِ لِمَصَالِحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ .

وَاسْتَحْمَدَهُ عَلَى مَا قَصَدَهُ مِنْ مُقَاتَلَتِهِ إِيَّاهُم حَتَّى يَكُونُوا أَمْثَالَنَا مُهْتَدِينَ لإِعْلاءِ دِينِ اللهِ، وَمِنْ ثَمَّ حَثَّهُ الرَّسُولُ ﷺ بِقَولِهِ :" **فَوَ اللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** " (١) .

فَالْمُبَلِّغُونَ حِينَمَا يَخْرُجُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُم يَدعُونَ النَّاسَ لِلخُرُوجِ مَعَهُم لِتَعَلُّمِ مَا كَانَ عَلَيهِ الصَّحَابَةُ ﷺ مِنَ الصِّفَاتِ الإِيمَانِيَّةِ الْمَحبُوبَةِ عِندَ اللهِ ﷻ، والقِيَامِ لِلدِّينِ، كَمَا قَامَ الصَّحَابَةُ ﷺ لِلدِّينِ، تَعَلُّماً وتَعليماً، وعَمَلاً وجُهداً، ودَعوَةً وتَبلِيغاً . فَهُمْ يَقُولُونَ لِلنَّاسِ: تَعَالَوا نَخْرُجْ فِي سَبِيلِ اللهِ، لِنَكُونَ كَالصَّحَابَةِ، فِي الإِيمَانِ والأَعمَالِ، والصِّفَاتِ والأَخلَاقِ، ونَقُومَ لِلدِّينِ كَمَا قَامُوا، فَنَفُوزَ ونُفلِحَ كَمَا فَازُوا وأَفلَحُوا .

وفِي قَولِهِ ﷺ : «**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ**» بَيَانُ أَنَّهُ لا يَجُوزُ ابْتِدَاءُ الْكُفَّارِ بِالْقِتَالِ إِلاَّ بَعْدَ دَعْوَتِهِم إِلَى الإِسْلامِ، كَمَا قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ ﷺ : **مَا قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْماً حَتَّى دَعَاهُمْ**(٢). وكَانَ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيْراً عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ عَلَى جَيْشٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِدَعْوَةِ الْعَدُوِّ قَبْلَ قِتَالِهِمْ (٣)؛ وأَرْسَلَ ﷺ عَلِيّاً ﷺ إِلى قَوْمٍ وَأَمَرَهُ أَنْ لا يُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَدْعُوَهُمْ (٤)؛ وَكَذَلِكَ قَالَ لِفَرْوَةَ الْغُطَيْفِيِّ حِيْنَمَا بَعَثَهُ إِلى قَوْمِهِ(٥)؛ وجَاءَ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا بَعَثَ بَعْثاً قَالَ :" **تَأَلَّفُوا النَّاسَ وَلا تُغِيرُوْا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَدْعُوهُمْ، فَمَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلاَّ أَنْ تَأْتُونِي بِهِمْ**

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١١/٢٤٤) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٠٥٣) والحاكم في المستدرك (٣٣) وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي. ورواه الطبراني في الكبير (١١٢٧٠) وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح .

(٣) رواه مسلم عن بريدة برقم (٤٦١٩) وأبو داود برقم (٢٦١٢) واللفظ له .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك برقم (٨٢٦٥) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عثمان بن يحيى القرقساني وهو ثقة .

(٥) رواه أحمد في مسنده عن فروة الغطيفي (٢٤٣٠٦) والترمذي وحَسَّنَهُ (٣٢٢٢) وحَسَّنَهُ ابن كثير في التفسير (٣/٥٣٥) .

مُسْلِمِيْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ وَتَقْتُلُوْا رِجَالَهُمْ "[١]؛ وحِيْنَمَا قَالُوْا لَهُ : ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ، قَالَ ﷺ :" **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**"[٢]؛ ولَمَّا حَاصَرَ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ جَاءَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا : يَا رَسُولُ اللهِ ! أَحْرَقَتْنَا نِبَالُ ثَقِيفٍ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ . فَقَالَ ﷺ :" **اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا** " [٣] .

ورُوِيَ عَنهُ ﷺ أَنَّهُ أُتِيَ بِأُسَارَى مِنَ اللاَّتِ والْعُزَّى، فَقَالَ :" **هَلْ دَعَوْتُمُوهُمْ إِلى الإِسْلامِ؟**"، فَقَالُوا : لا، فَقَالَ لَهُم :" **هَلْ دَعَوْكُمْ إِلى الإِسْلامِ ؟**"، فَقَالُوا : لا، قَالَ : "**خَلُّوا سَبِيْلَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا مَأْمَنَهُمْ** "؛ ثُمَّ قَرَأَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ : ﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، ﴿**وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ**﴾ [الأنعام: ١٩] [٤]، وفي رِوَايَةٍ قَالَ :" **رُدُّوهُمْ إِلى مَأْمَنِهِمْ ثُمَّ ادْعُوهُمْ** "[٥]؛ ولَمَّا قَتَلَ أُسَامَةُ بْنُ زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا رَجُلاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَمَا قَتَلَ عِدَّةً مِنَ الصَّحَابَةِ ثُمَّ قَالَ : لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ . أَغْلَظَ ﷺ لَهُ القَوْلَ، ومَا زَالَ يُكَرِّرُ قَوْلَهُ : "**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ ؟!**" وقَالَ :" **فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيامَةِ ؟**"[٦]، ولَمَّا قَالَ ﷺ لأَهْلِ مَكَّةَ :" **اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ** ". خَرَجُوا فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلامِ . أَمَّا إِذَا بَلَغَتْهُمُ الدَّعْوَةُ فَيُسْتَحَبُّ تَجْدِيدُ دَعْوَتِهِم، ولَا يَجِبُ .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن عبد الرحمن بن عائذ (٧٠٥٧) و(٧٠٥٨) وأبو نعيم في «المعرفة» (٤٦٨٢) وقال الحافظ في «الإصابة» : أخرجه ابن شاهين والبغوي .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة رقم (٢٥٩٩) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله (١٤٧٠٢) والترمذي في سننه (٣٩٤٢) وقال: حديث حسن صحيح غريب .

(٤) رواه البيهقي في السنن عن أبي بن كعب برقم (١٨٠١٢) في باب دعاء من لم تبلغه الدعوة من المشركين وجوباً، ودعاء من بَلَغَتْهُ نظراً، وقال: روح بن مسافر ضعيف .

(٥) رواه الحارث في مسنده من طريق الواقدي كما في «كنز العمال» (١١٤٢٦) .

(٦) رواه مسلم بعدة روايات عن أسامة بن زيد برقم (١٥٨-١٦٠) .

وقولُهُ ﷺ : «فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا». تَأْكِيدٌ لِمَا أَرْشَدَهُ مِنْ دُعَائِهِم إلى الإِسْلامِ أَوَّلاً، فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَباً لإِيْمَانِهِمْ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ إلى قِتَالِهِمُ الْمُتَفَرِّعِ عَلَيْهِ حُصُولُ الْغَنَائِمِ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ وغَيرِهَا، «فَإِنَّ إِيْجَادَ مُؤْمِنٍ وَاحِدٍ خَيْرٌ مِنْ إِعْدَامِ أَلْفِ كَافِرٍ» [(١)] .

فَالْمَصَالِحُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَى هِدَايَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ لا يَقْدُرُ قَدْرَهَا إِلاَّ اللهُ ﷻ، ولا يَعْدِلُ فَضْلَهَا أَيُّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدِّينِ الأُخْرَى؛ فإنه بِهِدَايَتِهِ إلى الإِسْلامِ يُنْقِذُهُ اللهُ ﷯ مِنْ غَضَبِهِ وعَذَابِهِ، ويَصِيرُ هُوَ ومَالُهُ فِي خِدْمَةِ الإِسْلامِ، كَمَا حَصَلَ مَعَ الصَّحَابَةِ ﵃ حِينَمَا أَسْلَمُوا فَوَظَّفُوا جَمِيْعَ طَاقَاتِهِمُ الْبَدَنِيَّةِ والْمَالِيَّةِ والفِكْرِيَّةِ لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ ونَشْرِ دِينِهِ؛ فَالَّذِينَ قَاتَلُوهُ فِي بِدَايَةِ الدَّعوةِ هُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا مَعَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهَا هُوَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ ﵁ يَقُودُ الْفُتُوحَاتِ الإِسْلامِيَّةَ فِي بِلادِ الشَّامِ حَتَّى فَتَحَهَا اللهُ ﷯ عَلَى يَدَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلى نَفْسِهِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷯ لإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ؛ وهَا هُوَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ﵁ حِينَمَا أَسْلَمَ قَالَ : **وَاللهِ لا أَدَعُ نَفَقَةً كُنْتُ أُنْفِقُهَا فِي صَدٍّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ أَنْفَقْتُ ضِعْفَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلا قِتَالاً كُنْتُ أُقَاتِلُ فِي صَدٍّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ أَبْلَيْتُ ضِعْفَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛** ثُمَّ اجْتَهَدَ حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً [(٢)] .

وَلَمَّا أَسْلَمَ ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ ﵁ رَجَعَ إلى قَوْمِهِ دَاعِياً، فَأَمْسَى ومَا فِي حَاضِرِهِ رَجُلٌ ولا امْرَأَةٌ إِلاَّ مُسْلِماً [(٣)]، ولَمَّا أَسْلَمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ ﵁ رَجَعَ إلى قَوْمِهِ ودَعَاهُمْ إلى اللهِ، فَجَاءَ بِسَبْعِينَ بَيْتاً مِنْ بُيُوتِ دَوْسٍ مُسْلِمِيْنَ [(٤)] .

وَكَذَلِكَ لَمَّا أَسْلَمَ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ ﵁ رَجَعَ إلى قَوْمِهِ فَدَعَاهُم إلى اللهِ فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ، وقَالَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي : إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ، فَأَسْلَمَ

---

(١) «مرقاة المفاتيح» (١١/٢٤٤) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك عن عروة بن الزبير (٥٠٥٧) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٩٥٢٣) وابن عساكر عن عبد اللهِ بن الزبير (٨٢١٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨٠) ورواه البخاري مختصرا (٦٣).

(٤) «البداية النهاية لابن كثير» (٣/١٢٤) وروى الشيخان قصته مختصرة.

نِصْفُهُمُ الْبَاقِي، ثُمَّ أَسْلَمَتْ قَبِيلَةُ أَسْلَمَ بِإِسْلامِهِمْ، فَقَالَ ﷺ :" **غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ** " (١) .

وَكَذَا لَمَّا أَسْلَمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ بِدَعوةِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ﷺ رَجَعَ إِلى قَوْمِهِ فَدَعَاهُمْ إِلى اللهِ، فمَا أَمْسَى فِي دَارِ عَبدِ الأَشْهَلِ رَجُلٌ ولا امْرَأَةٌ إِلاَّ مُسْلِماً أَوْ مُسْلِمَةً (٢) .

ولَمَّا أَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ سُعْنَةَ الْحَبْرُ الْيَهُودِيُّ تَصَدَّقَ بِشَطْرِ مَالِهِ عَلَى أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَالاً، وبَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ، وشَهِدَ مَعَهُ مَشَاهِدَ كَثِيرَةً، ثُمَّ تُوُفِّيَ فِي غَزْوَةِ تَبُوك مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ (٣).

ولأَنَّ الدَّعْوَةَ إلى اللهِ وهِدَايَةَ النَّاسِ إِلَيهِ عَمَلُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَمَنْ قَامَ بِهَذَا الْعَمَلِ فَقَدْ نَابَ عَنْهُم فِي هِدَايَةِ الْخَلْقِ إلى الْخَالِقِ، فَيَكُونُ قَدْ تَحَصَّلَ عَلَى ثَوَابِهِمْ، ولا شَكَّ أَنَّ الْقَلِيلَ مِنْ عَمَلِ الْمُرْسَلِينَ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا لَوْ أُنْفِقَتْ فِي طَاعَةِ اللهِ ﷻ .



---

(١) رواه البخاري (١٠٠٦) ومسلم (٦٧٩) .

(٢) «البداية النهاية» (١٨٧/٣) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن عبد اللهِ بن سلام (٥١٤٧)، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات. وقال الحافظ في الإصابة : رجال الإسناد موثقون .

الْمَبْحَثُ الثَّانِي :

بَيَانُ أَنَّ سَبِيلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّتِي بُعِثَ بِهَا هِيَ «الدَّعوةُ إلى اللهِ»، وهِيَ أَيضاً سَبِيلُ أَتبَاعِهِ :

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ** ﴾[يوسف: ١٠٨]، وسَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إِلى اللهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ، أَوْ كَانَ الْوَقْفُ عِنْدَ قَولِهِ ﴿ **أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ** ﴾ ثُمَّ يَبْتَدِئُ ﴿ **عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى** ﴾، فَالْقَولانِ مُتَلازِمَانِ، فَإِنَّهُ أَمَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ أَنَّ **سَبِيْلَهُ الدَّعْوَةُ إِلى اللهِ**، فَمَنْ دَعَا إِلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهُوَ عَلَى سَبِيْلِ رَسُولِهِ ﷺ وهُوَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، وَهُوَ مِنْ أَتْبَاعِهِ، ومَنْ دَعَا إِلى غَيْرِ ذَلِكَ فَلَيْسَ عَلَى سَبِيْلِهِ، ولا هُوَ عَلَى بَصِيْرَةٍ، ولا هُوَ مِنْ أَتْبَاعِهِ، فَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هِيَ وَظِيْفَةُ الْمُرْسَلِيْنَ وَأَتْبَاعِهِمْ، وهُمْ خُلَفَاءُ الرُّسُلِ فِي أُمَمِهِمْ، وَالنَّاسُ تَبَعٌ لَهُمْ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُبَلِّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ، وضَمِنَ حِفْظَهُ وعِصْمَتَهُ مِنَ النَّاسِ، وهَكَذَا الْمُبَلِّغُونَ عَنْهُ مِنْ أُمَّتِهِ، لَهُمْ مِنْ حِفْظِ اللهِ وعِصْمَتِهِ إِيَّاهُمْ بِحَسَبِ قِيَامِهِمْ بِدِيْنِهِ وتَبْلِيْغِهِمْ لَهُ، وقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّبْلِيْغِ عَنْهُ وَلَوْ آيَةً، ودَعَا لِمَنْ بَلَّغَ عَنْهُ ولَوْ حَدِيثاً [(١)]، **وتَبْلِيغُ سُنَّتِهِ إِلى الأُمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ تَبْلِيْغِ السِّهَامِ إِلى نُحُورِ الْعَدُوِّ**، لأَنَّ ذَلِكَ التَّبْلِيغَ – أَيْ تَبْلِيغَ السِّهَامِ إِلى نُحُورِ الْعَدُوِّ – يَفْعَلُهُ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ، وأَمَّا تَبْلِيغُ السُّنَنِ فَلا تَقُومُ بِهِ إِلاَّ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وخُلَفَاؤُهُمْ فِي أُمَمِهِم، جَعَلَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ [(٢)] .

وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى** ﴾ [يوسف: ١٠٨]، قَالَ الْفَرَّاءُ وجَمَاعَةٌ : ﴿ **وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى** ﴾

---

(١) رواه الترمذي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول اللهِ ﷺ يقول :" **نَضَّرَ اللهُ امْرَءاً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ** ". قال الترمذي : هذا حديث حسن . اه وقد روي بِعِدَّةِ ألفاظ .

(٢) «جلاء الإفهام في فضل الصلاة على خير الأنام» ص (٢١٦-٢١٥) .

مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيْرِ فِي ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، يَعْنِي وَمَنِ اتَّبَعَنِي يَدْعُو إِلَى اللهِ كَمَا أَدْعُو، وهَذَا قَولُ الكَلْبِيِّ، قَالَ : **حَقٌّ عَلَى كُلِّ مَنِ اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، ويُذَكِّرَ بِالقُرْآنِ وَالْمَوْعِظَةِ.** ويَقْوَى هَذَا القَولُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ؛ قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ : يَجُوزُ أَنْ يَتِمَّ الكَلامُ عِنْدَ قَولِهِ : ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ يَبْتَدِئُ بِقَولِهِ : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، فَيَكُونُ الكَلامُ عَلَى قَولِهِ جُمْلَتَيْنِ، أَخْبَرَ فِي أُوْلاهُمَا أَنَّهُ يَدْعُو إِلَى اللهِ، وفِي الثَّانِيَةِ بِأَنَّهُ وَأَتْبَاعَهُ عَلَى بَصِيْرَةٍ، وَالقَوْلانِ مُتَلازِمَانِ، فَلا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْ أَتْبَاعِهِ حَقّاً حَتَّى يَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ، وَقَوْلُ الْفَرَّاءِ أَحْسَنُ وأَقْرَبُ إِلَى الْفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ [(١)] .

وقَالَ عَبدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيدِ بْنُ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَولِهِ تَعَالَى : ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ : **وَحَقٌّ وَاللهِ عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى مِثْلِ مَا دَعَا إِلَيْهِ، ويُذَكِّرَ بِالْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمَعَاصِي** [(٢)] .

وقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَولِهِ تَعَالَى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] : **فَحَقٌّ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ كَالَّذِي دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَنْ يُنْذِرَ كَالَّذِي أَنْذَرَ بِهِ** [(٣)] .

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : ولا يَكُونُ مِنْ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى الْحَقِيْقَةِ إلاَّ مَنْ دَعَا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيْرَةٍ، قال تَعَالَى : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، فَقَولُهُ : ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَفْسِيْرٌ لِسَبِيْلِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، فَسَبِيْلُهُ وسَبِيْلُ أَتْبَاعِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللهِ فَلَيْسَ عَلَى سَبِيْلِهِ .. قَالَ : ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾، فَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى أَدْعُو إِلَى اللهِ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، ويَكُونُ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ مَعْطُوفاً عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي ﴿أَدْعُوٓاْ﴾، وحَسُنَ العَطْفُ لأَجْلِ الفَصْلِ، فَهُوَ دَلِيْلٌ عَلَى أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّسُولِ ﷺ هُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ كَانَ مَعْطُوفاً عَلَى الضَّمِيْرِ الْمُجَرَّدِ فِي سَبِيْلِي أَيْ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/١٩٣) .

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٢٩٠١) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/١٣١) و«تفسير ابن أبي حاتم» .

هَذِهِ سَبِيْلِي وسَبِيْلُ مَنِ اتَّبَعَنِي فَكَذَلِكَ، وَعَلَى التَّقْدِيْرَيْنِ فَسَبِيْلُهُ وسَبِيْلُ أَتْبَاعِهِ الدَّعْوَةُ إِلى اللهِ (١).

وقَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : يَقُولُ اللهُ تعالى لِعَبدِهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الثَّقَلَيْنِ : الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، آمِرًا لَهُ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ : أَنَّ هَذِهِ سَبِيلُهُ، أَيْ : طَرِيقُهُ وَمَسْلَكُهُ وَسُنَّتُهُ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِهَا عَلَى بَصِيرة مِنْ ذَلِكَ، وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ، هُوَ وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ، يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ (٢) .

قُلتُ : ومَعنَى أَنَّ الدَّعوَةَ إلى اللهِ وإلى سَبِيلِهِ هِيَ سَبِيلُ رَسُولِهِ ﷺ وأَتبَاعِهِ : أَنَّهَا وَظِيفَتُهُ الَّتِي بُعِثَ بِهَا، وعَاشَ لِأَجلِهَا؛ فَمَا تَحَرَّكَ وَلَا سَكَنَ، ولَا أَكَلَ ولا شَرِبَ، ولا نَامَ ولا أَفَاقَ، ولا نَكَحَ ولا طَلَّقَ، ولا أَحَبَّ ولا أَبغَضَ، ولا وَالَى ولا عَادَى، ولا وَصَلَ ولا قَطَعَ، ولا أَعطَى ولا مَنَعَ، إِلَّا مِن أَجلِهَا؛ فَكَانَ قَلبُهُ وعَقلُهُ وجَوَارِحُهُ وحَيَاتُهُ كُلُّهَا لَهَا؛ فَدَعَا إلى اللهِ في جَمِيعِ الأَحوَالِ : في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والعُسرِ واليُسرِ، والْمَنشَطِ والْمَكرَهِ، والسِّلمِ والحَربِ؛ ومَا غَفِلَ سَاعَةً عَمَّا كَلَّفَهُ بِهِ رَبُّهُ ﷻ وشَرَّفَهُ، بِقَولِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. ولَيسَ هَذَا الْمَقَامُ بِمُتَّسِعٍ لِتَفصِيلِ جِهَادِهِ في الدَّعوَةِ إلى اللهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَعنِي تَقَصِّي سِيرَتِهِ في كُلِّ سَاعَةٍ مِن سَاعَاتِ عُمُرِهِ الْمُبَارَكِ؛ كَمَا تَقَدَّمَ قَولُ الإمَامِ ابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَمَّا كَانَ الْجِهَادُ ذِرْوَةَ سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَقُبَّتَهُ، وَمَنَازِلُ أَهْلِهِ أَعْلَى الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا لَهُمُ الرِّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا، فَهُمُ الْأَعْلَوْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الذِّرْوَةِ الْعُلْيَا مِنْهُ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَنْوَاعِهِ كُلِّهَا، فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ : بِالْقَلْبِ وَالْجَنَانِ، وَالدَّعْوَةِ وَالْبَيَانِ، وَالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ؛ وَكَانَتْ سَاعَاتُهُ مَوْقُوفَةً عَلَى الْجِهَادِ : بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ. وَلِهَذَا كَانَ أَرْفَعَ الْعَالَمِينَ ذِكْرًا، وَأَعْظَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا .. وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ كُلَّهَا، وَلِهَذَا كَانَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ خَاتِمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّهُ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» ص (٢١) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٤٢٢) .

حَقَّ جِهَادِهِ، وَشَرَعَ فِي الْجِهَادِ مِنْ حِينِ بُعِثَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ ﷻ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [الْمُدَّثِّر: ١ - ٤] شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الدَّعْوَةِ، وَقَامَ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَتَمَّ قِيَامٍ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجِهَارًا؛ وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الْحِجْر: ٩٤] فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا تَأْخُذُهُ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، فَدَعَا إِلَى اللَّهِ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالْحُرَّ وَالْعَبْدَ، وَالذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، وَالْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ .. [(١)].

قُلتُ: وبِمَا أَنَّ الدَّعوَةَ إلى اللهِ هِيَ سَبِيلُ أَتبَاعِهِ ﷺ الصَّادِقِينَ، فَيَنبَغِي أَن يَقُومُوا بِهَا عَلَى نَهجِهِ ﷺ وطَرِيقِهِ، مِنَ الجِدِّ والتَّفَانِي، والصَّبرِ والتَّحَمُّلِ، والخُرُوجِ والتَّضحِيَةِ لِأَجلِهَا بِالْمَالِ والنَّفسِ، وكُلِّ غَالٍ ونَفِيسٍ، وتَقدِيمِ مُقتَضَيَاتِهَا عَلَى كُلِّ عَمَلٍ، وأَلَّا يَبتَغِيَ مِن وَرَاءِهَا أَيَّ مَنفَعَةٍ دُنيَوِيَّةٍ، مِن مَالٍ أَو جَاهٍ أَو مَنصِبٍ، بَل يَكُونُ شِعَارُهُ فِيهَا كَشِعَارِ أَهلِ الدَّعوَةِ الْمُخلِصِينَ، مِنَ الأَنبِيَاءِ والْمُرسَلِينَ، وخُلَفَائِهِم مِن أُمَمِهِم: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وبالإِضَافَةِ إلى أَنَّ الجِهَادَ بِالدَّعوَةِ هُوَ سَبِيلُ الرَّسُولِ ﷺ، وأَتبَاعِهِ، فَهُوَ أَيضاً يَقَعُ مِنَ الإِيمَانِ فِي خَمسَةِ مَوَاقِعَ:

أَوَّلاً: أَنَّهُ مِنْ أَوَّلِ مُقتَضَيَاتِ الإِيمَانِ: فَإِنَّ وَاجِبَ الدَّعوَةِ إلى اللهِ وإلى سَبِيلِهِ هُوَ أَوَّلُ التِزَامٍ يَلتَزِمُهُ الْمُسلِمُ تُجَاهَ رَبِّهِ ﷻ، بِالتَّصدِيقِ بِالإِسلَامِ، وأَوَّلُ تَبِعَةٍ يَتَحَمَّلُهَا بِالإِيمَانِ بِخَالِقِهِ؛ حَيثُ إِنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ الشَّهَادَتَينِ تُلقِي عَلَى عَاتِقِ مَنْ أَقَرَّ بِهَا مَسؤُولِيَّةَ الدَّعوَةِ إلى حَقِيقَتِهَا؛ وهَذَا مَا حَصَلَ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ حِينَمَا آمَنُوا، ثُمَّ وَلَّوا إلى قَومِهِم مُنذِرِينَ.

ثَانِياً: أَنَّهُ عَلَامَةُ الإِيمَانِ الصَّادِقِ: كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. وقَالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾

---

(١) تقدم تفصيله وعَزْوُهُ.

[الأنفال:٧٤]. والجِهَادُ بِالدَّعوَةِ يَدخُلُ فِي هَذِهِ الآيَاتِ بِالقَصدِ الأَوَّلِ كَمَا مَرَّ، وسَيَأتِي مَزِيدٌ مِنَ التَّفصِيلِ فِي الفَصلِ الثَّالِثِ .

ثَالِثاً : أَنَّهُ شَرطٌ لِتَمَامِ الإِيمَانِ وصِدقِهِ : كَمَا قَالَ : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران:٣١]. فَإِنَّا لَن نَكُونَ مُؤمِنِينَ صَادِقِينَ حَتَّى نُحِبَّ اللهَ ﷻ، ولَن يَكُونَ ذَلِكَ حَتَّى نَتَّبِعَ رَسُولَهُ ﷺ، ولَن نَتَّبِعَهُ حَقَّ الاِتِّبَاعِ حَتَّى نَسلُكَ سَبِيلَهُ، بِالدَّعوَةِ إلى مَا دَعَا إِلَيهِ ﷺ .

رَابِعاً : أَنَّهُ وِقَايَةٌ لِلإِيمَانِ مِنَ الضَّعفِ والضُّمُورِ : كَمَا قَالَ ﷺ :" **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**"[(١)]. فَإِبلِيسُ يَدعُو العَالَمِينَ إلى بَاطِلِهِ، لِيَكُونُوا مِن حِزبِهِ، فَيَكُونُوا مِن أَصحَابِ السَّعِيرِ؛ وخَيرُ وَسِيلَةٍ لِلدِّفَاعِ الهُجُومُ، وذَلِكَ بِدَعوَةِ العَالَمِينَ إلى الحَقِّ، لِيَكُونُوا مِن حِزبِ اللهِ، فَيَكُونُوا مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ .

خَامِساً : أَنَّهُ غِذَاءٌ لِلإِيمَانِ وتَنمِيَةٌ لَهُ : فَإِذَا كَانَتِ الدَّعوَةُ إلى اللهِ ومُحَارَبَةُ الشَّيطَانِ أَمراً ضَرُورِيًّا لِلحِفَاظِ عَلَى بِذرَةِ الإِيمَانِ مِنَ الضَّعفِ والضُّمُورِ، فَإِنَّهَا غِذَاءٌ لِتِلكَ البِذرَةِ، ونَمَاءٌ لَهَا، وتَعمِيقٌ لِجُذُورِهَا؛ فَإِنَّ أَيَّ مَعنًى مِنَ الْمَعَانِي يَدعُو إِلَيهِ الإِنسَانُ، يَزِيدُ حُبَّهُ لَهُ، وارْتِبَاطَهُ بِهِ؛ وتَتَنَاسَبُ هَذِهِ الصِّلَةُ مَعَ شِدَّةِ مَا يُلَاقِيهِ الدَّاعِيَةُ، وعَظَمَةِ التَّضحِيَاتِ فِي سَبِيلِ مَا يَدعُو إِلَيهِ؛ فَتَرَى الإِنسَانَ يَزدَادُ حُبُّهُ، وتَتَوَثَّقُ صِلَتُهُ بِمَن يَتعَبُ مِن أَجلِهِ، ويَشقَى فِي سَبِيلِهِ؛ فَتَرَاهُ أَكثَرَ حُبّاً لِوَلَدِهِ وزَوجِهِ وأَرضِهِ، لِأَنَّ صِلَتَهُ بِهَا امتَزَجَتْ بِتَضحِيَاتٍ وتَعَبٍ مِن أَجلِهَا [(٢)] .

نَسأَلُ اللهَ العَظِيمَ رَبَّ العَرشِ العَظِيمِ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِسُلُوكِ سَبِيلِهِ وسَبِيلِ رَسُولِهِ ﷺ، والدَّعوَةِ إِلَيهَا، والِاستِقَامَةِ عَلَيهَا، وإِقَامَةِ الأُمَّةِ عَلَيهَا .



(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري برقم (٤٩) .

(٢) «الجهاد – ميادينه وأساليبه –» لمحمد نعيم ياسين ص (٨٣) وما بعدها، بتصرف واختصار.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ:

بَيَانُ الغَرَضِ الأَسَاسِيِّ مِن وَرَاءِ تَشرِيعِ الخُرُوجِ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومَرَاحِلِ تَشرِيعِهِ:

إنَّ الجِهَادَ في سَبِيلِ اللهِ بَيعَةٌ مَعقُودَةٌ في عُنُقِ كُلِّ مُؤمِنٍ، مُنذُ كَانَ دِينُ اللهِ، فَهِيَ سُنَّةٌ جَارِيَةٌ لَا تستَقِيمُ الحَيَاةُ بِدُونِهَا، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ **وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ** ﴾ [البقرة: ٢٥١]. فَالحَقُّ الَّذِي أَرسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمّداً ﷺ لَا بُدَّ أَنْ يَنطَلِقَ فِي طَرِيقِهِ فِي جَمِيعِ الأَرضِ، لِتَحرِيرِ البَشَرِيَّةِ مِنَ العُبُودِيَّةِ لِلعِبَادِ، وردِّهِم إلى العُبُودِيَّةِ للهِ وَحدَهُ؛ والحَقُّ إِذَا سَارَ فِي الأَرضِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقِفَ لَهُ البَاطِلُ فِي الطَّرِيقِ، ويَسعَى جَاهِداً لِقَطعِهَا عَلَيهِ؛ بَلْ ورُبَّمَا هَاجَمَهُ فِي عُقرِ دَارِهِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ولَكِنَّ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، لَيسَ مُجَرَّدَ اندِفَاعَةٍ إلى القِتَالِ، إِنَّمَا هُوَ قِمَّةٌ تَقُومُ عَلَى قَاعِدَةٍ مِنَ الإِيمَانِ، الْمُتَمَثِّلِ فِي مَشَاعِرَ وشَعَائِرَ، وأَخلَاقٍ عَالِيَةٍ، وأَعمَالٍ صَالِحَةٍ؛ والْمُؤمِنُونَ الَّذِينَ عَقَدَ اللهُ مَعَهُمُ البَيعَةَ، والَّذِينَ تَتَمَثَّلُ فِيهِم حَقِيقَةُ الإِيمَانِ، هُم قَومٌ يَحمِلُونَ أَفضَلَ الصِّفَاتِ الإِيمَانِيَّةِ وأَحسَنَهَا وأَعلَاهَا، وهَؤُلَاءِ الْمُؤمِنُونَ هُمُ: ﴿ **ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ** ﴾ [التوبة: ١١٢].

فَـ«الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ» لِإِعلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وَرَدِّ كَيدِ الأَعدَاءِ – الْمَادِّيِّ والْمَعنَوِيِّ – فِي الحَرِّ والبَردِ، والشِّدَّةِ والرَّخَاءِ، والعُسرِ واليُسرِ، أَمْرٌ مَطلُوبٌ مِنْ كُلِّ مُسلِمٍ، ولَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ التَّأَخُّرُ عَنهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، لِمَنْ يُرِيدُ التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. وهُوَ وَاجِبٌ يُوجِبُهُ الحَيَاءُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ والْمُؤمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ، فَضلاً عَنِ الأَمرِ الصَّادِرِ مِنَ اللهِ ﷻ بِقَولِهِ: ﴿ **ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ [التوبة:

٤١]؛ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فَهَذَا الدِّينُ كُلُّهُ جُهدٌ وعَمَلٌ، لَا يَفقَهُهُ إِلَّا مَنْ يَتَحَرَّكُ بِهِ، والَّذِينَ يَخْرُجُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ لِإعلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وإِقَامَةِ دِينِهِ ونَشرِهِ، هُم أَولَى النَّاسِ بِفِقْهِهِ، بِمَا يَتَكَشَّفُ لِهُم مِنْ أَسرَارِهِ ومَعَانِيهِ، وبِمَا يَتَجَلَّى لَهُم بِهِ مِنْ آيَاتِهِ وتَطْبِيقَاتِهِ العَمَلِيَّةِ فِي أَثْنَاءِ الحَرَكَةِ بِهِ.

وبِالهِجرَةِ والنُّصرَةِ مِنْ أَجلِ إِعلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، ونَشرِ دِينِهِ، تَنتَشِرُ الهِدَايَةُ فِي العَالَمِ، ويَزُولُ البَاطِلُ مِنَ الأَرضِ، وتَنزِلُ رَحمَةُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، ويَحصُلُ لَهُم رِضوَانُهُ، والفَوزُ بِجَنَّتِهِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وقَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وبِهَذَينِ الصِّنفَينِ مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَظهَرَ اللهُ دِينَهُ، وأَعلَى كَلِمَتَهُ، حَتَّى دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفوَاجاً؛ وهَذَا عَمَلُ الأُمَّةِ إِلى يَومِ القِيَامَةِ، لِمَنْ كَانَ يَرجُو رَحمَةَ اللهِ، دَعوَةً وتَبلِيغاً، جُهداً وجِهَاداً، هِجرَةً ونُصرَةً، بِحَسَبِ أَمرِ اللهِ ﷻ؛ ولَا يَصلُحُ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨] [(١)].

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ لِلْجِهَادِ أَغْرَاضاً وأَهْدَافاً جُزْئِيَّةً كَثِيرَةً، ولَكِنَّ الْهَدَفَ الأَسَاسِيَّ وَرَاءَ تَشْرِيْعِ الجِهَادِ حَسَبَ مَا تَدُلُّ عَلَيهِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ هُوَ إِعْزَازُ الإِسْلامِ، وإِعْلاءُ كَلِمَةِ اللهِ، وَكَسْرُ شَوْكَةِ الْكُفْرِ والْكُفَّارِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ فِي التَّارِيخِ أَقْوَى سَبَبٍ لِشُيُوعِ الظُّلْمِ والْفِتْنَةِ والْفَسَادِ، وأَكْبَرَ مَانِعٍ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ والإِصْغَاءِ إِلَى الدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ؛ ولَمْ يُشْرَعِ الجِهَادُ لِإِكْرَاهِ النَّاسِ

(١) «موسوعة فقه القلوب» لمحمد بن إبراهيم التويجري (٣/٢٠٢٤) وما بعدها، بتصرف واختصار .

عَلَى قَبُولِ الإِسْلامِ، ولَوْ كَانَ الجِهَادُ هَدَفُهُ الإِكْرَاهُ عَلَى الدِّينِ لَمَا شُرِعَتِ الجِزْيَةُ لإِنْهَاءِ الحَرْبِ، ولَمْ يَرِدْ فِي شَيْءٍ مِنْ حُرُوبِ الجِهَادِ عَلَى كَثْرَتِهَا عَبْرَ التَّارِيخِ، أَنَّ أَحَداً مِنَ الْكُفَّارِ أُكْرِهَ عَلَى قَبُولِ الإِسْلامِ بَعْدَمَا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ بَلَداً مِنَ الْبِلادِ [(١)]، وإِنَّمَا تُرِكَ الْكُفَّارُ ومَا يَدِيْنُونَ بِكُلِّ رَحَابَةِ صَدْرٍ، ثُمَّ جَاءَتِ الدعوةُ الإِسْلامِيَّةُ مَصْحُوبَةً بِالْحُجَّةِ والبُرْهَانِ، وبِالسِّيَرِ الْفَاضِلَةِ والأَخْلاقِ الْكَرِيْمَةِ وَالأَعْمَالِ الْجَاذِبَةِ، فَتَسَارَعَ الْكُفَّارُ إلى الإِسْلامِ بَعْدَ اقْتِنَاعِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ وَاسْتِيْقَانِهِمْ بِحُسْنِ تَعَالِيْمِهِ، دُوْنَ أَنْ يُكْرِهَهُمْ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ؛ فَعَن بُرَيدَةَ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ :" **اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا وَلا تَغْدِرُوا وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلالٍ)، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَإِنْ أجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلا يَكُونُ لَهُمْ فِي**

---

(١) أخرج ابن جريرٍ الطَّبَرِيُّ في تاريخه (٤/٢٢٧) عن زياد بن جُزْءٍ الزبيديِّ، قال: **افْتَتَحْنَا الإِسْكَنْدَرِيَّةَ في خِلافَةِ عُمَرَ** ﷺ، فذكر الحديث وفيه، **ثُمَّ وَقَفْنَا بِبَلْهِيب، وأَقَمْنَا نَنْظُرُ كِتَابَ عُمَرَ حَتَّى جَاءَنَا، فَقَرَأَهُ عَلَينَا عَمْرُوٌ** ﷺ وفِيهِ : ... **فَاعْرِضْ عَلَى صَاحِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَنْ يُعْطِيَكَ الجِزْيَةَ عَلَى أَنْ تُخَيِّرُوْا مَنْ في أَيْدِيكُم مِنْ سَبْيِهِم بَيْنَ الإِسْلامِ وبَيْنَ دِينِ قَومِهِ، فَمَنِ اخْتَارَ الإِسْلامَ فَهُوَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُم، وعَلَيهِ مَا عَلَيهِم، ومَنِ اخْتَارَ دِينَ قَوْمِهِ فَضَعْ عَلَيهِ الجِزْيَةَ مَا يُوضَعُ عَلَى أَهْلِ دِينِهِ**" ... قَالَ زيادٌ : **فَجَمَعْنَا مَا في أَيْدِينَا مِنَ السَّبَايَا وَاجْتَمَعَتِ النَّصَارَى، فَجَعَلْنَا نَأْتِي بِالرَّجُلِ مِمَّنْ في أَيْدِينَا ثُمَّ نُخَيِّرُهُ بَينَ الإِسْلامِ والنَّصْرَانيَّةِ، فَإِذَا اخْتَارَ الإِسْلامَ كَبَّرْنَا تَكْبِيْرَةً هِيَ أَشَدُّ مِنْ تَكْبِيرِنَا حِينَ يُفْتَحُ الْحِصْنُ، قَالَ: ثُمَّ نَحُوْزُهُ إِلَينَا، وإِذَا اخْتَارَ النَّصْرَانِيَّةَ نَخَرَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ حَازُوهُ إِلَيهِم، وَوَضَعْنَا عَلَيهِ الجِزْيَةَ، وجَزِعْنَا مِنْ ذَلِكَ جَزَعاً شَدِيداً حَتَّى كَأَنَّهُ رَجُلٌ خَرَجَ مِنَّا إِلَيهِم** .

الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ " (١) .

وأَرسَلَ النَّبِيُّ ﷺ مُعاذاً رضي الله عنه إلى اليَمَنِ، فَأَوصَاهُ بقوله :" **إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، ..الحديث "** (٢) .

فَالجِهَادُ إنما شُرِعَ لِتَعْلُوَ كَلِمَةُ اللهِ عز وجل عَلَى أَرْضِهِ، ويَكُونَ لَهَا العِزُّ والْمَنَعَةُ، ولِيَكْسِرَ شَوْكَةَ الجَبَّارِينَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُوْنَ عِبَادَ اللهِ بِأَحْكَامِهِمْ وقَوَانِينِهِمُ الْمُنْبَعِثَةِ مِنْ آرَائِهِمْ، ويَأْبَوْنَ أَنْ يُقَامَ حُكْمُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، ويُشِيعُونَ بِقُوَّةِ حُكْمِهِمْ كُلَّ ظُلْمٍ ومُنْكَرٍ وفَسَادٍ، وهَذَا هُوَ الْهَدَفُ الَّذِي بَاحَ بِهِ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه أَمَامَ رُسْتُمَ حينَ هَجَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِيْرَانَ وسَأَلَهُ رُسْتُمُ: مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ فَقَالَ :" **اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلى عَدْلِ الإِسْلامِ "**(٣). وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله : وَإِنَّمَا وُضِعَ الجِهَاد لِأَجْلِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ فَالْمَقْصُود مِنَ الجِهَاد أَنْ يُذْكَر اللَّهُ، وَيُعْبَدَ وَحْدَهُ؛ فَتَوْحِيدُهُ وَذِكْرُهُ وَعِبَادَتُهُ : هُوَ غَايَةُ الْخَلْقِ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا (٤) .

ولا بُدَّ لِلْوُصُولِ إِلَى حَقِيْقَةِ الجِهَادِ وأَحْكَامِهِ الْمَذْكُورَةِ فِي الكِتَابِ والسُّنَّةِ مِنْ مَعْرِفَةِ أَنَّ الْجِهَادَ قَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ مُنْذُ بِدَايَةِ الإِسْلامِ مَرَاحِلُ فِي تَشْرِيْعِهِ، ولَمْ يَصِلْ إِلى حُكْمِهِ النِّهَائِيِّ إلاَّ بَعْدَ زَمَانٍ، **وهِيَ أَرْبَعُ مَرَاحِلَ** :

فَالْمَرْحَلَةُ الأُوْلَى : هِيَ الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِيْنَ مَعَ الاِسْتِمْرَارِ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى دِيْنِ الحَقِّ، ونُهِيَ النَّبِيُّ ﷺ وأَصْحَابُهُ عَنِ القِتَالِ، وهَذِهِ أَوَّلُ مَرْحَلَةٍ لِلدَّعوةِ الإِسْلامِيَّةِ، وقَدْ تَكَرَّرَتْ

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٣١) .

(٢) رواه البخاري برقم (١٣٩٥) ومسلم برقم (١٩) .

(٣) «البداية والنهاية» (٣٩/٧) و«تاريخ الطبري» (٥١٨/٣) .

(٤) «تهذيب السنن» (١٢٧/٧) .

هَذِهِ الأَحْكَامُ فِي القُرآنِ الكَرِيْم مُدَّةَ إِقَامَتِهِ ﷺ بِمَكَّةَ، قَالَ ﷻ : ﴿ **فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقَالَ: ﴿ **خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَقالَ ﷺ لأَصْحَابِهِ فِي هذه الْمُدَّةِ :" **إِنِّيْ أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلا تُقَاتِلُوْا** "[١]، ويَقُولُ الإِمَامُ الْقَرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : وَلَمْ يُؤْذَنْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي الْقِتَالِ مُدَّةَ إِقَامَتِهِ بِمَكَّةَ [٢] .

وَالْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ : إِبَاحَةُ الْقِتَالِ بِدُوْنِ أَنْ يُفْرَضَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ، وفي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ نَزَلَ قولُهُ ﷻ: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ** ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠]، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ : وقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : هذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ، وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَةِ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ السُّوْرَةَ مَدَنِيَّةٌ [٣] .

---

(١) رواه النسائي في سننه برقم (٣٠٨٦) والبيهقي في سننه برقم (١٧٥١٩)والحاكم في المستدرك برقم (٢٣٧٧) و(٣٢٠٠) بلفظ : أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَاباً لَهُ ﷺ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ، كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، فَقَالَ ﷺ :" **إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلاَ تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ**". فَلَمَّا حَوَّلَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ بِالقِتَالِ فَكَفُّوا، فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ **أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ** ﴾ [النساء: ٧٧]. قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي .

(٢) «تفسير القرطبي» (٣٤/٣) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٤/٣)، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وإنما شَرَعَ ﷻ الجِهَادَ فِي الوَقْتِ الأَلْيَقِ به، لأَنَّهُم لَمَّا كَانُوا بِمَكَّةَ كَانَ الْمُشرِكُونَ أَكْثَرَ عَدَداً، فلو أَمَرَ المسلمين وهم أقلُّ من العشرِ بقتالِ الباقين لَشَقَّ عليهم، ولهذا لَمَّا بَايَعَ أهلُ يَثربَ ليلةَ العَقَبَةِ رَسُولَ اللهِ ﷺ. وكانوا نَيِّفاً وثمانين، قالوا : يا رسول اللهِ أَلا نَمِيلُ على أهلِ الوادي، يعنون أهلَ منىً، ليالِيَ منىً فنقتلَهُم ؟ فقال رسول اللهِ ﷺ :" **إِنِّي لَمْ أُوْمَرْ بِهَذَا** ". فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النَّبِيَّ ﷺ من بين أَظْهُرِهِمْ، وهَمُّوا بقتله، وشَرَّدُوا أصحابَهُ شَذَرَ مَذَرَ، فذهب منهم طائفةٌ إلى الحبشةِ، وآخرون إلى المدينة، فلَمَّا اسْتَقَرُّوا بالمدينةِ، وَوَافَاهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بِنَصْرِهِ، وصارتْ لهم دارَ إسلامٍ، ومَعْقِلاً يلجئون إليه، شَرَعَ اللهُ جهادَ الأعداءِ، فكانت هذه الآيةُ أَوَّلَ ما نَزَلَ في ذلك .

وَالْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَرْضُ الْقِتَالِ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ لِمَنِ ابْتَدَأَهُمُ الْقِتَالَ فَقَطْ دُوْنَ أَنْ يَبْتَدِؤُا بِهِ ضِدَّ أَعْدَائِهِمْ، وفِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ نَزَلَ قولُهُ ﷻ: ﴿ **وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقَولُهُ ﷻ ﴿ **فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا** ﴾ [النساء: ٩٠] .

وَالْمَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ : قِتَالُ جَمِيْعِ الْكُفَّارِ عَلَى اخْتِلافِ أَدْيَانِهِمْ وأَجْنَاسِهِمُ ابْتِدَاءً، وإِنْ لَمْ يَبْتَدِؤُا بِقِتَالِ الْمُسْلِمِيْنَ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يَدْفَعُوا الْجِزْيَةَ، كَسْراً لِشَوْكَةِ الكُفْرِ، وإِعْزَازاً لِلدِّيْنِ، وإِعْلاءً لِكَلِمَةِ اللهِ؛ وبَدَأَتْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ بَعْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ حَجِّ العَامِ التَّاسِعِ الَّذِي تَرَأَّسَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ ، ووَقَعَ إِعْلانُ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ فِي ذَلِكَ الْحَجِّ بِلِسَانِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ ، وقَدْ ذَكَرَهُ اللهُ ﷻ مُفَصَّلاً فِيْ سُوْرَةِ التَّوْبَةِ، وفِيهَا يَقُولُ ﷻ : ﴿ **فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ [التوبة: ٥٠]، ويقُولُ ﷻ : ﴿ **وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ** ﴾[الأنفال: ٣٩] .

وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْمَرَاحِلَ فِي تَشْرِيْعِ الْجِهَادِ كَثِيْرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، نَذْكُرُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ مَا يَلِيْ :

قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيمَا يُثَبِّتُهُ بِهِ إِذَا ضَاقَ مِنْ أَذَاهُمْ : ﴿ **وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ** ﴾ [الحجر:٩٧- ٩٩]، فَفَرَضَ عَلَيْهِ إِبْلاغَهُمْ وَعِبادَتَهُ ولَمْ يَفْرِضْ عَلَيْهِ قِتَالَهُمْ، وأَبَانَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ... ثُمَّ أَذِنَ ﷻ لَهُمْ بِالْجِهَادِ ... ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ بِأَنْ يَبْتَدِؤُا الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ، قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ** ﴾ [الحج: ٣٩]، وأَبَاحَ لَهُمُ الْقِتَالَ بِمَعْنَى أَبَانَهُ فِيْ

كِتَابِهِ، فَقَالَ : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ولَمَّا مَضَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مُدَّةٌ مِنْ هِجْرَتِهِ، أَنْعَمَ اللهُ فِيْهَا عَلَى جَمَاعَاتٍ بِاتِّبَاعِهِ، حَدَثَتْ لَهُمْ بِهَا مَعَ عَوْنِ اللهِ ﷻ قُوَّةٌ بالعَدَدِ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهَا، فَفَرَضَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمُ الْجِهَادَ بَعْدَ إِذْ كَانَ إِبَاحَةً لا فَرْضاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] (١) .

ويَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيْ أَوَّلِ الأَمْرِ مَأْمُوراً أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ بِلِسَانِهِ لا بِيَدِهِ، فَيَدْعُوَهُم ويَعِظَهُمْ ويُجَادِلَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، .. وَكَانَ مَأْمُوراً بالْكَفِّ عَنْ قِتَالِهِمْ لِعَجْزِهِ وعَجْزِ الْمُسْلِمِيْنَ، ولَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِمْ قِتَالُ مَنْ سَالَمَهُمْ، لأَنَّهُم لَمْ يَكُونُوا يُطِيْقُوْنَ قِتَالَ جَمِيْعِ الْكُفَّارِ، فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ، وانْقَطَعَ قِتَالُ قُرَيْشٍ مُلُوكِ العَرَبِ، وَوَفَدَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ بِالإِسْلامِ، أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ كُلِّهِمْ إِلاَّ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُؤَقَّتٌ، وأَمَرَهُ بِنَبْذِ العُهُودِ الْمُطْلَقَةِ (٢) .

وبِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَ الإِمَامُ السَّرَخْسِيُّ (٣)، وابْنُ رُشْدٍ (٤)، وابْنُ الْقَيِّمِ (٥)، وغَيرُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ .

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْقِيْقِ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ، فَادَّعَى بعضُهُم أَنَّ كُلَّ مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ نَسَخَتْ حُكْمَ مَا قبلَهَا، فَالْمَرَاحِلُ الثَّلاثَةُ الأُوْلَى مَنْسُوخَةٌ الْيومَ، وإِنَّمَا الْبَاقِيَةُ الْيَوْمَ هِيَ الْمَرْحَلَةُ الأَخِيْرَةُ، وَهِيَ الرَّابِعَةُ فَقَطْ؛ وَخَالَفَهُمْ آخَرُونَ فَقَالُوا: إِنَّ الْمَرَاحِلَ الأُوْلَى لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً، وإِنَّمَا هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بظُرُوفٍ مَخْصُوصَةٍ كُلَّمَا عَادَتْ عَادَتْ أَحْكَامُهَا .

---

(١) «أحكام القرآن للشافعي» (٢/٩ إلى ٥٠) وانظر «معرفة السنن والآثار» للبيهقي (٥٥٣٨) .
(٢) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١/٧٤) .
(٣) «المبسوط» (١٠/٢) .
(٤) «بداية المجتهد» (١/٣٧١-٣٧٢) .
(٥) «زاد المعاد» (٣/٥١-٥٢) .

ومِنْ مُقَدِّمَةِ مَنْ قَالَ ذَلِكَ العلاَّمَةُ بَدْرُ الدِّينِ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، فَإِنَّهُ قَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي مَرَاحِلِ الْجِهَادِ نَسْخٌ، بَلْ يُعْمَلُ بِكُلِّ مَرْحَلَةٍ عِنْدَ الْحَالَةِ المشَابِهَةِ لِلْحَالَةِ الَّتِيْ شُرِعَتْ فِيْهَا .

ويَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ : قَسَّمَ بَعْضُهُمُ النَّسْخَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ إِلَى ثَلاثَةِ أَضْرُبٍ .. الثَّالِثُ : مَا أُمِرَ بِهِ لِسَبَبٍ ثُمَّ يَزُولُ السَّبَبُ، كَالأَمْرِ حِيْنَ الضَّعْفِ والْقِلَّةِ بِالصَّبْرِ والْمَغْفِرَةِ لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَ اللهِ ونَحْوِهِ مِنْ عَدَمِ إِيْجَابِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ ونَحْوِهَا، ثُمَّ نَسَخَهَا إِيْجَابُ ذَلِكَ، وهَذَا لَيْسَ بِنَسْخٍ فِيْ الْحَقِيْقَةِ، وإِنَّمَا هُوَ نَسْأٌ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **أَوْ نُنسِهَا** ﴾ [البقرة: ١٠٦]، فَالْمُنْسَأُ هُوَ الأَمْرُ بِالْقِتَالِ إِلَى أَنْ يَقْوَى الْمُسْلِمُونَ، وَفِي حَالِ الضَّعْفِ يَكُونُ الْحُكْمُ وُجُوبَ الصَّبْرِ عَلَى الأَذَى، وَبِهَذَا التَّحْقِيْقِ تَبَيَّنَ ضَعْفُ مَا لَهَجَ بِهِ كَثِيْرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فِيْ الآيَاتِ الآمِرَةِ بالتَّخْفِيفِ أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ، ولَيْسَتْ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ مِنَ الْمُنْسَإِ، بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ وَرَدَ يَجِبُ امْتِثَالُهُ فِيْ وَقْتٍ مَا لِعِلَّةٍ تُوْجِبُ ذَلِكَ الْحُكْمَ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بِانْتِقَالِ تِلْكَ العِلَّةِ إِلَى حُكْمٍ آخَرَ، ولَيْسَ بِنَسْخٍ، وإِنَّمَا النَّسْخُ الإِزَالَةُ حَتَّى لا يَجُوزَ امْتِثَالُهُ أَبَداً .

وإِلى هَذَا أَشَارَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الرِّسَالةِ إِلَى النَّهْيِ عَنِ ادِّخَارِ لُحُومِ الأَضَاحِي مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ، ثُمَّ وَرَدَ الإِذْنُ فِيْهِ [١]، فَلَمْ يَجْعَلْهُ مَنْسُوخاً، بَلْ مِنْ بَابِ زَوَالِ الْحُكْمِ لِزَوَالِ عِلَّتِهِ، حَتَّى لَوْ فَاجَأَ أَهْلَ نَاحِيَةٍ جَمَاعَةٌ مَضْرُورُونَ تَعَلَّقَ بِأَهْلِهَا النَّهْيُ، ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ** ﴾ [المائدة: ١٠٥]، كَانَ ذَلِكَ فِي ابْتِدَاءِ الأَمْرِ، فَلَمَّا قَوِيَ الحَالُ وَجبَ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ والْمُقَاتَلَةُ عَلَيهِ، ثُمَّ لَوْ فُرِضَ وُقُوعُ الضَّعْفِ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ في قَولِهِ :" **بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيْباً، وَسَيَعُودُ غَرِيْباً كَمَا بَدَأَ** "[2]. عَادَ الْحُكْمُ .

---

(١) الدافَّة : قومٌ من الأعراب يَرِدُون المِصْرَ؛ يُريد أنهم قومٌ قَدِموا المدينة عند الأضْحَى فنَهاهم ﷺ عن ادِّخار لُحوم الأضاحي لِيُفَرِّقوها ويتصدَّقوا بها فيَنْتفِع أولئك القادمون بها. «النهاية» لابن الأثير (٢/٢٩١) . والحديث رواه مسلم في صحيحه برقم (٥٢١٥).

(٢) رواه مسلم برقم (٢٣٢) .

وهُوَ ﷻ حَكِيمٌ، أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ ضَعْفِهِ مَا يَلِيْقُ بِتِلْكَ الْحَالِ رَأْفَةً بِمَنْ تَبِعَهُ وَرَحْمَةً، إِذْ لَوْ وَجَبَ لأَوْرَثَ حَرَجاً ومَشَقَّةً، فَلَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلامَ وأَظْهَرَهُ ونَصَرَهُ أَنْزَلَ عَلَيهِ مِنَ الْخِطَابِ مَا يُكَافِئُ تِلْكَ الْحَالَةَ مِنْ مُطَالَبَةِ الْكُفَّارِ بِالإِسْلامِ أَوْ بِأَدَاءِ الجِزْيَةِ إِنْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ، أَوِ الإِسْلامِ أَوِ الْقَتْلِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ، ويَعُودُ هذَانِ الحُكْمَانِ - أَعْنِي الْمُسَالَمَةَ عِنْدَ الضَّعْفِ وَالْمُسَايَفَةَ عِنْدَ الْقُوَّةِ - بِعَوْدِ سَبَبِهِمَا، ولَيْسَ حُكْمُ الْمُسَايَفَةِ نَاسِخاً لِحُكْمِ الْمُسَالَمَةِ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَجِبُ امْتِثَالُهُ فِيْ وَقْتِهِ (١) .

وَالْحَقِيْقَةُ أَنَّ هَذَا الإِخْتِلافَ لا يَرْجِعُ إِلَى فَرْقٍ عَمَلِيٍّ، وإِنَّمَا هُوَ اخْتِلافُ اصْطِلاحٍ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الأَحْكَامَ مَنُوطَةٌ بِظُرُوفٍ مَخْصُوصَةٍ، فَأَحْكَامُ الصَّبْرِ والْعَفْوِ مُحَكَّمَةٌ في حَالَةِ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، وإِبَاحَةُ الْقِتَالِ فِيْ حَالَةٍ هِيَ فَوْقَ الْحَالَةِ الأُولَى، وَوُجُوْبُ قِتَالِ الدَّفْعِ في حَالَةٍ فَوْقَهَا، ووُجُوْبُ الإِبْتِدَاءِ عِنْدَمَا حَصَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قُوَّةٍ يَقْدِرُونَ مَعَهَا عَلَى ذَلِكَ، ولَكِنَّ الطَّائِفَةَ الأُولَى تُسَمِّيهِ قِسْماً مِنَ النَّسْخِ، وَالزَّرْكَشِيُّ يُسَمِّيهِ نَسْأً، أَيْ تَأْخِيراً لِلْحُكْمِ عِنْدَ وُجُودِ عِلَّتِهِ، وَلا يَرْضَى بِتَسْمِيَتِهِ نَسْخاً (٢) .

فَالَّذِينَ يَسُوقُونَ النُّصُوصَ القُرآنِيَّةَ لِلاستِشهَادِ بِهَا عَلَى مَنهَجِ هَذَا الدِّينِ في الجِهَادِ، ولا يُدرِكُونَ طَبِيعَةَ الْمَرَاحِلِ الَّتِي مَرَّ بِهَا هَذَا الْمَنهَجُ، وعَلَاقَةَ النُّصُوصِ الْمُختَلِفَةِ بِكُلِّ مَرحَلَةٍ مِنهَا، الَّذِينَ يَصنَعُونَ هَذَا يَخلِطُونَ خلطاً شَدِيداً، ويَلبِسُونَ مَنهَجَ هَذَا الدِّينِ لَبساً مُضَلِّلاً، ويُحَمِّلُونَ النُّصوصَ ما لا تَحتَمِلُهُ مِنَ الْمَبَادِئِ والقَوَاعِدِ النِّهَائِيَّةِ (٣)؛ فَيَجنُونَ عَلَى الإِسلَامِ وأَهلِهِ، ويَضِلُّ سَعيُهُم في إِقَامَةِ الدِّينِ، وهُم يَحسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنُونَ صُنعاً .

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في أَهمِّيَّةِ التَّدَرُّجِ والْمَرحَلِيَّةِ في إِقَامَةِ الدِّينِ : فَالْعَالِمُ تَارَةً يَأْمُرُ، وَتَارَةً يَنْهَى، وَتَارَةً يُبِيحُ، وَتَارَةً يَسْكُتُ عَنِ الأَمْرِ أَوِ النَّهْيِ أَوِ الإِبَاحَةِ، .. فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمَأْمُورُ وَالْمَنهِيُّ لا يَتَقَيَّدُ بِالْمُمْكِنِ : إِمَّا لِجَهْلِهِ، وَإِمَّا لِظُلْمِهِ، وَلا يُمْكِنُ إِزَالَةُ جَهْلِهِ وَظُلْمِهِ،

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٤٢/٢-٤٣) .

(٢) «تكملة فتح الملهم» للعلامة محمد تقي العثماني (٤/٣ - ١١).

(٣) « في ظلال القرآن» (٨٦٨/٢ - ٨٧٠) باختصار.

فَرُبَّمَا كَانَ الأَصْلَحُ الْكَفَّ وَالإِمْسَاكَ عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، كَمَا قِيلَ : **إِنَّ مِنْ الْمَسَائِلِ مَسَائِلَ جَوَابُهَا السُّكُوتُ**؛ كَمَا سَكَتَ الشَّارِعُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ عَنِ الأَمْرِ بِأَشْيَاءَ وَالنَّهْيِ عَنْ أَشْيَاءَ حَتَّى عَلا الإِسْلامُ وَظَهَرَ، فَالْعَالِمُ فِي الْبَيَانِ وَالْبَلاغِ كَذَلِكَ، قَدْ يُؤَخِّرُ الْبَيَانَ وَالْبَلاغَ لأَشْيَاءَ إلى وَقْتِ التَّمَكُّنِ .. فَإِذَا حَصَلَ مَنْ يَقُومُ بالدِّينِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوِ الأُمَرَاءِ أَوْ مَجْمُوعِهِمَا، كَانَ بَيَانُهُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ شَيْئًا فَشَيْئًا بِمَنْزِلَةِ بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا بُعِثَ بِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لا يُبَلِّغُ إلاَّ مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، وَلَمْ تَأْتِ الشَّرِيعَةُ جُمْلَةً، كَمَا يُقَالُ : «**إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُطَاعَ فَأْمُرْ بِمَا يُسْتَطَاعُ**»، فَكَذَلِكَ الْمُجَدِّدُ لِدِينِهِ وَالْمُحْيِي لِسُنَّتِهِ، لا يُبَلِّغُ إلاَّ مَا أَمْكَنَ عِلْمُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ، كَمَا أَنَّ الدَّاخِلَ فِي الإِسْلامِ لا يُمْكِنُ حِينَ دُخُولِهِ أَنْ يُلَقَّنَ جَمِيعَ شَرَائِعِهِ وَيُؤْمَرَ بِهَا كُلِّهَا. وَكَذَلِكَ التَّائِبُ مِنْ الذُّنُوبِ وَالْمُتَعَلِّمُ وَالْمُسْتَرْشِدُ لا يُمْكِنُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ أَنْ يُؤْمَرَ بِجَمِيعِ الدِّينِ وَيُذْكَرَ لَهُ جَمِيعُ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ لا يُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِذَا لَمْ يُطِقْهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا لَمْ يَكُنْ لِلْعَالِمِ وَالأَمِيرِ أَنْ يُوجِبَهُ جَمِيعَهُ ابْتِدَاءً، بَلْ يَعْفُو عَنِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِمَا لا يُمْكِنُ عِلْمُهُ وَعَمَلُهُ إلى وَقْتِ الإِمْكَانِ، كَمَا عَفَا الرَّسُولُ ﷺ عَمَّا عَفَا عَنهُ إلى وَقْتِ بَيَانِهِ، وَلا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ إِقْرَارِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الأَمْرِ بِالْوَاجِبَاتِ، لأَنَّ الْوُجُوبَ وَالتَّحْرِيمَ مَشْرُوطٌ بِإِمْكَانِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَقَدْ فَرَضْنَا انتِفَاءَ هَذَا الشَّرْطِ؛ فَتَدَبَّرْ هَذَا الأَصْلَ فَإِنَّهُ نَافِعٌ [(١)] .

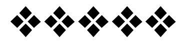
وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ أيضاً : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسمَعُ مِنَ الكُفَّارِ والْمُنَافِقِينَ في أَوَّلِ الإِسلَامِ أَذَىً كَثِيراً، وَكَانَ يَصبِرُ عَلَيهِ امتِثَالاً لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ** ﴾[الأحزاب: ٤٨]، لِأَنَّ إِقَامَةَ الحُدُودِ عَلَيهِم كَانَ يُفضِي إلى فِتنَةٍ عَظِيمَةٍ، ومَفسَدَةٍ أَعظَمَ مِن مَفسَدَةِ الصَّبرِ عَلَى كَلِمَاتِهِم؛ فَلَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ، ودَخَلَ النَّاسُ في دِينِ اللهِ أَفوَاجاً، وأَنزَلَ اللهُ بَرَاءَةَ، قَالَ فِيهَا : ﴿ **جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة:٧٣].. فَلَمَّا رَأَى مَن بَقِيَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَا صَارَ الأَمرُ إِلَيهِ مِن عِزِّ الإِسلَامِ، وقِيَامِ الرَّسُولِ ﷺ بِجِهَادِ الكُفَّارِ والْمُنَافِقِينَ، أَضمَرُوا النِّفَاقَ، فَلَم يَكُن يَسمَعُ مِن أَحَدٍ مِنَ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/٣٥- ٣٦) .

الْمُنَافِقِينَ بَعدَ غَزوَةِ تَبُوكَ كَلِمَةَ سُوءٍ، ومَاتُوا بِغَيظِهِم .. فَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحتَمِلُ مِنَ الكُفَّارِ والْمُنَافِقِينَ قَبلَ بَرَاءَةَ مَا لَم يَكُن يَحتَمِلُ مِنهُم بَعدَ ذَلِكَ؛ كَمَا قَد كَانَ يَحتَمِلُ مِن أَذَى الكُفَّارِ وهُوَ بِمَكَّةَ، مَا لَم يَكُن يَحتَمِلُ بِدَارِ الهِجرَةِ والنُّصرَةِ (١) .

فَلَا بُدَّ لِلتَّعَامُلِ مَعَ كِتَابِ اللهِ ﷻ وفَهمِهِ وفِقهِهِ، وإِدرَاكِ مَرَامِيهِ وأَهدَافِهِ، مِن استِصحَابِ الأَحوَالِ والْمُلَابَسَاتِ والظُّرُوفِ والحَاجَاتِ والْمُقتَضَيَاتِ الوَاقِعِيَّةِ العَمَلِيَّةِ، الَّتِي صَاحَبَتْ نُزُولَ النَّصِّ القُرآنِيِّ؛ لَا بُدَّ مِنْ هَذَا لِإِدرَاكِ وِجهَةِ النَّصِّ وأَبعَادِ مَدلُولَاتِهِ، ولِرُؤيَةِ حَيَوِيَّتِهِ وهُوَ يَعمَلُ فِي وَسَطٍ حَيٍّ، ويُوَاجِهُ حَالَةً وَاقِعَةً، كَمَا يُوَاجِهُ أَحيَاءً يَتَحَرَّكُونَ مَعَهُ، أَو ضِدَّهُ؛ وهَذِهِ الرُّؤيَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِفِقهِ أَحكَامِهِ وتَذَوُّقِهَا، كَمَا هِيَ ضَرُورِيَّةٌ لِلِانتِفَاعِ بِتَوجِيهَاتِهِ كُلَّمَا تَكَرَّرَتْ تِلكَ الظُّرُوفُ والْمُلَابَسَاتُ فِي فَترَةٍ تَارِيخِيَّةٍ تَالِيَةٍ، وعَلَى الأَخَصِّ فِيمَا يُوَاجِهُنَا اليَومَ، ونَحنُ نَستَأْنِفُ الدَّعوَةَ الإِسلَامِيَّةَ.

نَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، ونَحنُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَن يَرَى هَذِهِ الرُّؤيَةَ اليَومَ إِلَّا الَّذِينَ يَتَحَرَّكُونَ فِعلاً بِهَذَا الدِّينِ، فِي مُوَاجَهَةِ الجَاهِلِيَّةِ الحَاضِرَةِ، ومِنْ ثَمَّ يُوَاجِهُونَ أَحوَالاً ومُلَابَسَاتٍ وظُرُوفاً وأَحدَاثاً كَالَّتِي كَانَ يُوَاجِهُهَا صَاحِبُ الدَّعوَةِ الأُولَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والعُصبَةُ الْمُسلِمَةُ مِعَهُ، مِنَ الإِعرَاضِ، والتَّوَلِّي عَنْ هَذَا الدِّينِ فِي حَقِيقَتِهِ الكَبِيرَةِ الشَّامِلَةِ؛ .. فَالقُرآنُ لَا يَكشِفُ عَنْ أَسرَارِهِ إِلَّا لِلَّذِينَ يَخُوضُونَ بِهِ الْمَعرَكَةِ، ويُجَاهِدُونَ بِهِ جِهَادًا كَبِيراً؛ إِنَّ هَؤُلَاءِ وَحدَهُم هُمُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي مِثلِ الجَوِّ الَّذِي تَنَزَّلَ فِيهِ القُرآنُ، ومِنْ ثَمَّ يَتَذَوَّقُونَهُ ويُدرِكُونَهُ؛ لِأَنَّهُم يَجِدُونَ أَنفُسَهُم مُخَاطَبِينَ خِطَاباً مُبَاشِراً بِهِ، كَمَا خُوطِبَتْ بِهِ الجَمَاعَةُ الْمُسلِمَةُ الأُولَى، فَتَذَوَّقَتهُ، وأَدرَكَتْهُ، وتَحَرَّكَتْ بِهِ (٢) .



(١) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ص (٢٢٤) .

(٢) «في ظلال القرآن» (١٨٩٤/٤) و(٢١٢٢/٤) بتصرف يسير واختصار .

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ :

بَيَانُ مَفهُومِ النُّصرَةِ الْمَطلُوبَةِ لِلدِّينِ، والنَّصرِ الْمَوعُودِ عَلَيهَا، وأَسبَابِ انتِصَارِ هَذهِ الأُمَّةِ على أَعدَاءِهَا :

لَقَد جَاءَ الأَمرُ بِنُصرَةِ اللهِ ونُصرَةِ دِينِهِ في القُرآنِ الكَرِيمِ في عِدَّةِ مَوَاضِعَ، إمَّا بِصِيغَةِ الأَمرِ الْمُبَاشِرِ، وإمَّا عَلَى سَبِيلِ التَّرغِيبِ فِيهَا، بِذِكرِ فَضَائِلِهَا، ومَوعُودِ اللهِ عَلَيهَا؛ فَمِنْ ذَلِكَ :

(١) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ** ﴾ [الصف: ١٤] .

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ : يَقُولُ اللهُ ﷻ آمِراً عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَنصَارَ اللهِ – أَيْ أَنْصَارَ دِينِهِ بِالدَّعوَةِ إِلَيهِ – في جَمِيعِ أَحْوَالِهِم بِأَقوَالِهِم وأَفعَالِهِم وأَنفُسِهِم وأَمْوَالِهِم، وَأَنْ يَستَجِيبُوا للهِ ولِرَسُولِهِ كَمَا اسْتَجَابَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ : ﴿ **مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ أَيْ : مَنْ مُعِينِي فِي الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ ﷻ ؟ قَالَ الحَوَارِيُّونَ – وهُمْ أَتبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ – ﴿ **نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ** ﴾، أَيْ نَحنُ أَنصَارُكَ عَلَى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ وَمُؤَازِرُوكَ عَلَى ذَلِكَ؛ ولِهَذَا بَعَثَهُم دُعَاةً إِلَى النَّاسِ فِي بِلادِ الشَّامِ فِي الإِسرَائِيلِيِّينَ واليُونَانِيِّينَ، وهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ – أَيْ فِي مَكَّةَ – حِينَمَا كَانَ يَتَجَوَّلُ عَلَى القَبَائِلِ يَدعُوهُم إِلَى اللهِ :" **مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي** "، حَتَّى قَيَّضَ لَهُ الأَوسَ وَالْخَزْرَجَ مِنْ أَهلِ الْمَدِينَةِ، فَبَايَعُوهُ، وآزَرُوهُ، وشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الأَسوَدِ والأَحْمَرِ وَالأُمَمِ، إنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِم بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَوَفَّوا بِمَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ، لِهَذَا سَمَّاهُمُ اللهُ ورَسُولُهُ الأَنصَارَ، وصَارَ ذَلِكَ عَلَماً عَلَيهِم، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جَمِيعاً وأَرضَاهُم [(١)] .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣٥٣/٥) .

وقَالَ العَلَّامَةُ جَمَالُ الدِّينِ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: أَنصَارَ الحَقِّ الَّذِي أَنزَلَهُ وأَمَرَ بِهِ، ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ أَيْ : مَنْ مَعِي وجُندِي مُتَوَجِّهاً إلى نُصرَةِ اللهِ، ﴿ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ أَيْ : نَنصُرُ دِينَهُ، ومَا أَمَرَ بِهِ، ونَدعُو إِلَيهِ، ونُضَحِّي لِأَجلِهِ حَيَاتَنَا، ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونَهَضَتْ تَدعُو إلى مَا بُعِثَ بِهِ، وتَنشُرُ دَعوَتَهُ، ﴿ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ ﴾ أَيْ: بِرِسَالَتِهِ والحَقِّ الَّذِي مَعَهُ، ﴿ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ أَيْ : غَالِبِينَ عَلَيهِم بِالبَرَاهِينِ الوَاضِحَةِ، والحُجَجِ الظَّاهِرَةِ، والسُّلطَةِ القَاهِرَةِ؛ وفِيهِ بِشَارَةٌ لِلمُؤمِنِينَ بِالتَّأييدِ الرَّبَّانِيِّ لَهُم، مَا دَامُوا مُتَنَاصِرِينَ عَلَى الحَقِّ، مُجتَمِعِينَ عَلَيهِ، غَيرَ مُتَفَرِّقِينَ عَنهُ ولا مُتَخَاذِلِينَ، كَمَا وَقَعَ لِسَلَفِهِم؛ اتَّفَقُوا فَمَلَكُوا، وإِلَّا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا هَلَكُوا [1] .

وقَالَ البِقَاعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ أَيْ : عَالِينَ غَالِبِينَ، قَاهِرِينَ في أَقوَالِهِم وأَفعَالِهِم، لا يَخَافُونَ أَحداً إِلَّا اللهَ، ولا يَستَخفُونَ مِنهُ، فَالتَّأييدُ تَارَةً يَكُونُ بِالعِلمِ، وتَارَةً بِالفِعلِ ..؛ وتَأييدُ الْمُؤمِنِينَ بِهِ كَانَ بَعدَ رَفعِهِ بِيَسِيرٍ، حِينَ ظَهَرَ الحَوَارِيُّونَ، وانبَثُّوا في البِلَادِ، يَدعُونَ إلى اللهِ بِمَا آتَاهُم مِنَ الآيَاتِ، فَاتَّبَعَهُمُ النَّاسُ .. [2] .

وقَالَ الطَّاهِرُ ابنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ الدِّينِ، وَهُوَ نَصْرٌ غَيْرُ النَّصْرِ الَّذِي بِالْجِهَادِ، لِأَنَّ ذَلِكَ تَقَدَّمَ التَّحْرِيضُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ﴾. وَوَعْدُهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ يَنْصُرَهُمُ اللَّهُ، فَهَذَا النَّصْرُ الْمَأْمُورُ بِهِ هُنَا نَصْرُ دِينِ اللَّهِ الَّذِي آمَنُوا بِهِ، بِأَنْ : **يَبُثُّوهُ** – أَيْ : يَنشُرُوهُ – وَيَثْبُتُوا عَلَى الْأَخْذِ بِهِ، دُونَ اكْتِرَاثٍ بِمَا يُلَاقُونَهُ مِنْ أَذًى مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي شَبَّهَ بِنَصْرِ الْحَوَارِيِّينَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ عِيسَى لَمْ يُجَاهِدْ مَنْ عَانَدُوهُ، وَلَا كَانَ الْحَوَارِيُّونَ مِمَّنْ جَاهَدُوا، وَلَكِنَّهُ صَبَرَ وَصَبَرُوا، حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَانْتَشَرَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ دَبَّ إِلَيْهِ

---

(١) «محاسن التأويل» (٢٢٦/٩) .

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٤٣/٢٠) .

التَّغْيِيرُ حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ، فَنَسَخَهُ مِنْ أَصْلِهِ. وَالْأَنْصَارُ : جَمْعُ نَصِيرٍ، وَهُوَ النَّاصِرُ الشَّدِيدُ النَّصْرِ.

وَقَوْلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ اسْتِفْهَامٌ، لِاخْتِبَارِ انْتِدَابِهِمْ إِلَى نَصْرِ دِينِ اللَّهِ مَعَهُ؛ .. أَيْ : مُتَوَجِّهِينَ إِلَى اللَّهِ، شُبِّهَ دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ، وَتَعْلِيمُهُمُ النَّاسَ مَا يَرْضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ بِسَعْيِ سَاعِينَ إِلَى اللَّهِ لِيَنْصُرُوهُ، كَمَا يَسْعَى الْمُسْتَنْجَدُ بِهِمْ إِلَى مَكَانِ مُسْتَنْجِدِهِمْ لِيَنْصُرُوهُ عَلَى مَنْ غَلَبَهُ .. [(١)].

وقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، كُونُوا أَنصَارَ اللهِ ودُعَاةَ دِينِهِ، يَنصُرُكُمُ اللهُ كَمَا نَصَرَ مَنْ قَبلَكُم، ويُظهِرْكُم عَلَى عُدُوِّكُم؛ .. ومِنْ نَصرِ دِينِ اللهِ، تَعَلُّمُ كِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ، والحَثُّ عَلَى ذَلِكَ، والأَمرُ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيُ عَنِ الْمُنكرِ [(٢)].

وقَالَ القَصَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ : قَولُهُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾. حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ فِي وُجُوبِ الأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ، إِذْ لَا يَشُكُّ أَحَدٌ أَنَّ نَصرَ اللهِ إِنَّمَا هُوَ نَصرُ دِينِهِ، ولا يَكُونُ نَصرُهُ إِلَّا بِالْمَعُونَةِ عَلَى إِقَامَةِ أَمرِهِ ونَهيِهِ وعُلُوِّهِمَا، والأَخْذِ عَلَى يَدَي مَنْ يُرِيدُ ذُلَّهُ وإِهَانَتَهُ [(٣)].

(٢) وقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

قَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : نَحْنُ أَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ وَأَنْصَارُ أَنْبِيَائِهِ. أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ فَهَذَا يَجْرِي مَجْرَى ذِكْرِ الْعِلَّةِ، وَالْمَعْنَى يَجِبُ عَلَيْنَا

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٨/٢٠٠ - ٢٠٣) .
(٢) «تفسير السعدي» ص (٨٦٠) .
(٣) «النكت الدالَّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام» (٤/٢٩٤ - ٢٩٥) .

أَنْ نَكُونَ مِنْ أَنْصَارِ اللَّهِ، لِأَجْلِ أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يُوجِبُ نُصْرَةَ دِينِ اللَّهِ، وَالذَّبَّ عَنْ أَوْلِيَائِهِ، وَالْمُحَارَبَةَ مَعَ أَعْدَائِهِ [(١)] .

وقَالَ أَبُو حَيَّانَ الأَندَلُسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أَيْ : أَنْصَارُ دِينِهِ وَشَرْعِهِ، وَالدَّاعِي إِلَيْهِ [(٢)] .

وقَالَ مُحَمَّد رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللهُ : لَمَّا أَحسَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَوْمِهِ الْكُفْرَ ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ تَوَجَّهَ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ أَهْلِ الاِسْتِعْدَادِ الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُ فِي دَعْوَتِهِ، تَارِكِينَ لِأَجْلِهَا كُلَّ مَا يُشْغِلُ عَنْهَا، مُنْخَلِعِينَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ، مُتَحَيِّزِينَ وَمُنْزَوِينَ إِلَى اللهِ، مُنْصَرِفِينَ إِلَى تَأْيِيدِ رَسُولِهِ، وَنَصْرِهِ عَلَى خَاذِلِيهِ وَالْكَافِرِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ؛ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ أَنْصَارُ دِينِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ يُفِيدُ الاِنْخِلَاعَ وَالاِنْفِصَالَ مِنَ التَّقَالِيدِ السَّابِقَةِ، وَالْأَخْذَ بِالتَّعْلِيمِ الْجَدِيدِ، وَبَذْلَ مُنْتَهَى الاِسْتِطَاعَةِ فِي تَأْيِيدِهِ؛ فَإِنَّ نَصْرَ اللهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِذَلِكَ. وَالنَّصْرُ لَا يَسْتَلْزِمُ الْقِتَالَ، فَالْعَمَلُ بِالدِّينِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ نَصْرٌ لَهُ .. [(٣)] .

وقَالَ ابنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَطلبُ النَّصْرِ لِإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ للهِ، مَوْقِفٌ مِنْ مَوَاقِفِ الرُّسُلِ، .. وَقَدْ عَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ لِيَنْصُرُوهُ حَتَّى يُبَلِّغَ دَعْوَةَ رَبِّهِ. وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لَعَلَّهُ قَالَهُ فِي مَلَإٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِبْلَاغًا لِلدَّعْوَةِ، وَقَطْعًا لِلْمَعْذِرَةِ؛ وَالنَّصْرُ يَشْمَلُ إِعْلَانَ الدِّينِ وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ. وَالْمَعْنَى : مَنْ يَنصُرُنِي فِي حَالِ ذَهَابِي إِلَى اللَّهِ، أَيْ إِلَى تَبْلِيغِ شَرِيعَتِهِ [(٤)] .

---

(١) «التفسير الكبير» (٨/٢٣٤) .

(٢) «البحر المحيط» (٣/١٧٤) .

(٣) «تفسير المنار» (٣/٢٥٨) و«تفسير المراغي» (٣/١٦٧) .

(٤) «التحرير والتنوير» (٣/٢٥٣ – ٢٥٤) وانظر «روح المعاني» (٢/١٦٨ – ١٧٠) .

(٣) وقَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة : ٤٠].

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : هَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ أَصْحَابَ رَسُولِهِ ﷺ أَنَّهُ الْمُتَوَكِّلُ بِنَصْرِ رَسُولِهِ عَلَى أَعْدَاءِ دِينِهِ، وَإِظْهَارِهِ عَلَيْهِمْ دُونَهُمْ، أَعَانُوهُ أَوْ لَمْ يُعِينُوهُ، وَتَذْكِيرٌ مِنْهُ لَهُمْ فِعْلَ ذَلِكَ بِهِ، وَهُوَ مِنَ الْعَدَدِ فِي قِلَّةٍ وَالْعَدُوُّ فِي كَثْرَةٍ، فَكَيْفَ بِهِ وَهُوَ مِنَ الْعَدَدِ فِي كَثْرَةٍ وَالْعَدُوُّ فِي قِلَّةٍ ؟ يَقُولُ لَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : إِلَّا تَنْفِرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَعَ رَسُولِي إِذَا اسْتَنْفَرَكُمْ فَتَنْصُرُوهُ، فَاللَّهُ نَاصِرُهُ وَمُعِينُهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَمُغْنِيهِ عَنْكُمْ وَعَنْ مَعُونَتِكُمْ وَنُصْرَتِكُمْ، كَمَا نَصَرَهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ وَطَنِهِ وَدَارِهِ ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ .. [(١)] .

قُلتُ : ذَكَرَ هُنَا أَنَّ نُصرَةَ اللهِ لَهُ لَيسَت مَقصُورَةً عَلَى القِتَالِ، فَقَد نَصَرَهُ فِي رِحلَةِ الهِجرَةِ، ونَصَرَهُ وهُوَ يَدعُو قَومَهُ إِلَى اللهِ؛ وَكَذَلِكَ النُّصرَةُ الْمَطلُوبَةُ مِنَ الأُمَّةِ تُجَاهَ دِينِ اللهِ، لَيسَتْ مَقصُورَةً عَلَى القِتَالِ، بَلْ إِنَّ أَوَّلَ نُصرَةٍ طُلِبَتْ مِنَ الأُمَّةِ هِيَ النُّصرَةُ عَلَى الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه :" **مَنْ يُؤْوِينِي ؟ مَنْ يَنصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الجَنَّةُ** "[(٢)].

وقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَالْعُلَمَاءُ أَثْبَتُوا أَنَّهُ – يَعنِي أَبَا بَكرٍ الصِّدِّيقَ – رضي الله عنه كَانَ ثَانِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَكْثَرِ الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمَّا أُرْسِلَ إِلَى الْخَلْقِ، وَعَرَضَ الْإِسْلَامَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، آمَنَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ ذَهَبَ وَعَرَضَ الْإِسْلَامَ عَلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانَ وَجَمَاعَةٍ آخَرِينَ مِنْ أَجِلَةِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، وَالْكُلُّ آمَنُوا عَلَى يَدَيْهِ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلَائِلَ، فَكَانَ رضي الله عنه ثَانِيَ اثْنَيْنِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ .. [(٣)] .

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/٢٥٧) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٤٤٥٦) وغيره؛ وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) «التفسير الكبير» (١٦/٥٠).

(٤) وقَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧].

قَالَ القُشَيرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : نُصرَةُ اللهِ مِنَ العَبدِ : نُصرَةُ دِينِهِ بِإيضَاحِ الدَّلِيلِ وتَبيِينِهِ . ونُصرَةُ اللهِ لِلعَبدِ بِإعلَاءِ كَلِمَتِهِ، وقَمعِ أعدَاءِ الدِّينِ بِبَرَكَاتِ سَعيِهِ وهِمَّتِهِ. ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾، بِإدَامَةِ التَّوفِيقِ، لِئَلَّا يَنهَزِمَ مِنْ صَولَةِ أعدَاءِ الدِّينِ [١] .

وقَالَ البِقَاعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : يَتَجَدَّدْ لَكُم نِيَّةٌ مُستَمِرَّةٌ، وفِعلٌ دائِمٌ، عَلَى نُصرَةِ دِينِ الْمَلِكِ الأَعظَمِ، بِإيضَاحِ أَدِلَّتِهِ وتَبيِينِهَا، وتَوهِيَةِ شُبَهِ أَهلِ البَاطِلِ وقِتَالِهِم، ﴿ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ أَيْ : تَثبِيتاً عَظِيماً؛ بِأَنْ يَملأَ قُلُوبَكُم سَكِينَةً واطمِئنَاناً، وأَبدَانَكُم قُوَّةً وشَجَاعَةً فِي حَالِ القَتلِ، ووَقتَ البَحثِ والجِدَالِ، وعِندَ مُبَاشَرَةِ جَمِيعِ الأَعمَالِ[٢] .

وقَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : هَذَا أَمرٌ مِنهُ تَعَالَى لِلمُؤمِنِينَ، أَنْ يَنصُرُوا اللهَ بِالقِيَامِ بِدِينِهِ، والدَّعوَةِ إِلَيهِ، وجِهَادِ أَعدَائِهِ، والقَصدُ بِذَلِكَ وَجهُ اللهِ، فَإِنَّهُم إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، نَصَرَهُمُ اللهُ وثَبَّتَ أَقدَامَهُم [٣] .

قُلتُ : يَتَبَيَّنُ مِمَّا سَبَقَ مِنْ أَقوَالِ أَئِمَّةِ التَّفسِيرِ أَنَّ النُّصرَةَ لِلدِّينِ هِيَ بَذلُ الجُهدِ لإِقَامَةِ دِينِ اللهِ ونَشرِهِ فِي خَلقِهِ، والدِّفَاعِ والذَّبِّ عَنهُ بِشَتَّى الوَسَائِلِ؛ وهُوَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِالقِتَالِ أَوْ بِغَيرِهِ، ولَا يَستَلْزِمُ القِتَالَ؛ فالعَمَلُ بِالدِّينِ وَالدَّعوَةُ إِلَيهِ، والأَمرُ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيُ عَنِ الْمُنكَرِ، والنَّصِيحَةُ للهِ ورَسُولِهِ، كُلُّ ذَلِكَ نَصْرٌ لِلدِّينِ؛ فَمَعْنَى قَولِهِ ﷻ : ﴿ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ كُونُوا أَنصَارَ دِينِ اللهِ بِالدَّعوَةِ إلى اللهِ ﷻ وتَبلِيغِ رِسَالاتِهِ، وهَذَا يَتَطَلَّبُ أَنْ تَتَّخِذَ الأُمَّةُ نُصرَةَ دِينِ اللهِ وإِحْيَاءَهُ فِي النَّاسِ بِالدَّعوَةِ إِلَيهِ مَقصَداً لِحَيَاتِهِم، يُضَحُّونَ بِكُلِّ

---

(١) «لطائف الإشارات» (٣/٤٠٥) .

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (١٨/٢٠٩).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٨٥).

شَيْءٍ لأَجلِ تَحقِيقِ هَذَا الْمَقصَدِ العَظِيمِ، الَّذِي بَعَثَ اللهُ لأَجلِهِ النَّبِيِّينَ والْمُرسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَيَتَحَمَّلُونَ فِي سَبيلِ ذَلِكَ جَمِيعَ الْمَصَاعِبِ والْمَشَاقِّ، وبِذَلِكَ تَكُونُ نُصرَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وتَأْيِيْدُهُ مَعَهُم، ويَكُونُ الظُّهُورُ والغَلَبَةُ عَلَى الأَعدَاءِ نَصِيبَهُم، لأَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، أَيْ إِنْ تَنصُرُوا دِينَ اللهِ وسُنَّةَ رَسُولِهِ بِالدَّعوَةِ إِلَيهِمَا وَالدِّفَاعِ عَنهُمَا يَنْصُرْكُمْ، ويُمَكِّنْ لَكُم فِي الأَرضِ، وَيسْتَخْلِفْكُمْ فِيهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، فَكَمَا أَظهَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الحَوَارِيِّيْنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُم بِالْحُجَّةِ وَالبُرهَانِ، كَذَلِكَ يُظْهِرُكُم عَلَى مَنْ خَالَفَكُم؛ ورَحِمَ اللهُ ابنَ القَيِّمِ حَيثُ يَقُولُ:

هَذَا ونَصرُ الدِّينِ فَرضٌ لَازِمٌ ... لَا لِلكِفَايَةِ بَل عَلَى الأَعيَانِ

بِيَدٍ، وَإِمَّا بِاللِّسَانِ فَإِنْ عَجَزْ ... تَ، فَبِالتَّوَجُّهِ وَالدُّعَا بِجَنَانِ

مَا بَعدَ ذَا واللهِ لِلإِيمَانِ حَبَّـ ... ـةُ خَردَلٍ يَا نَاصِرَ الإِيمَانِ [(١)] .

أَسبَابُ انتِصَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى أَعدَائِهَا:

إِنَّ نُصْرَةَ هَذِهِ الأُمَّةِ وعِزَّتَهَا لَيْسَتْ مَرْبُوطَةً بِسَبَبٍ مِنَ الأَسْبَابِ الْمَادِّيَّةِ، ولَكِنَّهَا مَربُوطَةٌ بِقِيَامِهَا بِنُصرَةِ دِينِ رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ، بِتَبْلِيغِ رِسَالَته إِلى الخَلْقِ، مَعَ الصِّفَاتِ الَّتِيْ يُحِبُّهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَإِذَا أَرَادَتِ الأُمَّةُ أَنْ تَنَالَ نُصرَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وتَأْيِيدَهُ، فَعَلَيْهَا أَنْ تُحَقِّقَ شَرطَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ، مِنْ تَقْدِيْمِ مَحَبَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ومَحَبَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْجُهْدِ لإِحْيَاءِ مَحْبُوبَاتِهِ فِي أَرْضِهِ عَلَى جَمِيعِ مَحْبُوبَاتِهِمْ مِنَ: الآبَاءِ والأَبْنَاءِ والإِخْوَانِ والأَزْوَاجِ والْعَشِيرَةِ والأَمْوَالِ والْمَسَاكِنِ والْمَتَاجِرِ والوَظَائِفِ والأَوْطَانِ .

(١) «نونية ابن القيم» ص (٣٦٥).

فلَمَّا اتَّصَلَ الصَّحَابَةُ ﷺ باللهِ ﷻ وأَحَبُّوا مَا يُحِبُّ، وأَبْغَضُوا مَا يُبْغِضُ، وَوَالَوْا مَنْ يُوَالِيْهِ، وَعَادَوْا مَنْ يُعَادِيْهِ، وَرَضُوا لِرِضَاهُ، وغَضِبُوا لِغَضَبِهِ، وأَمَرُوْا بِمَا أَمَرَ بِهِ، ونَهَوْا عَمَّا نَهَى عَنهُ، ونَصَرُوا دِينَهُ، وَاجْتَهَدُوْا لِنَشْرِ مَحْبُوبَاتِهِ فِي خَلْقِهِ، عَامَلَهُمُ اللهُ ﷻ بِمِثْلِ مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ، فَصَارَ يَرْضَى لِرِضَاهُمْ، ويَغْضَبُ لِغَضَبِهِمْ، ويُوَالِي مَنْ وَالاهُمْ، ويُعَادِيْ مَنْ عَادَاهُمْ، وقَذَفَ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الْمَهَابَةَ وَالرُّعْب مِنْهُم، كَمَا قَالَ رُسْتُمُ : **أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِيْ** [1] .

وكَانَ أَعْدَاؤُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّهُمْ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعَتَادِهِمْ لا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِ الصَّحَابَةِ ﷺ، لأَنَّهُمْ مُتَّصِلُونَ بِمَصْدَرِ الْقُوَّةِ الَّتِي لا تُهْزَمُ، وَالْعِزَّةِ الَّتِي لا تُغْلَبُ، فَهَا هُوَ صَاحِبُ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ يَقُولُ لِعَمْرِو بْنِ العَاصِ ﷺ : **إِنَّ رَسُولَكُمْ قَدْ صَدَقَ، قَدْ جَاءَتْنَا رُسُلُنَا بِمِثْلِ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُكُمْ، فَكُنَّا عَلَيْهِ حَتَّى ظَهَرَ فِيْنَا مُلُوكٌ، فَجَعَلُوا يَعْمَلُونَ فِيْنَا بِأَهْوَائِهِمْ وَيَتْرُكُونَ أَمْرَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنْ أَنْتُمْ أَخَذْتُمْ بِأَمْرِ نَبِيِّكُمْ لَمْ يُقَاتِلْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبْتُمُوهُ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ظَهَرْتُمْ عَلَيْهِ، فَإِذَا فَعَلْتُمُ الَّذِي فَعَلْنَا، وَتَرَكْتُمْ أَمْرَ الأَنْبِيَاءِ، وَعَمِلْتُمْ مِثْلَ الَّذِي عَمِلُوا بِأَهْوَائِهِمْ، خُلِّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَلَمْ تَكُونُوا أَكْثَرَ مِنَّا عَدَداً، وَلا أَشَدَّ مِنَّا قُوَّةً** [2] .

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ : **كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا يَثْبُتُ لَهُمُ الْعَدُوُّ فُوَاقَ نَاقَةٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ هِرَقْلُ وهُوَ عَلَى أَنْطَاكْيَةَ لَمَّا قَدِمَتْ مُنهَزِمَةُ الرُّومِ: وَيْلَكُمْ! أَخْبِرُونِي عَنْ هَؤُلاءِ الْقَومِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، أَلَيْسُوا بَشَراً مِثْلَكُمْ ؟! قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَأَنتُمْ أَكْثَرُ أَمْ هُمْ ؟ قَالُوا : بَلْ نَحْنُ أَكْثَرُ مِنهُمْ أَضْعَافاً فِي كُلِّ مَوْطِنٍ، قَالَ : فَمَا**

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (٣/٤٥) .

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٥٦٤) قال الهيثمي: وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقيَّةُ رجاله ثقات. ورواه أبو يعلى في مسنده عن علقمة بن وقاص برقم (٧٣٥٣) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عمرو بن علقمة وهو ثقة .

بَالُكُمْ تَنْهَزِمُونَ ؟ فَقَالَ شَيخٌ مِنْ عُظَمَائِهِم : مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيَصُومُونَ النَّهَارَ، وَيُوفُونَ بِالْعَهْدِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنهَونَ عَنِ الْمُنكرِ، وَيَتَنَاصَفُونَ بَيْنَهُمْ[1].

وَوَصَفَ أَحَدُ نَصَارَى الْعَرَبِ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ أَمَامَ الْقُبُقْلارِ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ يوماً ولَيْلَةً فَقَالَ : **بِاللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَبِالنَّهَارِ فُرْسَانٌ، وَلَوْ سَرَقَ ابْنُ مَلِكِهِمْ قَطَعُوا يَدَهُ، وَلَوْ زَنَى رُجِمَ، لإِقَامَةِ الْحَقِّ فِيهِمْ** . فَقَالَ لَهُ الْقُبُقْلارُ : **لَئِنْ كُنتَ صَدَقْتَنِي لَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ لِقَاءِ هَؤُلاءِ عَلَى ظَهْرِهَا، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّيَ مِنَ اللهِ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَلا يَنْصُرَنِي عَلَيْهِمْ، وَلا يَنْصُرَهُمْ عَلَيَّ**[2]. وقَالَ هِرَقْلُ لِمَنْ وَصَفَ لَهُ الصَّحَابَةَ ﷺ، وَكَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِيهِمْ : **لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي لَيَرِثُنَّ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ**[3] .

وكَتَبَ مَلِكُ الصِّينِ إِلَى يَزْدَجَرْدَ مَلِكِ الْفُرسِ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَمِدُّهُ وَيَسْتَعِينُهُ عَلَى قِتَالِ الصَّحَابَةِ ﷺ ووَصَفَهُمْ لَهُ : **إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْكَ بِجَيْشٍ أَوَّلُهُ بِمَرْوَ[4] وَآخِرُهُ بِالصِّينِ الْجَهَالَةُ بِمَا يَحِقُّ عَلَيَّ، وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ وَصَفَ لِيْ رَسُولُكَ صِفَتَهُمْ لَوْ يُحَاوِلُونَ الْجِبَالَ لَهَدُّوهَا، وَلَوْ خُلِّيَ لَهُمْ سِرْبُهُمْ[5] أَزَالُونِي مَا دَامُوا عَلَى مَا وَصَفَ، فَسَالِمْهُمْ وَارْضَ مِنهُمْ بِالْمُسَاكَنَةِ، وَلا تُهِجْهُمْ مَا لَمْ يُهَيِّجُوكَ**[6] .

---

(١) أخرجه أحمد بن مروان المالكي في «المجالسة» عن أبي إسحاق (١٢٥٩) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» بنحوه (٢/٩٧) .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (٢/٦١٠) .

(٣) المصدر السابق (٣/٩٩) .

(٤) هي أشهر مدن خراسان وقصبتها وهي العظمى، بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً، والآن تابعة لروسيا.

(٥) يعني : لو وَجَدُوا طَرِيقاً إِلَيَّ .

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (٣/٢٤٩) .

وَلَمَّا جَاءَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى سَعْدٍ ﷺ بِمَا أَعَدَّهُ الفُرسُ لِقِتَالِهِم، كَتَبَ إِلَى عُمَرَ ﷺ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : **لَا يَكْرُبَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْمُنَاظَرَةِ وَالرَّأْيِ وَالْجَلَدِ يَدْعُونَهُم، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ دُعَاءَهُمْ تَوْهِينًا لَهُمْ.**

فَأَرْسَلَ سَعْدٌ نَفَرًا مِنْهُمْ إِلَى يَزْدَجِرْدَ دُعَاةً، فَخَرَجُوا مِنَ الْعَسْكَرِ فَقَدِمُوا عَلَى يَزْدَجِرْدَ، وَطَوَوْا رُسْتُمَ، وَاسْتَأْذَنُوا عَلَى يَزْدَجِرْدَ فَحُبِسُوا، وَأَحْضَرَ وُزَرَاءَهُ وَرُسْتُمَ مَعَهُمْ، وَاسْتَشَارَهُمْ فِيمَا يَصْنَعُ وَيَقُولُهُ لَهُمْ .. فَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنٍ : إِنَّ اللَّهَ رَحِمَنَا فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَأْمُرُنَا بِالْخَيْرِ وَيَنْهَانَا عَنِ الشَّرِّ، وَوَعَدَنَا عَلَى إِجَابَتِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَمْ يَدْعُ قَبِيلَةً إِلَّا وَقَارَبَهُ مِنْهَا فِرْقَةٌ وَتَبَاعَدَ عَنْهُ بِهَا فِرْقَةٌ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَنْبِذَ إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْعَرَبِ، فَبَدَأَ بِهِمْ، فَدَخَلُوا مَعَهُ عَلَى وَجْهَيْنِ: مُكْرَهٌ عَلَيْهِ فَاغْتَبَطَ، وَطَائِعٌ أَتَاهُ فَازْدَادَ، فَعَرَفْنَا جَمِيعًا فَضْلَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالضِّيقِ، ثُمَّ أَمَرَنَا أَنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يَلِينَا مِنَ الْأُمَمِ فَنَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِنْصَافِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى دِينِنَا، وَهُوَ دِينٌ حَسَّنَ الْحَسَنَ وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَمْرٌ مِنَ الشَّرِّ هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخَرَ شَرٌّ مِنْهُ : الْجِزْيَةُ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْمُنَاجَزَةُ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ إِلَى دِينِنَا خَلَّفْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَأَقَمْنَا عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ، وَنَرْجِعُ عَنْكُمْ وَشَأْنُكُمْ وَبِلَادَكُمْ، وَإِنْ بَذَلْتُمُ الْجَزَاءَ قَبِلْنَا وَمَنَعْنَاكُمْ، وَإِلَّا قَاتَلْنَاكُمْ ..

ثُمَّ إِنَّهُم طَلَبُوا مِنهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِم رَجُلًا يكَلِّمُونهُ وَيُكَلِّمُهم .. فَبَعَثَ إِلَيهِم بِرِبعِيِّ بنِ عَامِرٍ؛ .. فَقَالَ لَهُ تُرْجُمَانُ رُسْتُمَ، وَاسْمُهُ عَبُودٌ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ : مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ قَالَ : **اللَّهُ جَاءَ بِنَا، وَهُوَ بَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ، فَمَنْ قَبِلَهُ قَبِلْنَا مِنْهُ، وَرَجَعْنَا عَنْهُ وَتَرَكْنَاهُ وَأَرْضَهُ دُونَنَا، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى الْجَنَّةِ أَوِ الظَّفَرِ ..** [1] .

---

(١) «الكامل في التاريخ لابن الأثير» (٢٩٢/٢) وما بعدها .

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَولُهُ تَعَالَى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾، تَحْرِيضٌ عَلَى الْقِتَالِ وَاسْتِشْعَارٌ لِلصَّبْرِ وَاقْتِدَاءٌ بِمَنْ صَدَّقَ رَبَّهُ. قُلْتُ : هَكَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ لَكِنِ الْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ وَالنِّيَّاتُ الْفَاسِدَةُ مَنَعَتْ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَنْكَسِرَ الْعَدَدُ الْكَبِيرُ مِنَّا قُدَّامَ الْيَسِيرِ مِنَ الْعَدُوِّ، كَمَا شَاهَدْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَذَلِكَ بما كَسَبَت أَيدِينا ! وفِي البُخَارِيِّ : وقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : **إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ** [(١)]. وَفِيهِ مُسْنَدٌ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :" **هَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**"[(٢)]. فَالْأَعْمَالُ فَاسِدَةٌ، وَالضُّعَفَاءُ مُهْمَلُونَ، وَالصَّبْرُ قَلِيلٌ، وَالِاعْتِمَادُ ضَعِيفٌ، وَالتَّقْوَى زَائِلَةٌ !. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا** ﴾ وَقَالَ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ وَقَالَ : ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ** ﴾؛ فَهَذِهِ أَسْبَابُ النَّصْرِ وَشُرُوطُهُ، وَهِيَ مَعْدُومَةٌ عِنْدَنَا غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِينَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَلَى مَا أَصَابَنَا وَحَلَّ بِنَا ! بَلْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا ذِكْرُهُ، وَلَا مِنَ الدِّينِ إِلَّا رَسْمُهُ، لِظُهُورِ الْفَسَادِ، وَلِكَثْرَةِ الطُّغْيَانِ، وَقِلَّةِ الرَّشَادِ حَتَّى اسْتَوْلَى الْعَدُوُّ شَرْقًا وَغَرْبًا، بَرًّا وَبَحْرًا، وَعَمَّتِ الْفِتَنُ، وَعَظُمَتِ الْمِحَنُ، وَلَا عَاصِمَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ! [(٣)].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٢٠) فقال : بابٌ : عملٌ صالحٌ قبل القتال؛ وقال أبو الدرداء : فذكره . وفي الزهد لأبي داوود (٢٥٢) عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ، كَانَ بَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيِ الْغَزْوِ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ**.

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٦) .

(٣) «تفسير القرطبي» (٣/٢٥٥) .

الْمَبحَثُ الخَامِسُ:

بَيَانُ حَقِيقَةِ الفَتحِ الَّذِي بَشَّرَ اللهُ ﷻ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وأَنَّهُ فَتحُ قُلُوبِ العِبَادِ لِقَبُولِ الإِسلامِ، ودُخُولُهُم فِيهِ:

إِنَّ الْفَتْحَ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي يَفْرَحُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ، ويَخْسَأُ الْكَافِرُونَ، هُوَ فَتْحُ قُلُوبِ الْعِبَادِ لِمَا يُحِبُّهُ اللهُ ﷻ ويَرْضَاهُ؛ فَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيْقُ ﷛ يَقُولُ: **مَا كَانَ فَتْحٌ أَعْظَمَ فِي الإِسْلامِ مِنْ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَوْمَئِذٍ قَصُرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبِّهِ ﷻ، وَالْعِبَادُ يَعْجَلُونَ، وَاللهُ لا يَعْجَلُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتَّى تَبْلُغَ الأُمُورُ مَا أَرَادَ، لَقَدْ نَظَرْتُ إِلى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَائِماً عِنْدَ الْمَنْحَرِ يُقَرِّبُ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ هَدْيَهُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْحَرُهَا بِيَدِهِ، وَدَعَا الْحَلاَّقَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَنْظُرُ إِلى سُهَيْلٍ يَلْقُطُ مِنْ شَعَرِهِ، وَأَرَاهُ يَضَعُهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَأَذْكُرُ إِبَاءَهُ أَنْ يُقِرَّ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَيَأْبَى أَنْ يَكْتُبَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَحَمِدْتُ اللهَ الَّذِي هَدَاهُ لِلإِسْلامِ، وَصَلَوَاتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الَّذِي هَدَانَا وَأَنْقَذَنَا مِنَ التَّهْلُكَةِ**[1].

وعَنْ أَبِيْ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ الحَمْرَاءِ الخُزَاعِيِّ قَالَ: نَظَرْتُ إِلى سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَوْمَ جَاءَ نَعْيُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلى مَكَّةَ، وَقَدْ تَقَلَّدَ السَّيْفَ ثُمَّ قَامَ خَطِيباً بِخُطْبَةِ أَبِي بَكْرٍ فِي الْمَدِينَةِ، كَأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُهَا، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، وَقَدْ نَعَى اللهُ نَبِيَّكُمْ إِلَيْكُمْ، وَهُوَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَنَعَاكُمْ إِلى أَنْفُسِكُمْ، فَهُوَ الْمَوْتُ حَتَّى لا يَبْقَى أَحَدٌ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ [الزمر: ٣٠]، وقَالَ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقَالَ: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ**

---

(١) أخرجه ابن عساكر عن الواقدي كما في «كنز العمال» (٣١٣٦)، وانظر «مختصر تاريخ دمشق» (١٤٢٧/١).

ٱلْمَوْتِ ﴾[آل عمران: ١٨٥]، ثُمَّ تَلا : ﴿**كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ**﴾[القصص: ٨٨]، فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْتَصِمُوا بِدِينِكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّكُمْ، فَإِنَّ دِينَ اللهِ قَائِمٌ، وَكَلِمَةَ اللهِ تَامَّةٌ، وَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ مَنْ نَصَرَهُ وَمُعِزٌّ دِينَهُ، وَقَدْ جَمَعَكُمُ اللهُ عَلَى خَيْرِكُمْ. فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ كَلامُ سُهَيْلٍ بِمَكَّةَ، قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، هَذَا هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي عَنَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ قَالَ :" **لَعَلَّهُ يَقُومُ مَقَاماً لا تَكْرَهُهُ** " (١) .

وقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه في قَولِهِ تعالى : ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، قَالَ : **الْفَتْحُ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ** (٢)؛ وقَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : **لَمْ يَكُنْ فِي الإِسْلامِ فَتْحٌ قَبْلَ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَةِ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الكُفْرُ حَيْثُ الْقِتَالُ، فَلَمَّا أَمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، كَلَّمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيْثِ وَالْمُنَازَعَةِ، وَلَمَ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بالإِسْلامِ يَعْقِلُ إِلاَّ بَادَرَ إِلى الدُّخُولِ فِيهِ، فَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكَ السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ دَخَلَ فِي الإِسْلامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ** (3) . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ رَحِمَهُ اللهُ : يَدُلُّ عَلَيهِ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ في الْحُدَيْبِيَةِ في أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ إِلى مَكَّةَ في عَشْرَةِ آلافٍ (٤) .

وقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ في هَذَا الصُّلْحِ : وَكَانَ فِي الصُّورَة الظَّاهِرَة ضَيْمًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَفِي الصُّورَةِ الْبَاطِنَةِ عِزًّا لَهُمْ، فَإِنَّ النَّاس لأَجْلِ الأَمْن الَّذِي وَقَعَ بَيْنهمُ اخْتَلَطَ بَعْضُهمْ بِبَعْضٍ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ، وَأَسْمَعَ الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ الْقُرْآنَ، وَنَاظَرُوهُمْ عَلَى الإِسْلام جَهْرَةً آمِنِينَ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ لا يَتَكَلَّمُونَ عِنْدَهُمْ بِذَلِكَ إِلاَّ خُفْيَةً، وَظَهَرَ مَنْ كَانَ يُخْفِي إِسْلامَهُ، فَذَلَّ الْمُشْرِكُونَ مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا الْعِزَّةَ، وَأُقْهِرُوا مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا الْغَلَبَةَ (٥) .

---

(١) أخرجه الواقدي في مغازيه (١٠٧/١) وانظر «مختصر تاريخ دمشق» (١٤٢٧/١) .

(٢) رواه البخاري برقم (٤٨٣٤) .

(٣) رواه البيهقي في سننه (١٨٥٩٣) وذكره في «معرفة السنن والآثار» (١٤٦/٧) وانظر «فتح الباري» (٥٥٠/١) و«سيرة ابن هشام» (٢٠٦/٣-٢٠٧) .

(٤) «سيرة ابن هشام» (٢٠٦/٣-٢٠٧) وانظر « فتح الباري» (٥٥٠/٧) .

(٥) «فتح الباري» (٤٢٧/٥) .

وقَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللهُ : فَإِسْلَامُ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَ بِتَأْثِيرِ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ، وَهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ وَجِهَادِهِ بِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ ، وَقَالَ لِنَبِيِّهِ : ﴿ **وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ وَقَدْ كَانَ كُلُّ مَا كَانَ مِنِ اضْطِهَادِ رُؤَسَاءِ قَوْمِهِ الْمُعَانِدِينَ لَهُ ﷺ لِأَجْلِ صَدِّهِ عَنْ تَبْلِيغِ الْقُرْآنِ لِلْعَرَبِ، لِجَزْمِهِمْ بِمَا يَكُونُ مِنْ جَذْبِهِمْ بِهِ إِلَى اتِّبَاعِهِ، كَمَا قَالَ لَهُمْ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِتَبْلِيغِهِمُ الدَّعْوَةَ : خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ الْعَرَبُ عَلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ ﷺ يَطْلُبُ مِنْهُمْ، ثُمَّ مِنْ كُلِّ مَنْ كَانَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَوْسِمِ إِلَّا حِمَايَتَهُ لِيُبَلِّغَ دَعْوَةَ رَبِّهِ، وَلَمَّا أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ سِرًّا، وَنَشَرُوا الدَّعْوَةَ فِي عَاصِمَتِهِمْ يَثْرِبَ، وَصَارَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَحْمُونَهُ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ؛ فَمَا زَالَتْ قُرَيْشٌ تُقَاتِلُهُ إِلَى أَنْ رَضِيَ مِنْهُمْ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ قُوَّتِهِ أَنْ يُصَالِحَهُمْ فِي الْحُدَيْبِيَةِ، بِالشُّرُوطِ الَّتِي يَرْضَوْنَهَا - مَعَ كَرَاهَةِ أَصْحَابِهِ كُلِّهِمْ لَهَا -، فِي مُقَابَلَةِ الشَّرْطِ الْوَحِيدِ الَّذِي كَانَ هُوَ أَهَمَّ الْمُهِمَّاتِ عِنْدَهُ ﷺ ، وَهُوَ حُرِّيَّةُ الِاخْتِلَاطِ وَالِاجْتِمَاعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّ سَمَاعَهُمْ لِلْقُرْآنِ - وَلَاسِيَّمَا مِنْهُ - كَافٍ لِإِسْلَامِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ كَانَ.

وَكَذَلِكَ مَا فَعَلَ خُلَفَاؤُهُ وَأَصْحَابُهُ الْهَادُونَ الْمَهْدِيُّونَ مِنَ الْعَجَائِبِ فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ وَفَتْحِ الْأَقْطَارِ، وَثَلِّ عُرُوشِ أَعْظَمِ دُوَلِ الْأَرْضِ قُوَّةً وَعَظَمَةً وَنِظَامًا وَتَشْرِيعًا وَحَضَارَةً، وَتَبْدِيلِ مَمَالِكِهِمْ وَشُعُوبِهَا بِذَلِكَ كُلِّهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، مَا فَعَلُوا ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا بِتَأْثِيرِ دعوة الْقُرْآنِ؛ وَأَمَّا انْتِشَارُ الْإِسْلَامِ فِي الْأَعَاجِمِ فَقَدْ كَانَ بِتَبْلِيغِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ مَنْ تَبِعَهُمْ، فِي هَدْيِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ فَالْعَجَمِ لِلدَّعْوَةِ [١] .



---

(١) «تفسير المنار» (٩/٢٩٢) باختصار يسير.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

لَقَد تَقَدَّمَ مَعَنَا أَنَّ «سَبيلَ اللهِ» عَلَى الحَقِيقَةِ : هِيَ دِينُ اللهِ وشَرعُهُ الْمُوصِلُ إِلَيهِ؛ ويَتَفَرَّعُ عَنهَا سُبُلٌ كَثِيرَةٌ تَابِعَةٌ لَهَا؛ وكُلُّ هَذِهِ السُّبُلِ يَصِحُّ أَنْ يُطلَقَ عَلَيهَا أَنَّهَا «سَبِيلُ اللهِ»، بِاعتِبَارِ أَنَّ اللهَ شَرَعَهَا وأَمَرَ بِهَا .

كَمَا أَنَّ هَذَا الْمُصطَلَحَ «سَبِيل اللهِ» يُطلَقُ أَيضاً عَلَى مَفهُومٍ خَاصٍّ، وهُوَ الجُهدُ والجِهَادُ فِي سَبِيلِ دَعوَةِ النَّاسِ إلى اللهِ ﷻ وإلى سَبِيلِهِ؛ وأَنَّهُ قَد غَلَبَ استِعمَالُ هَذَا الْمُصطَلَحِ عَلَى هَذِهِ السَّبِيلِ، حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ مَقصُورٌ عَلَيهَا؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُ السَّبِيلُ الأَهَمُّ، إِذْ بِهِ تَقُومُ بَاقِي السُّبُلِ وتَحيَا، وبِتَركِهِ تَضِيعُ بَاقِي السُّبُلِ وتَمُوتُ؛ وأَنَّ قَصرَ مُصطَلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» عَلَى القِتَالِ أَمرٌ غَيرُ مُستَقِيمٍ، ونَهجٌ غَيرُ قَوِيمٍ، لِمَا مَرَّ بَيَانُهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ .

وحَتَّى يَكُونَ هَذَا الأَمرُ وَاضِحاً جَلِيّاً لَا لَبسَ فِيهِ ولَا شُبهَةَ، لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ أَقوَالِ أَئِمَّةِ العِلمِ والهُدَى فِي هَذَا، مِمَّن اختَارَهُمُ اللهُ ﷻ لِحِفظِ دِينِهِ وفِهمِهِ ونَقلِهِ، مِنَ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ، والأَئِمَّةِ الْمَهدِيِّينَ، مِنَ الْمُفَسِّرِينَ والفُقَهَاءِ والْمُحَدِّثِينَ؛ فَهَؤُلَاءِ هُمُ القُدوَةُ فِي فَهمِ نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وعَلَيهِمُ الْمُعَوَّلُ، ولَا عِبرَةَ بِمَن خَالَفَهُم فِيمَا اجتَمَعُوا عَلَيهِ؛ ولَمْ أَقصِدِ استِيعَابَ أَقوَالِهِم خَشيَةَ الإِطَالَةِ، وإِنَّمَا اقتَصَرتُ عَلَى مَا يُبَيِّنُ الْمُرَادَ، ويَفِي بِالغَرَضِ؛ واللهُ الْمُوَفِّقُ والهَادِي إلى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ .

وقَد ذَكَرتُ لِبَيَانِ هَذَا وتَجلِيَتِهِ مَبحَثَينِ :

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ:

بَيَانُ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا مُصطلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وحَملِ أَئِمَّةِ التَّفسِيرِ لآيَاتٍ فِيهَا هذا الْمُصطلَحُ عَلَى مَفهُومِهِ العَامِّ:

لَقَد تَعَلَّقَ مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، بَعدَ دُخُولِ حُرُوفِ الجَرِّ «فِي» و«عن» و«إلى» عَلَيهِ، بِعِدَّةِ مَصَادِرَ؛ وهِيَ خَمسَةَ عَشَرَ مَصدَراً:

الأَوَّلُ: «الإِحصَارُ فِي سَبِيلِ اللهِ»:

(١) قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة:٢٧٣].

قَالَ أَبُو حَيَّانَ الأَندَلُسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُقَاتِلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُمْ أَهْلُ الصُّفَّةِ، حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ، وَكَانُوا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُمْ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ يَتَنَاوَلُ مَنْ كَانَ بِصِفَةِ الْفَقْرِ، وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْغَزْوِ، وَمَنَعَهُمُ الْفَقْرُ مِنَ الْغَزْوِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنَعَهُمْ عُلُوُّ هِمَّتِهِمْ عَنْ رَفْعِ حَاجَتِهِمْ إِلَّا إِلَى اللَّهِ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَحْصَرَهُمُ الْجِهَادُ، لَا يَسْتَطِيعُونَ لِاشْتِغَالِهِمْ بِهِ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ لِلْكَسْبِ [١].

وقَالَ مُحيِي السُّنَّةِ أَبُو القَاسِمِ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هُمْ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، كَانُوا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ رَجُلٍ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَسَاكِنُ بِالْمَدِينَةِ وَلَا عَشَائِرُ، وَكَانُوا فِي الْمَسْجِدِ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ وَيَرْضَخُونَ النَّوَى بِالنَّهَارِ، وَكَانُوا يَخْرُجُونَ فِي كُلِّ سَرِيَّةٍ يَبْعَثُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ، فَحَثَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ النَّاسَ، فَكَانَ مَنْ عِنْدَهُ فَضْلٌ أَتَاهُمْ بِهِ إِذَا أَمْسَى [٢].

---

(١) «البحر المحيط» (٢/٦٩٦).

(٢) «معالم التنزيل» (١/٣٧٧) وانظر «التفسير الكبير» (٧/٦٧ – ٦٨) و«تفسير ابن كثير» (١/٥٤٢).

وقَالَ العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ : أُولَئِكَ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمِ الْآيَةُ، كَانُوا مِنَ الَّذِينَ هَاجَرُوا بِدِينِهِمْ، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ فَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا، فَهُمْ مُحْصَرُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِهَذِهِ الْهِجْرَةِ، وَمُحْصَرُونَ بِحَبْسِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ (١) .

وقَالَ الْمَرَاغِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الإِحصَارُ فِي سَبِيلِ اللهِ : الْمُرَادُ بِهِ حَبسُ النَّفسِ لِلجِهَادِ، أَوِ العَمَلِ فِي مَرضَاةِ اللهِ، إِذْ هُم لَوِ اشتَغَلُوا بِالكَسبِ لَتَعَطَّلَتِ الْمَصلَحَةُ العَامَّةُ الَّتِي أُحصِرُوا فِيهَا، وحَبَسُوا أَنفُسَهُم لَهَا، وتَجِبُ نَفَقَتُهم فِي بَيتِ الْمَالِ (٢).

وقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَولُهُ : ﴿ **أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ أَيْ : قَصَرُوهَا عَلَى **طَاعَةِ اللهِ مِنْ جِهَادٍ وغَيرِهِ**، فَهُم مُستَعِدُّونَ لِذَلِكَ، مَحبُوسُونَ لَهُ (٣) .

قُلتُ : ويَدخُلُ فِيهِ الإِحصَارُ لِتَعَلُّمِ العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ الْمُهِمَّةِ، والقِيَامِ بِالدَّعوَةِ إِلَى الدِّينِ، والجُهدِ والخُرُوجِ لِإِرجَاعِ الْمُسلِمِينَ عِندَ ارتِدَادِ كَثِيرٍ مِنهُم عَنِ الإِسلَامِ، ارتِدَاداً كُلِّيّاً أَو جُزئِيّاً.

الثَّانِي : «الإِصَابَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ» :

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ **[التوبة: ١٢٠]**.

---

(١) «تفسير المنار» (٧٣/٣) .

(٢) «تفسير المراغي» (٤٩/٣) .

(٣) «تفسير السعدي» ص (١١٦) .

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يَعنِي : وَلَا مَجَاعَةٌ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ وَنُصْرَتِهِ، وَهَدْمِ مَنَارِ الْكُفْرِ [(١)] .

وقَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وَنَقُولُ : دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مَنْ قَصَدَ طَاعَةَ اللَّهِ كَانَ قِيَامُهُ وَقُعُودُهُ وَمِشْيَتُهُ وَحَرَكَتُهُ وَسُكُونُهُ كُلُّهَا حَسَنَاتٍ مَكْتُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ [(٢)] .

وقَالَ القَاضِي ابنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ودَرَجَاتُ الجِهَادِ لَو حُصِرَتْ أَكثَرُ مِنْ هَذِهِ، لَكِنْ يَجمَعُهَا بَذلُ النَّفسِ والِاعتِمَالُ بِالبَدَنِ والْمَالِ، فِي أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُليَا [(٣)] . وقَالَ : الجِدَالُ بِالحُجَّةِ هُوَ الأَصلُ، والْمَقصُودُ مِنَ البِعثَةِ [(٤)] .

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ فِي طَاعَتِهِ .. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا : **بِكُلِّ رَوْعَةٍ تَنَالُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَبْعُونَ أَلْفَ حَسَنَةٍ** [(٥)] .

وقَالَ الشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وَمَعْنَى «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» : فِي طَاعَةِ اللَّهِ [(٦)] .

وقَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ : مَا كَانَ بِالَّذِي يَصِحُّ ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ وَمَقَرِّ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا بِالَّذِي يَسْتَقِيمُ أَوْ يَحِلُّ لَهُمْ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إِذَا خَرَجَ غَازِيًّا فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَا فَعَلَ بَعْضُهُمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، **وَلَا فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أُمُورِ الْمِلَّةِ وَمَصَالِحِ الْأُمَّةِ**؛ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أَيْ: وَلَا أَنْ يُفَضِّلُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، فَيَصُونُوهَا، وَيَرْغَبُوا بِإِيثَارِ رَاحَتِهَا وَسَلَامَتِهَا عَنْ بَذْلِهَا

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/٥٦١) .

(٢) «التفسير الكبير» (١٦/١٦٩) .

(٣) «تفسير ابن عطية» (٢/٩٨) .

(٤) «تفسير البيضاوي» (٣/١٠٢) .

(٥) «تفسير القرطبي» (٨/٢٩٠) .

(٦) «فتح القدير» (٢/٤٧٢) .

فِيمَا يَبْذُلُ فِيهِ نَفْسَهُ الشَّرِيفَةَ الْقُدْسِيَّةَ، مِنِ احْتِمَالِ الْجَهْدِ وَالْمَشَقَّةِ فِي «سَبِيلِ اللهِ» ﷻ. يُقَالُ : رَغِبَ فِي الشَّيْءِ إِذَا أَحَبَّهُ وَآثَرَهُ، وَرَغِبَ عَنْهُ : إِذَا كَرِهَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَقَدْ جَمَعَ هُنَا بَيْنَهُمَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْمُؤَثِّرَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى : أَنَّ الْمُتَخَلِّفَ يُفَضِّلُ نَفْسَهُ وَيُؤْثِرُهَا عَلَى نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، الَّتِي لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ أَحَدٍ حَتَّى يُحِبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ؛ وَهَذَا يَصِحُّ بَعْدَهُ ﷺ فِي كُلِّ رَاغِبٍ عَنْ سُنَّتِهِ وَالتَّأَسِّي بِهِ (١). وهَذَا تَعْبِيرٌ بَلِيغٌ جِدًّا يَتَضَمَّنُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَصُونُ نَفْسَهُ عَنْ **جِهَادٍ وَعَمَلٍ**، بَذَلَ الرَّسُولُ ﷺ نَفْسَهُ فِيهِ، فَهُوَ مُفَضِّلٌ لِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ فِي عَهْدِهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِيمَنْ بَعْدَهُ .. (٢) .

قُلتُ : ولَا شَكَّ أَنَّ العَمَلَ الَّذِي بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وبَذَلَ فِيهِ نَفسَهُ الشَّرِيفَةَ هُوَ الدَّعوَةُ إلى اللهِ وإلى سَبِيلِهِ؛ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ كُلُّ مَنْ يَصُونُ نَفْسَهُ عَنْ عَمَلِ الرَّسُولِ ﷺ، - وهُوَ الدَّعوَةُ إلى اللهِ - فَهُوَ مُفَضِّلٌ لِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ ﷺ الْكَرِيمَةِ؛ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ .

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ بَعدَ ذِكرِ العَقَبَاتِ الَّتِي تَعرِضُ فِي طَرِيقِ السَّالِكِينَ : فَإِذَا نَجَا مِنْهَا لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ عَقَبَةٌ يَطْلُبُهُ الْعَدُوُّ عَلَيْهَا سِوَى وَاحِدَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا، وَلَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا رُسُلُ اللَّهِ وَأَنْبِيَاؤُهُ، وَأَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، وَهِيَ عُقْبَةُ تَسْلِيطِ جُنْدِهِ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى، بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، عَلَى حَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي الْخَيْرِ، فَكُلَّمَا عَلَتْ مَرْتَبَتُهُ أَجْلَبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، وَظَاهَرَ عَلَيْهِ بِجُنْدِهِ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ حِزْبَهُ وَأَهْلَهُ بِأَنْوَاعِ التَّسْلِيطِ، وَهَذِهِ الْعُقْبَةُ لَا حِيلَةَ لَهُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا، فَإِنَّهُ كُلَّمَا جَدَّ فِي الِاسْتِقَامَةِ **وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ**، وَالْقِيَامِ لَهُ بِأَمْرِهِ، جِدَّ الْعَدُوُّ فِي إِغْرَاءِ السُّفَهَاءِ بِهِ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْعُقْبَةِ قَدْ لَبِسَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ، وَأَخَذَ فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ، فَعُبُودِيَّتُهُ فِيهَا عُبُودِيَّةُ خَوَاصِّ الْعَارِفِينَ، وَهِيَ تُسَمَّى : **عُبُودِيَّةَ الْمُرَاغَمَةِ**، وَلَا يَنْتَبِهُ لَهَا إِلَّا أُولُو الْبَصَائِرِ التَّامَّةِ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُرَاغَمَةِ وَلِيِّهِ لِعَدُوِّهِ، وَإِغَاظَتِهِ لَهُ، وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ : منها قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ﴾، سَمَّى الْمُهَاجِرَ الَّذِي يُهَاجِرُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ

(١) «تفسير المنار» (١١/٦٠) .

(٢) «المصدر السابق» (١١/ ٩٢) .

مُرَاغِمًا يُرَاغِمُ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّهُ، وَاللَّهُ يُحِبُّ مِنْ وَلِيِّهِ مُرَاغَمَةَ عَدُوِّهِ، وَإِغَاظَتَهُ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وَقَالَ ﷻ فِي مِثْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَتْبَاعِهِ : ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فَمُغَايَظَةُ الْكُفَّارِ غَايَةٌ مَحْبُوبَةٌ لِلرَّبِّ مَطْلُوبَةٌ لَهُ، فَمُوَافَقَتُهُ فِيهَا مِنْ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ، وَشَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُصَلِّي إِذَا سَهَا فِي صِلَاتِهِ سَجْدَتَيْنِ، وَقَالَ :" **إِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ تَامَّةً كَانَتَا تُرْغِمَانِ أَنْفَ الشَّيْطَانِ** ". وَسَمَّاهَا الْمُرْغِمَتَيْنِ . فَمَنْ تَعَبَّدَ اللَّهَ بِمُرَاغَمَةِ عَدُوِّهِ، فَقَدْ أَخَذَ مِنَ الصِّدِّيقِيَّةِ بِسَهْمٍ وَافِرٍ، وَعَلَى قَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَمُوَالَاتِهِ وَمُعَادَاتِهِ لِعَدُوِّهِ يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنْ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةِ .. وَهَذَا بَابٌ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ، وَمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ وَلَذَّتَهُ بَكَى عَلَى أَيَّامِهِ الْأُوَلِ [١] .

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٤٠/١ – ٢٤٢) . قلت : انظر كيف سمَّى ابنُ القيم عبودية مراغمة ومغايظة أعداء الحق بالاستقامة عليه والدعوة إليه : «عُبُودِيَّةَ خَوَاصِّ الْعَارِفِينَ»، وأنَّ صاحبها قَدْ لَبِسَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ، وَأَخَذَ فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ؛ وأنه لَا يَنْتَبِهُ لَهَا إِلَّا أُولُو الْبَصَائِرِ التَّامَّةِ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُرَاغَمَةِ وَلِيِّهِ لِعَدُوِّهِ، وَإِغَاظَتِهِ لَهُ؛ واستدل على ذلك بآيات من الذكر الحكيم، ظاهرها في قتال الكفار، ولكنه جعلها في مفهوم الجهاد العامِّ، والذي يشمل القيام بالحق والاستقامة عليه، والجهد لدعوة الناس وإقامتهم عليه. قلت : وهذه العبودية هي التي يُدندن حولها «أهل الدعوة والتبليغ»، ويطلبون من الأمة جمعاء أنْ يقوموا بها ولها، ليأخذوا نصيبهم من الصدِّيقيَّةِ ونيابة نبيهم ﷺ وخلافته بذلك . ولا شكَّ أنَّ أكثر ما يغيظ الكفَّار من المسلمين هو قيامهم بالحق ودعوتهم إليه، كما قال تعالى : ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ فالتوبة من الذنوب والآثام هي أحب الأعمال إلى الله، وثبت أنَّ الله تعالى يفرح لها فرحاً شديداً؛ فالذي يدعو إليها، ويتسبب بها، ينال مكانة من جنس مكانة الأنبياء عليهم السلام؛ وهذا أكثرُ ما يغيظ أعداء الحق من أهله؛ كما أنَّ العكس صحيح بالنسبة لأهل الحق، حيث ذكر الحقُّ ﷻ أنَّ فتنة المشركين لأهل الإسلام عن إسلامهم بإخراجهم من النور إلى الظلمات، أشدُّ ضرراً وأعظم خطراً، وأكبر ظلماً من قتلهم؛ وكذلك الأمر بالنسبة للمشركين حينما يدعوهم أهل الحق لإخراجهم من الظُّلمات إلى النُّور؛ والله المستعان، وعليه التكلان، وهو القادر وحده على أن يشرح الصدور لفهم مراده، وتحقيق مَحَابِّهِ .

(٢) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَمَا عَجَزُوا لِمَا نَالَهُمْ مِنْ أَلَمِ الْجِرَاحِ الَّذِي نَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا لَقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ عَنْ حَرْبِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَلَا نَكَلُوا عَنْ جِهَادِهِمْ [١]. وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ : ومَا جَبُنُوا، ولَكِن صَبَرُوا عَلَى أَمْرِ رَبِّهِمْ وَطَاعَةِ نَبِيِّهِمْ، وَجِهَادِ عَدُوِّهِمْ [٢].

وقَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْمَعْنَى : وَكَمْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ الْعَدَدُ الْكَثِيرُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَصَابَهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ قَرْحٌ، فَمَا وَهَنُوا، لِأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ وَنُصْرَةِ رَسُولِهِ، فَكَذَلِكَ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ [٣].

وقَالَ القَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ : وهَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ ﷻ فِي كَيفِيَّةِ الطَّلَبِ بِالأَدعِيَةِ عِندَ النَّوَائِبِ والْمِحَنِ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الجِهَادِ أَو غَيرِهِ [٤].

الثَّالِثُ : «الإِضلالُ والضَّلالُ عَن سَبِيلِ اللهِ» :

قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦]. وغَيرِهَا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا ذِكرُ الإِضلَالِ عَن سَبِيلِ اللهِ .

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَولِهِ : ﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : عَنْ دِينِ اللهِ [٥].

---

(١) «تفسير الطبري» (٦/١١٧) .
(٢) «تفسير البغوي» (١/٥٢١) .
(٣) «التفسير الكبير» (٩/٣٨٠) .
(٤) «محاسن التأويل» (٢/٤٢٤) .
(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٧٨١٢) .

وقَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في مَعناهَا : يُضِلُّوكَ عَن دِينِ اللهِ، ومَحَجَّةِ الحَقِّ والصَّوَابِ [١].
وتَبِعَهُم عَلَى هَذَا القولِ أَئِمَّةُ التَّفسِيرِ، سَلَفاً وخَلَفاً، بِلا خِلَافٍ .

وكَذَلِكَ القَولُ في «الضَّلَالِ عَن سَبِيلِ اللهِ»، كَمَا في قولِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام:١١٧].

الرَّابِعُ : «الإِنفَاقُ في سَبِيلِ اللهِ» :

(١) قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ **[البقرة:١٩٥]**. وغَيرهَا مِنَ الآيَاتِ الكَثِيرَةِ، الَّتِي فِيهَا ذِكرُ الإِنفَاقِ في سَبِيلِ اللهِ.

قَالَ سُفْيَانُ رَحِمَهُ اللَّهُ في الآيَةِ : **فِي طَاعَةِ اللَّهِ** [٢]. وقَالَ أَبُو جَعفَرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنْ يُقَالَ : إِنِ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وَسَبِيلُهُ : طَرِيقُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ وَأَوْضَحَهُ لَهُمْ. وَمَعْنَى ذَلِكَ : وَأَنْفِقُوا فِي إِعْزَازِ دِينِي الَّذِي شَرَعْتُهُ لَكُمْ بِجِهَادِ عَدُوِّكُمُ النَّاصِبِينَ لَكُمُ الْحَرْبَ عَلَى الْكُفْرِ بِي وَنَهَاهُمْ أَنْ يُلْقُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [٣] .

وقَالَ أَبُو حَيَّانَ الأَندَلُسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هَذَا أَمْرٌ بِالْإِنْفَاقِ فِي طَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَكُلُّ مَا كَانَ سَبِيلًا لِلَّهِ وَشَرْعًا لَهُ كَانَ مَأْمُورًا بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ؛ .. وَقِيلَ : فِي الْجِهَادِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ، وَقِيلَ : الْمَعْنَى : ابْذُلُوا أَنْفُسَكُمْ فِي الْمُجَاهَدَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَالْأَظْهَرُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، وَهُوَ : الْأَمْرُ بِصَرْفِ الْمَالِ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ مِنْ حَجٍّ، أَوْ عُمْرَةٍ، أَوْ جِهَادٍ بِالنَّفْسِ، أَوْ بِتَجْهِيزِ غَيْرِهِ، أَوْ صِلَةِ رَحِمٍ، أَوْ صَدَقَةٍ، أَوْ عَلَى عِيَالٍ، أَوْ فِي زَكَاةٍ، أَوْ كَفَّارَةٍ، أَوْ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/٦٤) .
(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٧٤٣) .
(٣) «تفسير الطبري» (١٧٤٣) .

عِمَارَةِ سَبِيلٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَلَمَّا اعْتَقَبَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِمَا قَبْلَهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْقِتَالِ وَالْأَمْرِ بِهِ، تَبَادَرَ إِلَى الذِّهْنِ النَّفَقَةُ فِي الْجِهَادِ لِلْمُنَاسَبَةِ (١) .

قُلتُ : ولَا شَكَّ أَنَّ الإنفَاقَ في دَعوَةِ الخَلقِ وهِدَايَتِهم إلى الإيمَانِ، والصِّفَاتِ الْمَرضِيَّةِ عِندَ اللهِ ﷻ، هُوَ أَعظَمُ سَبِيلٍ يُنفَقُ فِيهِ الْمَالُ، ويَدخُلُ في الأَمرِ بِهَذِهِ الآيَةِ بِالقَصدِ الأَوَّلِ .

وقَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَمَضْمُونُ الْآيَةِ : الأمرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي سَائِرِ وُجُوهِ القُرُبات وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ، وَخَاصَّةً صَرف الْأَمْوَالِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ، وبذلها فِيمَا يَقْوَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ تَرْكِ فِعْلِ ذَلِكَ بِأَنَّهُ هَلَاكٌ وَدَمَارٌ إِنْ لَزِمَهُ وَاعْتَادَهُ (٢).

وقَالَ الشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : في هَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ الْجِهَادُ، وَاللَّفْظُ يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ مِمَّا يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ «سَبِيلِ اللَّهِ» (٣) .

وقَالَ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : **اللَّفظُ يقتَضِي العُمُومَ**، - يَعنِي لَفظَ الإنفَاقِ في سَبِيلِ اللهِ - ووُرُودُهُ عَلَى السَّبَبِ لَا يَصلُحُ قَرِينَةً لِقَصرِهِ عَلَى ذَلِكَ؛ ولَا شُبهَةَ أَنَّ التَّعبُّدَ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّفظِ الوَارِدِ، وهُوَ عَامٌّ . وقَدِ استَشهَدَ بِعُمُومِ الآيَةِ عَمرُو بنُ العَاصِ رضي الله عنه .. (٤) .

(٢) قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[البقرة:٢٦١] .

---

(١) «البحر المحيط» (٢/٢٥٠ - ٢٥١) .
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٥٣٠) .
(٣) «فتح القدير» (١/٢٢٢) .
(٤) «محاسن التأويل» (٢/٦٢) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : **نَفَقَةُ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ سَوَاءٌ، الدِّرْهَمُ بِسَبْعِمائَةٍ، لأَنَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** [١] . وقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْلُهُ : ﴿ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ يَعْنِي : **فِي طَاعَةِ اللَّهِ**[٢].

وقَالَ ابنُ عَطِيَّةَ الأَندَلُسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : هَذِهِ الآيَةُ في نَفَقَةِ التَّطَوُّعِ، وسُبُلُ اللهِ كَثِيرَةٌ، وهِيَ جَمِيعُ مَا هُوَ طَاعَةٌ، وعَائِدٌ بِمَنفَعَةٍ عَلَى الْمُسلِمِينَ والْمِلَّةِ، وأَشهَرُهَا وأَعظَمُهَا غِنَاءً : الجِهَادُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُليَا [٣] .

وقَالَ ابنُ الجَوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْمُرَادُ بِـ«سَبِيلِ اللهِ» قَولَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُ الجِهَادُ. **والثَّانِي:** أَنَّهُ جَمِيعُ أَبوَابِ البِرِّ [٤]. وكَذَلِكَ قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ [٥]. وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : هَذَا بَيَانٌ لِلقَرضِ الحَسَنِ، مَا هُوَ ؟ وهُوَ أَن يَكُونَ فِي سَبِيلِهِ، أَيْ فِي مَرضَاتِهِ، والطَّرِيقِ الْمُوصِلَةِ إِلَيهِ، ومِنْ أَنفَعِهَا سَبِيلُ الجِهَادِ . **فَسَبِيلُ اللهِ : خَاصٌّ وَعَامٌّ، والخَاصُّ جُزءٌ مِنَ السَّبِيلِ العَامِّ** [٦] .

وقَالَ الفَخرُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَعْنَى ﴿ **يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ يَعْنِي فِي دِينِهِ، قِيلَ : أَرَادَ النَّفَقَةَ فِي الْجِهَادِ خَاصَّةً، وَقِيلَ : جَمِيعُ أَبْوَابِ الْبِرِّ؛ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْوَاجِبُ وَالنَّفْلُ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الْهِجْرَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الْجِهَادِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْغَيْرِ، وَمِنْ صَرْفِ الْمَالِ إِلَى الصَّدَقَاتِ، وَمِنْ إِنْفَاقِهَا فِي الْمَصَالِحِ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَعْدُودٌ فِي السَّبِيلِ الَّذِي هُوَ دِينُ اللَّهِ وَطَرِيقَتُهُ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ إِنْفَاقٌ فِي سَبِيلِ الله [٧] .

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٧٢٨) .

(٢) «المصدر السابق» (٢٧٢٣) .

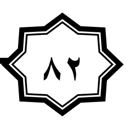
(٣) «تفسير ابن عطية المسمى بالمحرر الوجيز لتفسير الكتاب العزيز» (٣٥٥/١) .

(٤) «زاد المسير في علم التفسير» (٢٣٨/١) .

(٥) «إعلام الموقعين» (١٤١/١) .

(٦) «طريق الهجرتين» ص (٣٦٥) .

(٧) «التفسير الكبير» (٣٩/٧) .



وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِنْفَاقَ هُوَ صَرْفُ الْمَالِ إِلَى وُجُوهِ الْمَصَالِحِ، .. فَإِذَا قَيَّدَ الْإِنْفَاقَ بِذِكْرِ «سَبِيلِ اللَّهِ»، فَالْمُرَادُ به في طَرِيقِ الدِّينِ، لِأَنَّ السَّبِيلَ هُوَ الطَّرِيقُ، **وَسَبِيلُ اللَّهِ: هُوَ دِينُهُ**. فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي دِينِهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ، سَوَاءٌ كَانَ إِنْفَاقًا فِي حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ كَانَ جِهَادًا بِالنَّفْسِ، أَوْ تَجْهِيزًا لِلْغَيْرِ، أَوْ كَانَ إِنْفَاقًا فِي صِلَةِ الرَّحِمِ، أَوْ فِي الصَّدَقَاتِ أَوْ عَلَى الْعِيَالِ، أَوْ فِي الزَّكَوَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ، أَوْ عِمَارَةِ السَّبِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ الْأَقْرَبَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ – وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْجِهَادِ – أَنَّهُ يُرَادُ بِهِ الْإِنْفَاقُ فِي الْجِهَادِ [(١)].

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ وَسُبُلُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ، وَأَعْظَمُهَا الْجِهَادُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا [(٢)]. قُلتُ : وأَكثَرُ سَبِيلٍ أَنفَقَ النَّبِيُّ ﷺ مَالَهُ فِيهِ هُوَ هِدَايَةُ الخَلقِ، ودَعوَتُهُم إلى الحَقِّ .

وقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعرِضِ بَيَانِهِ عَن مُضَاعَفَةِ العَمَلِ أَضعَافاً كَثِيرَةً : وذَلِكَ إِمَّا مُتَعَلِّقٌ بِنَفسِ العَامِلِ، أَو بِالعَمَلِ ومَزِيَّتِهِ، أَو نَتَائِجِهِ وثَمَرَاتِهِ، أَو بِزَمَانِهِ أَو مَكَانِهِ .. ومِن أَسبَابِ الْمُضَاعَفَةِ أَن يَكُونَ العَمَلُ فِيهِ نَفعٌ لِلمُسلِمِينَ وغِنَاءٌ، وذَلِكَ كَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، الجِهَادِ بِالحُجَّةِ والبُرهَانِ، وبِالسَّيفِ والسِّنَانِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي نَفَقَاتِ أَهلِ هَذَا الصِّنفِ : **﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾**. ويَدخُلُ فِي هَذَا سُلُوكُ طَرِيقِ التَّعلِيمِ والتَّعَلُّمِ لِلعُلُومِ الشَّرعِيَّةِ، ومَا يُعِينُ عَلَيهَا [(٣)] .

قُلتُ : انظُرْ كَيفَ يُدخِلُ أَئِمَّةُ التَّفسِيرِ جِهَادَ الدَّعوَةِ بِاللِّسَانِ تَحتَ الآيَاتِ الَّتِي تُرَغِّبُ بِالإِنفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومَا ذَلِكَ إِلَّا لِفَهمِهِم حَقِيقَةَ هَذِهِ السَّبِيلِ، ومَا يَدخُلُ فِيهَا، وهَذَا

---

(١) «التفسير الكبير» (٥/٢٩٤) . قلت : وقد تقدم مراراً أن الجهاد نوعان : وأن جهاد الدعوة هو الجهاد الكبير، وأنه المقصود لذاته، وأن جهاد السيف كالخادم للدعوة.

(٢) «تفسير القرطبي» (٣/٣٠٣) .

(٣) «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» (١/٣٣٧) .

الفَهمُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَ اللهُ ﷻ لَهُ أَهلَ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ – جَزَاهُمُ اللهُ خَيراً –، فَفَهِمُوهُ، وسَعَوا فِي نَشرِهِ فِي الأُمَّةِ؛ وللهِ الحَمدُ والْمِنَّةُ .

(٣) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد:٣٨].

قَالَ الْمَاتُرِيدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : أَيْ : هَا أَنتُم يَا هَؤُلَاءِ ﴿ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أَيْ : فِي إِظهَارِ دِينِ اللَّهِ، أو فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أَو فِي الجِهَادِ؛ لِأَنَّ الإِنفَاقَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، واللَّهُ أَعلَمُ [١] .

وقَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَقَوْلُهُ : ﴿ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِلَى الْإِنْفَاقِ إِمَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْجِهَادِ، وَإِمَّا فِي صَرْفِهِ إِلَى الْمُسْتَحِقِّينَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَبِالْجُمْلَةِ فَفِي الْجِهَتَيْنِ تَخْذِيلُ الْأَعْدَاءِ، وَنُصْرَةُ الْأَوْلِيَاءِ [٢].

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : أَيْ فِي الْجِهَادِ وَطَرِيقِ الْخَيْرِ [٣]. قِيلَ : أَرَادَ بِهِ النَّفَقَةَ فِي الجِهَادِ والغَزوِ؛ وقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ إِخرَاجُ الزَّكَاةِ وجَمِيعُ وُجُوهِ البِرِّ؛ **والكُلُّ فِي سَبِيلِ اللهِ** [٤] .

وقَالَ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : أَيْ فِي جِهَادِ أَعدَائِهِ، ونُصرَةِ دِينِهِ .. ولِيُعلَمَ أَنَّ سَبِيلَ اللهِ يَشمَلُ كُلَّ مَا فِيهِ نَفعٌ وخَيرٌ، وفَائِدَةٌ وقُربَةٌ ومَثُوبَةٌ. **«وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى الجِهَادِ لِأَنَّهُ فَردُهُ الأَشهَرُ، وجُزئِيُّهُ الأَهَمُّ، وَقتَ نُزُولِ الآيَاتِ، وإِلَّا فَلَا يَنحَصِرُ فِيهِ»** [٥].

---

(١) «تفسير الماتريدي – تأويلات أهل السنة –» (٩/٢٨٧) .
(٢) «التفسير الكبير» (٢٨/٦٣) .
(٣) «تفسير القرطبي» (١٦/٢٥٨) .
(٤) «تفسير الخازن» (٤/١٥١) .
(٥) «محاسن التأويل» (٨/٤٨٠) .

وقَالَ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : والإنفَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى : هُوَ الإنفَاقُ الْمَرضِيُّ لَهُ تَعَالَى شَأنُهُ مُطلَقاً، فَيَشمَلُ النَّفَقَةَ لِلعِيَالِ والأَقَارِبِ، والغَزوِ، وإطعَامِ الضُّيُوفِ والزَّكَاةِ وغَيرِ ذَلِكَ، ولَيسَ مَخصُوصاً بِالإنفَاقِ لِلغَزوِ، أَو بِالزَّكَاةِ كَمَا قِيلَ [(١)] .

الخَامِسُ : «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» :

(١) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة:٢١٨] .

قَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الْمُجَاهَدَةُ أَصْلُهَا مِنَ الْجَهْدِ، الَّذِي هُوَ الْمَشَقَّةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْمُجَاهَدَةِ أَنْ يَضُمَّ جُهْدَهُ إِلَى جُهْدٍ آخَرَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ [(٢)] . وقَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ : «الْمُجَاهَدَةُ» : هِيَ مِنَ الْجُهْدِ، وَهُوَ الْمَشَقَّةُ، وَلَيْسَ خَاصًّا بِالْقِتَالِ [(٣)] .

وقَالَ الرَّاغِبُ الأَصفَهَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَ«الْجِهَادُ وَالْمُجَاهَدَةُ» : اسْتِفْرَاغُ الْوُسْعِ فِي مُدَافَعَةِ الْعَدُوِّ. وَالْجِهَادُ ثَلَاثَةُ أَضْرُبٍ : (١) مُجَاهَدَةُ الْعَدُوِّ الظَّاهِرِ، (٢) وَمُجَاهَدَةُ الشَّيْطَانِ، (٣) وَمُجَاهَدَةُ النَّفْسِ . **وَتَدْخُلُ ثَلَاثَتُهَا فِي قَوْلِهِ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ** ﴾ [الحج:٧٨]. وَ﴿ **ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾[التوبة:٤١]. وَ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ [الأنفال:٧٢]. وَالْمُجَاهَدَةُ تَكُونُ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ؛ وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "**جَاهِدُوا الْكُفَّارَ بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** " [(٤)] . قُلتُ : فَالِاستِدلَالُ بِهَذِهِ الآيَاتِ ونَحوِهَا عَلَى ضَرُورَةِ جِهَادِ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ بِاللِّسَانِ، لَيسَ بِالقَولِ الْمُبتَدَعِ فِي الدِّينِ، بَلْ هُوَ مَنهَجٌ قَوِيمٌ، وهَديٌ سَلِيمٌ، سَارَ عَلَيهِ الأَئِمَّةُ الْمَهدِيُّونَ .

---

(١) «روح المعاني» (١٣/٢٣٦) .

(٢) «التفسير الكبير» (٦/٣٩٤) .

(٣) «تفسير المنار» (٢/٢٥٤ – ٢٥٥) .

(٤) «المفردات في غريب القرآن» ص (٢٠٨) .

وقَالَ الإِمَامُ ابنُ العَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ : أَيْ الْتَزَمُوا الجَهْدَ؛ وَهِيَ الْمَشَقَّةُ فِي أَنْفُسِهِمْ، بِتَعْرِيضِهَا لِلْإِذَايَةِ وَالنِّكَايَةِ وَالْقَتْلِ، وَبِأَمْوَالِهِمْ بِإِهْلَاكِهَا فِيمَا يُرْضِي اللَّهَ[1] .

(٢) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥] .

قَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَدّاً عَلَى مَن زَعَمَ أَنَّ الآيَةَ دَلَّتِ عَلَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، بِحُجَّةِ أَنَّ عَلِيّاً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كَانَ أَكْثَرَ جِهاداً، وأَنَّ الْقَدْرَ الَّذِي حَصَلَ التَّفَاوُتُ فِيهِ كَانَ أَبُو بَكْرٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ فِيهِ وعَلِيٌّ مِنَ الْقَائِمِينَ، وإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ أَفْضَلَ مِنهِ لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : فَيُقَالُ لَهُمْ : إِنَّ مُبَاشَرَةَ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ مُبَاشَرَةِ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذَلِكَ، فَيَلْزَمُكُمْ بِحُكْمِ هَذِهِ الآيَةِ أَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا لا يَقُولُهُ عَاقِلٌ؛ فَإِنْ قَلْتُمْ : إِنَّ مُجَاهَدَةَ الرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْكُفَّارِ كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ مُجَاهَدَةِ عَلِيٍّ مَعَهُمْ، لأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُجَاهِدُ الْكُفَّارَ بِتَقْرِيرِ الدَّلائِلِ والْبَيِّنَاتِ وإِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ وَالضَّلالاتِ، وَهَذَا الجِهَادُ أَكْمَلُ مِنْ ذَلِكَ الجِهَادِ؛ فَنَقُولُ: فَاقْبَلُوا مِنَّا مِثْلَهُ فِي حَقِّ أَبِي بِكْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَسْلَمَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ سَعَى فِي إِسْلامِ سَائِرِ النَّاسِ، حَتَّى أَسْلَمَ عَلَى يَدِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وَكَانَ يُبَالِغُ فِي تَرْغِيْبِ النَّاسِ فِي الإِيْمَانِ وَالذَّبِّ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وعَلِيٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَ صَبِيّاً، مَا كَانَ أَحَدٌ يُسْلِمُ بِقَوْلِهِ، ومَا كَانَ قَادِراً عَلَى الذَّبِّ عن مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَكَانَ جِهَادُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَفْضَلَ مِنْ جِهَادِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من وَجْهَيْنِ :

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٤٣٩) .

أَحَدُهُمَا : أَنَّ جِهَادَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ كَانَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، حِيْنَ كَانَ الإِسْلامُ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ، وأَمَّا جِهَادُ عَلِيٍّ ﷺ فَإِنَّمَا ظَهَرَ فِي الْمَدِيْنَةِ فِي الْغَزَوَاتِ، وَكَانَ الإِسْلامُ وَقْتَ ذَاكَ قَوِيّاً .

وَالثَّانِي : أَنَّ جِهَادَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ كَانَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الدِّيْنِ، وَأَكْثَرُ أَفَاضِلِ الْعَشَرَةِ إِنَّمَا أَسْلَمُوا عَلَى يَدِهِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْجِهَادِ هُوَ حِرْفَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمَّا جِهَادُ عَلِيٍّ ﷺ فَإِنَّمَا كَانَ بِالْقَتْلِ، ولا شَكَّ أَنَّ الأَوَّلَ أَفْضَلُ مِنْهُ (١) .

فَالْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ : هُوَ كُلُّ مَنْ يَبْذُلُ جُهْداً فِي سَبِيلِ إِعْلاءِ كَلمَةِ اللهِ وإِظْهَارِ دِينِهِ وإِتْمَامِ نُورِهِ وإِخْمَادِ البَاطِلِ ودَحْضِ حُجَجِهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ بِمُجَاهَدَةِ الْمُشْرِكِينَ بِالسَّيْفِ وَالْقُوَّةِ، أَوْ بِاللِّسَانِ بِبَيَانِ الْحُجَجِ وَالبَرَاهِينِ وإِقَامَةِ الدَّلائِلِ على أُلُوهِيَّةِ اللهِ ﷻ ورِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وإِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ حَولَ ذَلِكَ، والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ جِهَاداً كَبِيراً، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[الفرقان : ٥٢] .

(٣) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

قَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا ﵀ : الجِهَادُ : بَذْلُ الْجُهْدِ بِقَدْرِ الْوُسْعِ وَمُصَارَعَةُ الْمَشَاقِّ، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهُ بِالْأَمْوَالِ، فَهُوَ قِسْمَانِ : (١) **إِيجَابِيٌّ** : وَهُوَ إِنْفَاقُهَا فِي التَّعَاوُنِ وَالْهِجْرَةِ، ثُمَّ فِي الدِّفَاعِ عَنْ دِينِ اللهِ وَنَصْرِ رَسُولِهِ وَحِمَايَتِهِ. (٢) **وَسَلْبِيٌّ** : وَهُوَ سَخَاءُ النَّفْسِ بِتَرْكِ مَا تَرَكُوهُ فِي وَطَنِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْهُ .

---

(١) «التفسير الكبير» (١٠/١١) .

وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهُ بِالنَّفْسِ فَهُوَ قِسْمَانِ أَيْضًا : (١) قِتَالُ الْأَعْدَاءِ، وَعَدَمُ الْمُبَالَاةِ بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ. (٢) وَمَا كَانَ قَبْلَ إِيجَابِ الْقِتَالِ مِنِ احْتِمَالِ الْمَشَاقِّ وَمُغَالَبَةِ الشَّدَائِدِ وَالصَّبْرِ عَلَى الِاضْطِهَادِ، وَالْهِجْرَةِ مِنَ الْبِلَادِ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ سَغَبٍ وَتَعَبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ [١] .

قُلتُ : ومِن أَعظَمِ الجِهَادِ الَّذِي كَانُوا يَحتَمِلُونَ الْمَشَاقَّ والأَذَى فِي سَبِيلِهِ : هُوَ جِهَادُهُم فِي سَبِيلِ ثَبَاتِهِم عَلَى الإِيمَانِ، ودَعوَةِ أَهلِيهِم وأَقوَامِهِم إلى الإِيمَانِ بِاللهِ وَحدَهُ، واتِّبَاعِ دِينِ الحَقِّ.

(٤) قَالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ **[الحجرات:١٥]**.

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رحمه الله : يَقُولُ : جَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ بِإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ، وَبَذْلِ مُهَجِهِمْ فِي جِهَادِهِمْ، عَلَى مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ جِهَادِهِمْ، وَذَلِكَ سَبِيلُهُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْعُلْيَا، وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى [٢] .

وقَالَ العَلَّامَةُ القَاسِمِيُّ رحمه الله بَعدَ ذِكرِ قَولِ ابنِ جَرِيرٍ هَذَا : وقَدَّمنا مِرَاراً أَنَّ قَصرَ «سَبِيلِ اللهِ» عَلَى غَزوِ الكُفَّارِ الْمُعتَدِينَ، مِن بَابِ قَصرِ العَامِّ عَلَى أَهَمِّ أَفرَادِهِ وأَعلَاهَا، وإِلَّا فَـ«سَبِيلُ اللهِ» يَعُمُّ العِبَادَاتِ والطَّاعَاتِ كُلَّهَا، لِأَنَّهَا فِي سَبِيلِهِ وجِهَتِهِ [٣] .

قُلتُ : أَو هُوَ مِن بَابِ بَيَانِ سَبَبِ النُّزُولِ لِلآيَاتِ؛ ومَعلُومٌ أَنَّ «العِبرَةَ بِعُمُومِ اللَّفظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ»، بِمَعنَى أَنَّهُ وَلَو كَانَتِ الآيَةُ نَزَلَت فِي وَاقِعَةٍ كَانَ الجِهَادُ فِيهَا بِالسَّيفِ، إِلَّا

---

(١) «تفسير المنار» (١٠/٩٣) .

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/٣٩٥) . قلت : لا شك أن جهاد الدَّعوة والتَّبليغ داخل في هذا الجهاد المأمور به، كما تقدَّم في قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ؛ وكما قال ﷺ : "**جَاهِدُوا المُشرِكِينَ بِأَموَالِكُم وأَنفُسِكُم وأَلسِنَتِكِم** ".

(٣) «محاسن التأويل» (٨/٥٤٣) .

أنَّ عُمُومَ الأَمرِ بِالجِهَادِ فِيهَا وبَيَانَ فَضِيلَةِ أَهلِهِ، وذَمِّ الْمُتَخَلِّفِ عَنهُ، يَدخُلُ فِيهِ أَنوَاعُ الجِهَادِ الأُخرَى، وعَلَى رَأسِهَا جِهَادُ النَّفسِ عَلَى امتِثَالِ الأَوَامِرِ، وأَعلاَهَا القِيَامُ بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ؛ كَمَا تَقَدَّمَ مِرَاراً مِن أَنَّهُ الجِهَادُ الكَبِيرُ، والْمَشرُوعُ والْمَقصُودُ أَوَّلاً، والدَّاخِلُ في مَعنَى الجِهَادِ قَبْلاً، وأَنَّهُ أَعظَمُ أَثَراً، وأَكمَلُ نَفعاً؛ كَمَا قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في قوله تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ : **لَيْسَ الْجِهَادُ فِي هَذِهِ الآيَةِ قِتَالَ الْعَدُوِّ، بَلْ هُوَ نَصْرُ الدِّينِ، وَالرَّدُّ عَلَى الْمُبْطِلِينَ، وَقَمْعُ الظَّالِمِينَ، وَأَعْظَمُهُ الأَمْرُ بالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنكَرِ، وَمِنْهُ مُجَاهَدَةُ النُّفُوسِ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْجِهَادُ الأَكْبَرُ** [(١)] .

وقَالَ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، **والجِهَادُ بِالنَّفسِ يَكُونُ بِاللِّسَانِ كَمَا يَكُوْن بِاليَدِ، بَل قَدْ يَكُونُ أَقوَى مِنهُ**؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "**جَاهِدُوا الْمُشرِكِينَ بِأَيدِيكُم وأَلسِنَتِكُم وأَموَالِكُم** ". رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وغَيرُهُ. وَكَانَ ﷺ يَقُولُ لِحَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :" **اغْزُهُم وغَازِهِم** ". وَكَانَ يُنصَبُ لَهُ مِنبَرٌ في الْمَسجِدِ، يُنَافِحُ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِعرِهِ وهِجَائِهِ لِلمُشرِكِينَ؛ وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **اللَّهُمَّ أَيِّدهُ بِرُوحِ القُدُسِ** ". وقَالَ :" **إِنَّ جِبرِيلَ مَعَكَ مَا دُمتَ تُنَافِحُ عَن رَسُولِ اللهِ** ﷺ ". وقَالَ :" **هِيَ أَنكَى فِيهِم مِنَ النَّبلِ**". وَكَانَ عَدَدٌ مِنَ الْمُشرِكِينَ يَكُفُّونَ عَن أَشيَاءَ مِمَّا يُؤذِي الْمُسلِمِينَ، خَشيَةَ هِجَاءِ حَسَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ حَتَّى إِنَّ كَعبَ بنَ الأَشرَفِ لَمَّا ذَهَبَ إِلى مَكَّةَ، كَانَ كُلَّمَا نَزَلَ عِندَ أَهلِ بَيتٍ هَجَاهُم حَسَّانُ بِقَصِيدَةٍ، فَيُخرِجُونَهُ مِن عِندِهِم، حَتَّى لَم يَبقَ لَهُ بِمَكَّةَ مَن يُؤوِيهِ. وفي الحَدِيثِ:" **أَفضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِندَ سُلطَانٍ جَائِرٍ** ". و:" **أَفضَلُ الشُّهَدَاءِ حَمزَةُ بنُ عَبدِ الْمُطَّلِبِ، ورَجُلٌ تَكَلَّمَ بِحَقٍّ عِندَ سُلطَانٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ** ". فَهَذَا شَأنُ الجِهَادِ بِاللِّسَانِ، في شَتمِ الْمُشرِكِينَ وهِجَائِهِم، وإِظهَارِ دِينِ اللهِ، والدُّعَاءِ إِلَيهِ [(٢)] .

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/٢٩٤) .

(٢) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ص (٢٠٦ – ٢٠٧) باختصار يسير .

وقَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَيْ : وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ [(١)].

وقَالَ القَاضِي البَيضَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ فِي طَاعَتِهِ، والْمُجَاهَدَةُ بِالأَموَالِ والأَنفُسِ تَصلُحُ لِلعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ والبَدَنِيَّةِ بِأَسرِهَا [(٢)] .

وقَالَ أَبُو السُّعُودِ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ فِي طَاعَتِهِ عَلَى تَكَثُّرِ فُنُونِهَا : مِنَ العِبَادَاتِ البَدَنِيَّةِ الْمَحضَةِ، والْمَالِيَّةِ الصِّرفَةِ، والْمُشتَمِلَةِ عَلَيهَا مَعاً، كَالحَجِّ والجِهَادِ [(٣)] .

وقَالَ العَلَّامَةُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي حَقِّ مَن يَهجُرُ السَّيِّئَاتِ والْمُنكَرَاتِ ويُعرِضُ عَنهَا، ولَكِنَّهُ لا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ إِزَالَتِهَا؛ قَالَ : فَهَؤُلَاءِ وإِن كَانُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ هَجَرُوا السَّيِّئَاتِ، فَلَيسُوا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي إِزَالَتِهَا .. وقَد قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾. وقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [(٤)] .

وقَالَ العَلَّامَتَانِ الشَّوكَانِيُّ وصِدِّيقُ حَسَن خَانَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ : ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أَيْ : فِي طَاعَتِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ؛ وَيَدْخُلُ فِي الْجِهَادِ الأَعْمَالُ

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/٣٩٠) .

(٢) «تفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥/١٣٨) .

(٣) «تفسير أبي السعود» (٨/١٢٤) .

(٤) «محاسن التأويل» (٧/٣٥٥) .

الصَّالِحَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، فَإِنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ مَا يُجَاهِدُ الْمَرءُ بِهِ نَفسَهُ حَتَّى يَقُومَ بِهِ، ويُؤَدِّيهِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (١).

قُلتُ : وعَلَى رَأسِ هَذِهِ الأَعمَالِ : الدَّعوَةُ إلى اللهِ وإلى سَبِيلِهِ، والَّتِي هِيَ أُمُّ الأَعمَالِ، وسَبَبٌ لإِقَامَةِ جَمِيعِ الأَعمَالِ، حَتَّى الجِهَادِ بِالسَّيفِ، فَإِنَّهُ لِلقِيَامِ بِهِ، لَا بُدَّ مِنَ التَّرغِيبِ فِيهِ بِبَيَانِ فَضَائِلِهِ، والتَّرهِيبِ مِنْ تَركِهِ بِبَيَانِ عُقُوبَةِ تَركِهِ. إِذَنْ فَالِاستِدلَالُ بِهَذِهِ الآيَاتِ عَلَى ضَرُورَةِ القِيَامِ بِجِهَادِ اللِّسَانِ بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ لَيسَ خَارِجاً عَمَّا تَضَمَّنَتهُ الآيَاتُ الكَرِيمَاتُ، بَلْ هُوَ دَاخِلٌ فِيهَا بِالقَصدِ الأَوَّلِ، قَبلَ القِتَالِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وقَالَ القَاضِي العُثمَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أَيْ فِي طَاعَتِهِ، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفعُولُ ﴿ وَجَٰهَدُواْ ﴾ مَحذُوفاً مَنوِيًّا، يَعنِي : جَاهَدُوا العَدُوَّ الْمُحَارِبَ، أَوِ الشَّيطَانَ أَوِ الهَوَى، وجَازَ أَنْ يُجعَلَ لَازِماً، مُبَالَغَةً فِي الجُهدِ، وجَازَ أَنْ يُرَادَ بِالْمُجَاهَدَةِ العِبَادَاتُ القَلبِيَّةُ والسِّرِّيَّةُ، والبَدَنِيَّةُ والْمَالِيَّةُ، فَهَذِهِ الآيَةُ لِامتِثَالِ جَمِيعِ الأَوَامِرِ، والِانتِهَاءِ عَن جَمِيعِ الْمَنَاهِي، إِمَّا عِبَارَةً : إِنْ كَانَ الْمُرَادُ مُطلَقَ الْمُجَاهَدَةِ، وإِمَّا دَلَالَةً : إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ القِتَالَ مَعَ الكُفَّارِ، فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ نَفسَهُ ومَالَهُ لِإِصلَاحِ العَالَمِ، وإِخلَائِهِ مِنَ الفَسَادِ، وإِعلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ، وإِفشَاءِ الدِّينِ، فَإِنَّهُ يُصلِحُ أَوَّلاً نَفسَهُ، بِإِتيَانِ الْمَأمُورَاتِ، وانتِهَاءِ الْمَنَاهِي بِطَرِيقِ الأَولَى (٢).

وقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ السَّبَبُ الوَحِيدُ لِلقِيَامِ بِذِروَةِ سَنَامِ الدِّينِ، وهُوَ : الجِهَادُ البَدَنِيُّ والْمَالِيُّ والقَولِيُّ، جِهَادُ الكُفَّارِ بِالسَّيفِ والسِّنَانِ، وجِهَادِ الكُفَّارِ والْمُنَافِقِينَ والْمُنحَرِفِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وفُرُوعِهِ بِالحِكمَةِ والحُجَّةِ والبُرهَانِ؛ فَكُلَّمَا قَوِيَ إِيمَانُ العَبدِ عِلماً ومَعرِفَةً، وإِرَادَةً وعَزِيمَةً، قَوِيَ جِهَادُهُ، وقَامَ بِكُلِّ مَا يَقدِرُ عَلَيهِ بِحَسَبِ حَالِهِ ومَرتَبَتِهِ، فَنَالَ الدَّرَجَةَ العَالِيَةَ والْمَنزِلَةَ الرَّفِيعَةَ؛ وإِذَا ضَعُفَ الإِيمَانُ، تَرَكَ العَبدُ مَقدُورَهُ مِنَ

---

(١) «فتح القدير» (٥/٨٠) و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٣/١٥٥) .

(٢) «التفسير المظهري» (٩/٥٨) و«مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٣/٣٠٩) .

الجِهَادِ القَولِيِّ بِالعِلمِ والحُجَّةِ، والنَّصِيحَةِ، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ، وضَعُفَ جِهَادُهُ البَدَنِيُّ، لِعَدَمِ الحَامِلِ لَهُ عَلَى ذَلِكَ، ولِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾. فَصَادِقُ الإِيمَانِ يَحمِلُهُ صِدقُهُ عَلَى القِيَامِ بِهَذِهِ الْمَرتَبَةِ، الَّتِي هِيَ مَرتَبَةُ الطَّبَقَتَينِ العَالِيَتَينِ بَعدَ النَّبِيِّينَ :

(١) طَبَقَةُ الصِّدِّيقِينَ : الْمُجَاهِدِينَ بِالعِلمِ وَالحُجَّةِ والتَّعلِيمِ والنَّصِيحَةِ .

(٢) وطَبَقَةُ الشُّهَدَاءِ : الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ قُتِلُوا أَو مَاتُوا مِن دُونِ قَتلٍ؛ وهَذَا كُلُّهُ مِن ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ، ومِنْ تَمَامِهِ وكَمَالِهِ؛ وبِالجُملَةِ، فَخَيرُ الدُّنيَا والآخِرَةِ كُلُّهُ فَرعٌ عَنِ الإِيمَانِ ومُتَرَتِّبٌ عَلَيهِ، والهَلَاكُ والنَّقصُ إِنَّمَا يَكُونُ بِفَقدِ الإِيمَانِ ونَقصِهِ؛ واللهُ الْمُستَعَانُ [(١)] .

قُلتُ : انْظُرْ كَيفَ أَدخَلَ هَذَا الإِمَامُ الجَلِيلُ الجِهَادَ القَولِيَّ بِالدَّعوَةِ والنَّصِيحَةِ، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ، فِي الْمَفهُومِ العُرفِيِّ لِلجِهَادِ، الَّذِي هُوَ ذِروَةُ سَنَامِ الإِسلَامِ، وجَعَلَ مَرتَبَةَ القَائِمِينَ بِهِ فِي طَبَقَةِ الصِّدِّيقِينَ الْمُجَاهِدِينَ؛ واستَدَلَّ بِالآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى صِدقِ إِيمَانِ القَائِمِينَ بِهَذَا الجِهَادِ، وعَلَى ضَعفِ إِيمَانِ القَاعِدِينَ عَنهُ . قُلتُ : وهَذَا بِعَينِهِ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَهلُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، مُوَافَقَةً لِفَهمِ سَلَفِ الأُمَّةِ وعُلَمَائِهَا لِنُصُوصِ الوَحيِ.

وقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ هَذاَ أَيضاً مَعطُوفٌ عَلَى قَولِهِ : ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾، أَيْ : هُم مَعَ إِيمَانِهِم بِاللهِ ﷻ ويَقِينِهِم وعَدَمِ ارتِيَابِهِم، يُرِيدُونَ أَنْ يُصلِحُوا عِبَادَ اللهِ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يُجَاهِدُونَ أَعدَاءَ اللهِ لِيَرجِعُوا إِلَى دِينِ اللهِ، ويَستَقِيمُوا عَلَيهِ، لَا لِلِانتِقَامِ مِنهُم، ولَا لِلِانتِصَارِ لِأَنفُسِهِم، ولَكِن لِيَدخُلُوا فِي دِينِ اللهِ ﷻ [(٢)] .

---

(١) «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» (١/٥٤) .

(٢) «تفسير العثيمين/ سورة الحجرات» ص (٦٥) .

(٥) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

قَالَ الفَخرُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : بَيَّنَ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ كَانَ قَوِيًّا فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّه **بِيَدِهِ، وَلِسَانِهِ** لَوْمَةَ لَائِمٍ [(١)] .

وقَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ **يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ** ﴾ أَيْ : لَا يَرَدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، **وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ**، لَا يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمُ لَائِمٍ، وَلَا عَذَلُ عَاذِلٍ [(٢)] .

وقَالَ العَلَّامَةُ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ **يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾، بِأَموَالِهِم وأَنفُسِهِم، بِأَقوَالِهِم وأَفعَالِهِم [(٣)] .

قُلتُ : انْظُرْ إلى الأَئِمَّةِ الرَّازِيِّ وابنِ كَثِيرٍ والسَّعدِيِّ وغَيرِهِم من أَئِمَّةِ السَّلَفِ والخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللهُ، كَيفَ أَدخَلُوا الجِهَادَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وغَيرِهِ، في قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ وهَذَا مِن كَمَالِ فِقهِهِم في الدِّينِ، وتَمَامِ مَعرِفَتِهِم بِمُرَادِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كَلَامِهِ؛ فَإِذَا وَافَقَهُمُ الدُّعَاةُ إلى اللهِ والْمُبَلِّغُونَ عَنهُ عَلَى هَذَا الفَهمِ، واستَعمَلُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي التَّرهِيبِ مِنْ تَركِ الدَّعوَةِ، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ، دُونَ حَصرٍ لِلجِهَادِ بِهَذَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، فَإِنَّهُم لَا يَكُونُونَ قَد خَرَجُوا عَن فَهمِ السَّلَفِ وخَالَفُوهُم، بَلْ يَكُونُونَ قَد أَحيَوا فَهمَ السَّلَفِ ووَافَقُوهُم؛ واللهُ الْمُوَفِّقُ لِلفَهمِ الصَّحِيحِ، والعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ** ﴾.

---

(١) «التفسير الكبير» (١٢/٣٨١) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/١٣٥) .

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» ص (٢٣٥) .

(٦) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[الحج : ٧٨].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ أَيْ : بِأَمْوَالِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ [(١)] .

وقَالَ الإِمَامُ الوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ حَمَلُوا الجِهَادَ هَهُنَا عَلَى جَمِيعِ أَعمَالِ الطَّاعَةِ، وقَالُوا : حَقُّ الجِهَادِ أَنْ يَكُونَ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ خَالِصَةٍ للهِ ﷻ [(٢)] .

وقَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ الجِهَادُ : بَذلُ الوُسعِ فِي حُصُولِ الغَرَضِ الْمَطلُوبِ؛ فَالجِهَادُ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ : هُوَ القِيَامُ التَّامُّ بِأَمرِ اللهِ، ودَعوَةِ الخَلقِ إلى سَبِيلِهِ، بِكُلِّ طَرِيقٍ مُوصِلٍ إلى ذَلِكَ : مِنْ نَصِيحَةٍ وتَعلِيمٍ وقِتَالٍ وأَدَبٍ وزَجرٍ ووَعْظٍ، وغَيرِ ذَلِكَ [(٣)] .

وقَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قَوْلُهُ : ﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ : مَعْنَاهُ أَنَّ التَّكْلِيفَ تَشْرِيفٌ مِنَ اللَّه ﷻ لِلْعَبْدِ، فَلَمَّا خَصَّكُمْ بِهَذَا التَّشْرِيفِ فَقَدْ خَصَّكُمْ بِأَعْظَمِ التَّشْرِيفَاتِ، وَاخْتَارَكُمْ لِخِدْمَتِهِ وَالِاشْتِغَالِ بِطَاعَتِهِ، فَأَيُّ رُتْبَةٍ أَعْلَى مِنْ هَذَا، وَأَيُّ سَعَادَةٍ فَوْقَ هَذَا، وَيُحْتَمَلُ فِي ﴿ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ خَصَّكُمْ بِالْهِدَايَةِ وَالْمَعُونَةِ وَالتَّيْسِيرِ [(٤)] .

وقَالَ العَلَّامَةُ أَبو زَهرَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : فِي هَذِهِ الآيَةِ الْمُطَالَبَةُ بِالنَّفعِ الإِنسَانِيِّ بِتَبلِيغِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، رِسَالَةِ الإِنسَانِيَّةِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً، وذَلِكَ بِالدَّعوَةِ إلى الإِسلَامِ، وهُوَ جِهَادٌ، وتَذلِيلِ العَقَبَاتِ فِي سَبِيلِ هَذِهِ الدَّعوَةِ، وإِزَالَةِ كُلِّ الْمُحَاجَزَاتِ الَّتِي تُحَاجِزُ دُونَهَا، ولَو كَانَ ذَلِكَ بِالحَربِ؛ ولِذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾. فَالجِهَادُ مُفَاعَلَةٌ، بِبَذلِ

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/٥٥) .
(٢) «التفسير الوسيط» (٣/٢٨١) .
(٣) «تفسير السعدي» (٥٤٦) .
(٤) «التفسير الكبير» (٢٣/٢٥٥) .

الجُهدِ، فَالْمُؤمِنُ يَبذُلُ جُهدَهُ فِي الدَّعوَةِ إلى اللَّهِ، والْمُقَاوِمُ مِنَ الكُفَّارِ يَبذُلُ جُهدَهُ فِي الصَّدِّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ، ومُقَاوَمَةِ الحَقِّ (١).

وقَولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ هُوَ تَعلِيلٌ لِلأَمرِ بِالجِهَادِ، ودَاعِيَةٌ إلى امتِثَالِ هَذَا الأَمرِ، لِأَنَّهُ صَادِرٌ مِنَ اللهِ الَّذِي اجْتَبَى، أَي اختَارَ هَذِهِ الأُمَّةَ، واصْطَفَاهَا مِن بَينِ الأُمَمِ لِحَملِ رِسَالَةِ الإِسلَامِ، آخِرِ الرِّسَالَاتِ، وأَكمَلِهَا، فَهُم لِهَذَا مُطَالَبُونَ بِأَنْ يَكُونُوا رُسُلاً يَحمِلُونَ دَعوَةَ الإِسلَامِ، وجُنُوداً يُدَافِعُونَ عَنهَا، ويَبذُلُونَ النَّفسَ والْمَالَ فِي سَبِيلِهَا .. وهَذِهِ الْمَنزِلَةُ الَّتِي رَفَعَ اللهُ بِهَا قَدرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، وأَعلَى بِهَا شَأنَهَا فِي النَّاسِ، وجَعَلَ لَهَا بِهَا مَا لِلرُّسُلِ فِي أَقوَامِهِم، هَذِهِ الْمَنزِلَةُ العَالِيَةُ الرَّفِيعَةُ، هِيَ أَمَانَةٌ، لَا يَحمِلُهَا إِلَّا أُولُو العَزمِ مِنَ النَّاسِ، ومِنْ هُنَا كَانَ وَاجِباً عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ أَنْ يَنهَضَ بِحَملِ هَذَا العِبءِ، وأَن يَرَى النَّاسُ مِنهُ، فِي قَولِهِ وعَمَلِهِ، مِن استِقَامَةِ الخُلُقِ، واعتِدَالِ السُّلُوكِ مَا يَرَى النَّاسُ فِي الأَنبِيَاءِ والرُّسُلِ .. فَيَا لَيتَ قَومِي يَعلَمُونَ هَذَا الشَّرَفَ العَظِيمَ، الَّذِي قَلَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِيَاهُم، وهَذَا الوَاجِبَ الكَرِيمَ الَّذِي أَنَاطَهُ بِهِم، وهَذَا الْمَقَامَ الرَّفِيعَ الَّذِي أَقَامَهُم عَلَى النَّاسِ فِيهِ ! (٢).

(٧) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ **[العنكبوت : ٦٩]**.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : عَلَّقَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الهِدَايَةَ بِالجِهَادِ، فَأَكمَلُ النَّاسِ هِدَايَةً أَعظَمُهُم جِهَاداً، وأَفرَضُ الجِهَادِ جِهَادُ النَّفسِ، وجِهَادُ الهَوَى، وجِهَادُ الشَّيطَانِ، وجِهَادُ الدُّنيَا؛ فَمَن جَاهَدَ هَذِهِ الأَربَعَةَ فِي اللهِ هَدَاهُ اللهُ سُبُلَ رِضَاهُ الْمُوصِلَةَ إلى جَنَّتِهِ، ومَنْ تَرَكَ الجِهَادَ فَاتَهُ مِنَ الهُدَى بِحَسَبِ مَا عَطَّلَ مِنَ الجِهَادِ؛ نَجِدُ هَذَا الْمَعنَى فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ (٣). وقَد حُذِفَ الْمَفعُولُ بِهِ لِلإِيجَازِ، وهُوَ هُنَا فِي قَولِهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾؛ فَقَد أَطلَقَ الْمُجَاهَدَةَ ولَم يُقَيِّدهَا بِمَفعُولٍ، لِتَتَنَاوَلَ كُلَّ مَا يَجِبُ

(١) «زهرة التفاسير» (٩/٥٠٣٥ – ٥٠٣٩) .
(٢) «التفسير القرآني للقرآن» (٩/١١٠٥– ١١٠٦) .
(٣) «الفوائد» ص (٥٩) .

مُجَاهَدَتُهُ : مِنَ النَّفسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، والشَّيطَانِ؛ وهَذَا أَحسَنُ مِن تَقدِيرِ مَفعُولٍ بِهِ خَاصٍّ، كَمَا فَعَلَ الكَثِيرُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، لِيَتَنَاوَلَ جَمِيعَ الطَّاعَاتِ والْمُزدَلِفَاتِ [(١)] .

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : وقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ وقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ وَكُلٌّ مِنْهُمْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجَاهَدَ : إمَّا بِيَدِهِ، أَوْ **بِلِسَانِهِ**، فَيَكُونُ اللَّهُ قَدْ هَدَاهُمْ، وَكُلُّ مَنْ هَدَاهُ فَهُوَ مُهْتَدٍ، فَيَجِبُ اتِّبَاعُهُ بِالْآيَةِ [(٢)] .

وقَالَ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَالجُهدُ نِهَايَةُ الطَّاقَةِ والقُدرَةِ، والجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى يَتَضَمَّنُ شَيئَينِ : **أَحَدُهُمَا** : استِفرَاغُ الوُسعِ والطَّاقَةِ؛ **والثَّانِي** : أَن يَكُونَ ذَلِكَ فِي تَحصِيلِ مَحبُوبَاتِ اللهِ، ودَفعِ مَكرُوهَاتِهِ [(٣)].

وقَالَ الشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾ أَيْ : جَاهَدُوا فِي شَأْنِ اللَّهِ لِطَلَبِ مَرْضَاتِهِ، وَرَجَاءِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾، أَي : الطَّرِيقَ الْمُوصِلَ إِلَيْنَا. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : هِيَ مَكِّيَّةٌ، نَزَلَتْ قَبْلَ فَرْضِ الْجِهَادِ الْعُرْفِيِّ، وَإِنَّمَا هُوَ جِهَادٌ عَامٌّ فِي دِينِ اللَّهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ [(٤)] .

وقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ بَادِيسَ الصُّنهَاجِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الآيَةِ : حَقٌّ عَلَى حِزبِ القُرآنِ الدَّاعِينَ بِهِ، والدَّاعِينَ إِلَيهِ، أَن يَقتَدُوا بِالأَنبِيَاءِ والْمُرسَلِينَ فِي الصَّبرِ عَلَى الدَّعوَةِ، والْمُضِيِّ فِيهَا، والثَّبَاتِ عَلَيهَا، وأَن يُدَاوُوا أَنفُسَهُم عِندَ أَلَمِهَا واضطِرَابِهَا، بِالتَّأَسِّي بِأُولَئِكَ السَّادَةِ الأَخيَارِ؛ وقَد وَعَدَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِالهِدَايَةِ والنَّصرِ؛ وفِي هَذَا بِشَارَةٌ لِلدُّعَاةِ مِن أُمَّتِهِ مِن بَعدِهِ، السَّائِرِينَ فِي الدَّعوَةِ بِالقُرآنِ، وإِلَى القُرآنِ عَلَى نَهجِهِ، أَن يَهدِيَهُم ويَنصُرَهُم [(٥)] .

---

(١) «إعراب القرآن وبيانه» (٤٦٢/٧) .

(٢) «إعلام الموقعين» (١٠٢/٤ وما بعدها) .

(٣) «قاعدة في المحبة» ص (٩٣) .

(٤) «فتح القدير» (٢٤٥/٤) .

(٥) «تفسير ابن باديس» (١٧٧/١) .

وقالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾. يَعني جِهَادَ الأَنفُسِ في الصَّبرِ عَلَى إِذَايَةِ الكُفَّارِ، واحتِمَالِ الخُرُوجِ عَنِ الأَوطَانِ، وغَيرِ ذَلِكَ. وقِيلَ : يَعني القِتَالَ، وذَلِكَ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ القِتَالَ لَم يَكُن مَأمُوراً بِهِ حِينَ نُزُولِ الآيَةِ [(١)] .

وقالَ الْمُنتَصِرُ بِاللهِ الكَتَّانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : الجِهَادُ يَعني : أَن تَبذُلَ مِن نَفسِكَ جُهدَهَا وطَاقَتَهَا، فَإِن كَانَ بِالسَّيفِ فَهُوَ القِتَالُ، وإِن كَانَ بِاللِّسَانِ فَهُوَ الجِهَادُ بِاللِّسَانِ، وإِن كَانَ بِالعِبَادَةِ فَهُوَ الجِهَادُ بِالعِبَادَةِ، وإِن كَانَ بِالدَّعوَةِ إلى اللهِ فَهُوَ بِالدَّعوَةِ إلى اللهِ؛ .. فَالجِهَادُ كَمَا قَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وكَمَا بَيَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يَكُونُ بِالسَّيفِ، ويَكُونُ بِاللِّسَانِ، ويَكُونُ بِالعَمَلِ، ويَكُونُ بِالْمَالِ، ويَكُونُ بِالرَّأيِ، ويَكُونُ بِكُلِّ مَا يَملِكُهُ الإِنسَانُ .. فَالجِهَادُ هُنَا يَعُمُّ كُلَّ أَنوَاعِهِ؛ وهَذَا الجِهَادُ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنهُ : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾[(٢)].

(٨) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥١ – ٥٢] .

قَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمُرَادُ بَذْلُ الْجُهْدِ فِي الْأَدَاءِ وَالدُّعَاءِ. – يَعنِي : الدَّعوَةَ والتَّبلِيغَ –. وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمُرَادُ الْقِتَالُ، وَقَالَ آخَرُونَ : كِلَاهُمَا، وَالْأَقْرَبُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، وَالْأَمْرُ بِالْقِتَالِ وَرَدَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِزَمَانٍ؛ وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لِأَنَّهُ لَوْ بَعَثَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا لَوَجَبَ عَلَى كُلِّ نَذِيرٍ مُجَاهَدَةُ قَرْيَتِهِ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتُ، وَكَثُرَ جِهَادُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَظُمَ، فَقَالَ لَهُ : ﴿ وَجَاهِدْهُم ﴾ بِسَبَبِ كَوْنِكَ نَذِيرَ كَافَّةِ الْقُرَى، ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ جَامِعًا لِكُلِّ مجاهدة [(٣)] .

---

(١) «معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٣/٣٤٦) .

(٢) «تفسير المنتصر الكتاني» (١٠/١٥٩) .

(٣) «التفسير الكبير» (٢٤/٤٧٤) و«تفسير القرطبي» (١٣/٥٨) .

وقَالَ البَيضَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ نَبيّاً يُنذِرُ أَهلَهَا، فَيَخِفُّ عَلَيكَ أَعبَاءُ النُّبُوَّةِ، ولكِن شِئنَا أَن نَجمَعَ لَكَ فَضَائِلَ جَمِيعِ الْمُرسَلِينَ بِالرِّسَالَةِ إلى كَافَّةِ العَالَمِينَ، فَقَصَرنَا الأَمرَ عَلَيكَ، وعَظَّمنَاكَ بِهِ، فَتَكُونَ وَحدَكَ كَكُلِّهِم، إجلالاً لَكَ، وتَعظِيماً لِشَأنِكَ، وتَفضِيلاً لَكَ عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ، فَقَابِل ذَلِكَ بِالثَّبَاتِ والِاجتِهَادِ في الدَّعوَةِ، وإظهَارِ الحَقِّ. ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ فِيمَا يُرِيدُونَكَ عَلَيهِ، وهُوَ تَهيِيجٌ لَهُ ﷺ ولِلمُؤمِنِينَ. ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ بِالقُرآنِ؛ والْمَعنَى أَنَّهُم يَجتَهِدُونَ في إبطَالِ حَقِّكَ، فَقَابِلهُم بِالِاجتِهَادِ في مُخَالَفَتِهِم، وإزَاحَةِ بَاطِلِهِم. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لِأَنَّ مُجَاهَدَةَ السُّفَهَاءِ بِالحُجَجِ أَكبَرُ مِن مُجَاهَدَةِ الأَعدَاءِ بِالسَّيفِ، أَو لِأَنَّهُ جِهَادٌ مَعَ كُلِّ الكَفَرَةِ، لِأَنَّهُ مَبعُوثٌ إلى كَافَّةِ القُرَى [(١)] .

وقَالَ أَبُو السُّعُودِ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ أَيْ فَقَابِل ذَلِكَ بِالثَّبَاتِ والِاجتِهَادِ في الدَّعوَةِ وإظهَارِ الحَقِّ؛ ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أَيْ : بِالقُرآنِ، بِتِلَاوَةِ مَا في تَضَاعِيفِهِ مِنَ القَوَارِعِ والزَّوَاجِرِ والْمَوَاعِظِ، وتَذكِيرِ أَحوَالِ الأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ؛ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ فَإِنَّ دَعوَةَ كُلِّ العَالَمِينَ عَلَى الوَجهِ الْمَذكُورِ جِهَادٌ كَبِيرٌ، لَا يُقَادَرُ قَدرُهُ كَمّاً وكَيفاً[(٢)]. كَمَا أَنَّ مُجَاهَدَةَ السُّفَهَاءِ بِالحُجَجِ أَكبَرُ مِن مُجَاهَدَةِ الأَعدَاءِ بِالسَّيفِ؛ وإنَّمَا لَم تُحمَلِ الْمُجَاهَدَةُ عَلَى القِتَالِ بِالسَّيفِ، لِأَنَّهُ إنَّمَا وَرَدَ الإِذْنُ بَعدَ الهِجرَةِ بِزَمَانٍ، والسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ [(٣)].

والخِطَابُ وإنْ كَانَ لَهُ ﷺ، فَالحُكمُ شَامِلٌ لِأُمَّتِهِ؛ وكَمَا أَنَّ الجِهَادَ بِالقُرآنِ العَظِيمِ هُوَ فَرضٌ عَلَيهِ، فَكَذَلِكَ هُوَ فَرضٌ عَلَى أُمَّتِهِ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ قُدوَةٌ لِأُمَّتِهِ فِيمَا اشتَمَلَت عَلَيهِ الآيَةُ مِن نَهيٍ وأَمرٍ . وقَد سَمَّى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الجِهَادَ بِالقُرآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴾؛ وفي هَذَا مَنقَبَةٌ كُبرى لِلقَائِمِينَ بِالدَّعوَةِ إلى اللهِ بِالقُرآنِ العَظِيمِ. وفي ذَلِكَ نِعمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللهِ عَلَيهِم، حَيثُ

---

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٤/١٢٧-١٢٨) «تفسير النسفي» (٢/٥٤٣) . وانظر «تفسير ابن كثير» (٦/١١٦) .

(٢) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» (٦/٢٢٥) .

(٣) «روح البيان» (٦/٢٢٧) .

يَسَّرَهُم لِهَذَا الجِهَادِ، حَتَّى لَيَصِحَّ أَن يُسَمَّوا بِهَذَا الِاسمِ الشَّرِيفِ «مُجَاهِدِينَ»؛ فَحَقٌّ عَلَيهِم أَنْ يَقدُرُوا هَذِهِ النِّعمَةَ، ويُؤَدُّوا شُكرَهَا بِالقَولِ والعَمَلِ، والإِخلَاصِ والصَّبرِ والثَّبَاتِ واليَقِينِ (١) .

وقَالَ ابنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَبَعْدَ أَنْ حَذَّرَهُ مِنَ الْوَهَنِ فِي الدَّعْوَةِ أَمَرَهُ بِالْحِرْصِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهَا. وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ، وَهُوَ : الِاسْمُ الْجَامِعُ لِمُنْتَهَى الطَّاقَةِ. وَصِيغَةُ الْمُفَاعَلَةِ فِيهِ لِيُفِيدَ مُقَابَلَةَ مَجْهُودِهِمْ بِمَجْهُودِهِ، فَلَا يَهِنُ وَلَا يَضْعُفُ، وَلِذَلِكَ وُصِفَ بِالْجِهَادِ الْكَبِيرِ، أَيِ الْجَامِعِ لِكُلِّ مُجَاهَدَةٍ (٢) .

(٩) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٤].

قَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللهُ : وَقَدْ عَطَفَ عَلَيْهِمَا – أَيْ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ ورَسُولِهِ – الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ مُنْكِرًا؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرُ آيَاتِهِمَا؛ وَنُكْتَةُ تَنْكِيرِهِ وَإِبْهَامِهِ : **إِفَادَةُ أَنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، فَإِنَّ تَارِكَهُ لِأَجْلِ حُبِّ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ وَتَفْضِيلِهَا عَلَيْهِ يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ الَّذِي فِي الْآيَةِ.** وَالْجِهَادُ أَنْوَاعٌ تَرْجِعُ إِلَى جِنْسَيْنِ : الْجِهَادُ بِالْمَالِ، وَالْجِهَادُ بِالنَّفْسِ؛ وَالْقِتَالُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْجِنْسِ الثَّانِي، وَمِنْهَا أَنْوَاعٌ أُخْرَى عِلْمِيَّةٌ وَعَمَلِيَّةٌ (٣) .

---

(١) «تفسير ابن باديس» (١/١٨٨ – ١٨٩) .
(٢) «التحرير والتنوير» (١٩/٥٠ – ٥١) .
(٣) «تفسير المنار» (١٠/٢١٠) .

قُلتُ : ولَا شَكَّ أَنَّ جِهَادَ الدَّعوَةِ والتَّبليغِ عَنِ اللهِ ورَسُولِهِ هُوَ أَكبَرُ وَأَعظَمُ أَنوَاعِ الجِهَادِ بِالنَّفسِ، وهُوَ جِهَادُ جَمِيعِ الأَنبِيَاءِ، وهُوَ الْمَقصُودُ الأَوَّلُ مِن بِعثَتِهِم، وهُوَ الْمَقصُودُ مِن بِعثَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وسَبَبُ تَفضِيلِهَا عَلَى بَاقِي الأُمَمِ؛ فَمَن تَرَكَهُ لِأَجْلِ حُبِّ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ وَتَفْضِيلِهَا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْوَعِيدَ الَّذِي فِي الْآيَةِ . نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ .

السَّادِسُ : «الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ» :

قُلتُ : لَم يَرِدْ فِي القَرآنِ الكَرِيمِ تَعَلُّقُ مُصطَلَحِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» بِمَصدَرِ «الخُرُوجِ»، وإِنَّمَا وَرَدَ ذِكرُ «الخُرُوجِ» فِيهِ مُطلَقاً، غَيرَ أَنَّ مُنَاسَبَةَ نُزُولِ الآيَاتِ مَعرُوفَةٌ، وهِيَ الخُرُوجُ لِغَزوَةِ تَبُوكَ، حَيثُ أُمِرُوا بِالخُرُوجِ لِقِتَالِ الرُّومِ، مَعَ شِدَّةِ الأَحوَالِ الْمُخَالِفَةِ، مِنَ الحَرِّ الشَّدِيدِ، والسَّفَرِ البَعِيدِ، والعَدُوِّ الكَثِيرِ، وغَيرِ ذَلِكَ؛ وقَد عَلِمَ اللهُ ﷻ أَنَّهُ لَن يَكُونَ قِتَالٌ، إِلَّا أَنَّهُ امتَحَنَهُم بِهَذَا الخُرُوجِ، لِيَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، ولِحِكَمٍ أُخرَى ذَكَرَهَا الأَئِمَّةُ؛ وهَذَا «الخُرُوجُ» سَمَّاهُ اللهُ ﷻ جِهَادًا ونَفَراً فِي سَبِيلِ اللهِ، وقَد سَبَقَ بَيَانُ الغَايَةِ مِن تَشرِيعِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأَنَّهُ إِعلَاءُ كَلِمَةِ اللهِ، ونُصرَةُ دِينِهِ، بِالدَّعوَةِ إِلَيهِ، والذَّبِّ عَنهُ وعَن أَهلِهِ؛ وهَذِهِ الغَايَةُ يَستَوِي فِيهَا الخُرُوجُ لِلدَّعوَةِ بِاللِّسَانِ، والخُرُوجُ لِلدَّعوَةِ بِالسِّنَانِ؛ بَلْ الأَوَّلُ غَايَةٌ لِلآخَرِ، ومُقَدَّمٌ عَلَيهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾[التوبة : ٤٦].

قَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : أَيْ : لَوْ أَرَادُوا الْجِهَادَ لَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ السَّفَرِ[١] . فَالإِعدَادُ لِلعَمَلِ هُوَ عَلَامَةُ التَّوفِيقِ، وأَمَارَةُ الصِّدقِ فِي القَصدِ .

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : لَم يُرِيدُوا الخُرُوجَ فِي طَاعَةِ اللهِ، ولَم يَستَدعُوا لَهُ، ولَا أَخَذُوا أُهبَةَ ذَلِكَ[٢].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٥٦/٨) .

(٢) «شفاء العليل» ص (١٠١) .

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : كَرِهَ اللَّهُ طَاعَاتِهِمْ، لِخُبْثِ قُلُوبِهِمْ وَفَسَادِ نِيَّاتِهِمْ، فَثَبَّطَهُمْ عَنْهَا وَأَقْعَدَهُمْ، وَأَبْغَضَ قُرْبَهُمْ مِنْهُ وَجِوَارَهُ، لِمَيْلِهِمْ إِلَى أَعْدَائِهِ، فَطَرَدَهُمْ عَنْهُ وَأَبْعَدَهُمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْ وَحْيِهِ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَأَشْقَاهُمْ وَمَا أَسْعَدَهُمْ، وَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِحُكْمٍ عَدْلٍ لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونُوا مِنَ التَّائِبِينَ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[1].

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيضاً : وَكَذَلِكَ صُحْبَةُ أَرْبَابِ الْعَزَائِمِ، وَالْمُشَمِّرِينَ إِلَى اللَّحَاقِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، يَعْرِفُ بِهِ مَا مَعَهُ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ . وَالَّذِي يَمْلِكُ بِهِ ذَلِكَ كُلَّهُ خُرُوجُهُ عَنِ الْعَادَاتِ وَالْمَأْلُوفَاتِ، وَتَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى مُفَارَقَتِهَا، وَالْغُرْبَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْغَفْلَةِ وَالْإِعْرَاضِ؛ وَمَا عَلَى الْعَبْدِ أَضَرُّ مِنْ مِلْكِ الْعَادَاتِ لَهُ، وَمَا عَارَضَ الْكُفَّارُ الرُّسُلَ إِلَّا بِالْعَادَاتِ الْمُسْتَقِرَّةِ، الْمَوْرُوثَةِ لَهُمْ عَنِ الْأَسْلَافِ الْمَاضِينَ، فَمَنْ لَمْ يُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى مُفَارَقَتِهَا وَالْخُرُوجِ عَنْهَا، وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْمَطْلُوبِ مِنْهُ، فَهُوَ مَقْطُوعٌ، وَعَنْ فَلَاحِهِ وَفَوْزِهِ مَمْنُوعٌ؛ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾[2].

قُلتُ : هُنَا يَستَشهِدُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الآيَةِ فِي بَابِ أَهَمِّيَّةِ الخُرُوجِ عَن عَوَائِدِ النَّفسِ ومَأْلُوفَاتِهَا، لِلحُصُولِ عَلَى كَمَالِ الإِيمَانِ؛ وهَذَا مِن غَزَارَةِ عِلمِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ وكَمَالِ فَهمِهِ، ووُفُورِ عَقلِهِ؛ حَيثُ فَهِمَ مِنَ «الخُرُوجِ» الْمَأمُورِ بِهِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ الخُرُوجِ لِلغَزوِ؛ وإِنْ كَانَت مُنَاسَبَةُ نُزُولِ الآيَةِ فِي الخُرُوجِ لِلغَزوِ؛ مَشيًا عَلَى قَاعِدَةِ : «العِبرَةُ بِعُمُومِ اللَّفظِ، لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ».

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٣٦٢) .

(٢) «المصدر السابق» (١/١٦٥) .

قُلتُ : وهَكَذَا يَسُوغُ أَنْ يُستَشْهَدَ بِهَذِهِ الآيَةِ في الخُرُوجِ لِإقَامَةِ الدِّينِ بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، كَمَا يَفعَلُهُ الْمُبَلِّغُونَ في زَمَانِنَا، وهُم بِهَذَا الفَهمِ مُتَّبِعُونَ لِفَهْم سَلَفِ الأُمَّةِ وخِيَارِهَا، ولَيسُوا مُبتَدِعِينَ .

وعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :" **مَنْ خَرَجَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَتَنْجِيْزاً لِمَوْعُوْدِ اللهِ، فَهُوَ مِثْلُ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ** " [(١)] .

وقَد نَقَلَ النَّوَوِيُّ ﵀ في أَمثَالِ هَذَا الحَدِيثِ عَنِ العُلَمَاءِ – وأَقَرَّهُم – أَنَّهُم قَالُوا : وَهَذَا الْفَضْلُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي قِتَال الْكُفَّار، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ **خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللهِ** فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ، **وَفِي إِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ** وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ [(٢)] .

السَّابِعُ : «الدَّعوَةُ إِلَى سَبِيلِ اللهِ» :

قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ** ﴾ **[النحل:١٢٥]**.

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ ﵀ : «إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ» يَقُولُ : إلى شَرِيعَةِ رَبِّكَ الَّتِي شَرَعَهَا لِخَلقِهِ، وهُوَ الإِسلاَمُ [(٣)] . وقَالَ القُرطُبِيُّ ﵀ : أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، بِتَلَطُّفٍ وَلِينٍ، دُونَ مُخَاشَنَةٍ وَتَعْنِيفٍ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُوعَظَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ [(٤)] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح (١٩٥٠٥) .
(٢) «شرح مسلم للنووي» (١٣/٢٦) .
(٣) «تفسير الطبري» (١٧/٣٢١) .
(٤) «تفسير القرطبي» (١٠/٢٠٠) .

وقَالَ أَبُو حَيَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَمَرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ بِتَلَطُّفٍ، وَهُوَ أَنْ يَسْمَعَ الْمَدْعُوُّ حُكْمَهُ، وَهُوَ الْكَلَامُ الصَّوَابُ الْقَرِيبُ، الْوَاقِعُ مِنَ النَّفْسِ أَجْمَلَ مَوْقِعٍ[١]. قُلتُ : ولَا خِلَافَ بَينَ الْمُفَسِّرِينَ فِي أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا هُوَ الْمَفهُومُ العَامُّ لِ«سَبِيلِ اللهِ»، وأَنَّهُ دِينُ اللهِ وَشَرعُهُ . واللهُ أَعلَمُ .

الثَّامِنُ : «الرِّبَاطُ فِي سَبِيلِ اللهِ» :

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾[آل عمران : ٢٠٠].

قُلتُ : لَمْ يَرِدْ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ تَعَلُّقُ مُصطَلَحِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» بِمَصدَرِ الرِّبَاطِ، وإِنَّمَا وَرَدَ ذِكرُ الرِّبَاطِ فِيهِ مُطلَقاً؛ غَيرَ أَنَّهُ وَرَدَ التَّرغِيبُ فِيهِ فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، بِإِضَافَتِهِ إلى مُصطَلَحِ «فِي سَبِيلِ اللهِ»؛ وعَلَيهِ حَمَلَهُ الأَئِمَّةُ؛ كَمَا قَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ «بَابُ فَضْلِ رِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ** ﴾» وعَنْ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ :" **رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا** " [٢] .

وقَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَولُهُ : ﴿ **وَرَابِطُواْ** ﴾، مَعنَاهُ : ورَابِطُوا أَعدَاءَكُم وأَعدَاءَ دِينِكُم مِن أَهلِ الشِّركِ «فِي سَبِيلِ اللهِ»[٣]. وَأَصْلُ الرِّبَاطِ : أَنْ يَرْبِطَ هَؤُلَاءِ خُيُولَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ خُيُولَهُمْ، ثُمَّ قِيلَ ذَلِكَ لِكُلِّ مُقِيمٍ فِي ثَغْرٍ يَدْفَعُ عَمَّنْ وَرَاءَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَرْكَبٌ[٤].

وقَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَمَّا الصَّبْرُ فَيَنْدَرِجُ تَحْتَهُ أَنْوَاعٌ : .. وَيَدْخُلُ فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّ الْمُقْدِمَ عَلَيْهِ رُبَّمَا وَصَلَ إِلَيْهِ بِسَبَبِهِ ضَرَرٌ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الجِهَادُ، فَإِنَّهُ

---

(١) «البحر المحيط» (٦/٦١٢) .

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٢) .

(٣) «تفسير الطبري» (٧/٥٠٨) .

(٤) «تفسير الطبري» (٧/٥٠٩) و«تفسير البغوي»(١/٥٦٠) .

تَعْرِيضُ النَّفْسِ لِلْهَلَاكِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمُصَابَرَةُ مَعَ الْمُبْطِلِينَ، وَحَلُّ شُكُوكِهِمْ، وَالْجَوَابُ عَنْ شُبَهِهِمْ، وَالِاحْتِيَالُ فِي إِزَالَةِ تِلْكَ الْأَبَاطِيلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، فَثَبَتَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ ٱصْبِرُواْ ﴾ . تَنَاوَلَ كُلَّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ وَحْدَهُ؛ ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ . تَنَاوَلَ كُلَّ مَا كَانَ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ تَكَلَّفَ الصَّبْرَ وَالْمُصَابَرَةَ إِلَّا أَنَّ فِيهِ أَخْلَاقًا ذَمِيمَةً تَحْمِلُ عَلَى أَضْدَادِهَا، وَهِيَ : الشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ وَالْحِرْصُ، وَالْإِنْسَانُ مَا لَمْ يَكُنْ مُشْتَغِلًا طُولَ عُمُرِهِ بِمُجَاهَدَتِهَا وَقَهْرِهَا، لَا يُمْكِنُهُ الْإِتْيَانُ بِالصَّبْرِ وَالْمُصَابَرَةِ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ فَفِيهِ قَوْلَانِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ أَنْ يَرْبِطَ هَؤُلَاءِ خَيْلَهُمْ فِي الثُّغُورِ، وَيَرْبِطَ أُولَئِكَ خَيْلَهُمْ أَيْضًا، بِحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمَيْنِ مُسْتَعِدًّا لِقِتَالِ الْآخَرِ.

الثَّانِي : أَنَّ مَعْنَى الْمُرَابَطَةِ انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ؛ وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُمْكِنُ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى الْكُلِّ (١) .

وقَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا «الْمُرَابَطَةُ» : فَهِيَ الْمُدَاوَمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالثَّبَاتِ. وَقِيلَ: انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصلاة، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وابْنُ عَبَّاسٍ وَسَهْلُ بْنُ حُنَيف، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظيُّ، وَغَيْرُهُمْ. ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه مَرفُوعاً :" **فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ** ". وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : أَقْبَلَ عليٌّ أَبُو هُرَيْرَةَ يَوْمًا فَقَالَ : **أَتَدْرِي يَا ابْنَ أَخِي فِيمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ؟ قُلْتُ : لَا. قَالَ : **أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ غَزْوٌ يُرَابِطُونَ فِيهِ، وَلَكِنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ يُعَمِّرُونَ الْمَسَاجِدَ، يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ فِي مَوَاقِيتِهَا، ثُمَّ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهَا، فَعَلَيْهِمْ أُنْزِلَتْ** : ﴿ ٱصْبِرُواْ ﴾ أَيْ : عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ أَنْفُسَكُمْ وَهَوَاكُمْ، ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ فِي مَسَاجِدِكُمْ، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فِيمَا عَلَيْكُمْ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

---

(١) «تفسير الرازي» (٩/٧٣ – ٤٧٤) .

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْمُرَابَطَةِ هَاهُنَا مُرَابَطَةُ الْغَزْوِ فِي نُحور الْعَدُوِّ، وَحِفْظُ ثُغور الْإِسْلَامِ وَصِيَانَتُهَا عَنْ دُخُولِ الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوْزَة بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ (١) .

وَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ غَزْوٌ يُرَابَطُ فِيهِ، ولَكِنَّهُ انتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعدَ الصَّلَاةِ . وَدَلِيلُ هَذَا التَّأْوِيلِ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :" **أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ** "(٢). وعَنهُ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :" **مُنْتَظِرُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ كَفَارِسٍ اشْتَدَّ بِهِ فَرَسُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى كَشْحِهِ، وَهُوَ فِي الرِّبَاطِ الْأَكْبَرِ** " (٣) .

وقَالَ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : وعَلَى تَقْدِيرِ تَسْلِيمِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رِبَاطٌ، فَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ بِهِ، وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ؛ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كُلًّا مِنَ الْأَمْرَيْنِ، أَوْ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ (٤).

قُلتُ : العُمُومُ هُوَ الأَولَى؛ لِيَشمَلَ كُلَّ مَنْ رَابَطَ لِحِفظِ ثَغرٍ مِنْ ثُغُورِ الإِسلَامِ، سَوَاءٌ الثُّغُورُ الْمَادِّيَّةُ والْمَعنَوِيَّةُ .

وقَالَ شَمسُ الأَئِمَّةِ السَّرَخسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالْمُرَابَطَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْحَدِيثِ عِبَارَةٌ عَنِ الْمُقَامِ فِي ثَغْرِ الْعَدُوِّ لِإِعْزَازِ الدِّينِ، وَدَفْعِ شَرِّ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ .. وَهَذَا التَّفَاوُتُ : إمَّا بِحَسَبِ التَّفَاوُتِ فِي الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ، فَكُلَّمَا كَانَ الْخَوْفُ أَكْثَرَ كَانَ الثَّوَابُ فِي الْمُقَامِ أَكْثَرَ. أَوْ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ مَنْفَعَةِ الْمُسْلِمِ بِمُقَامِهِ، فَإِنَّ أَصْلَ هَذَا الثَّوَابِ لِإِعْزَازِ الدِّينِ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/١٩٦ - ٢٠٣) .

(٢) «تفسير البغوي» (١/٥٦٠-٥٦١) .

(٣) رواه أحمد في مسنده (٨٦١٠) والطبراني في الأوسط (٨١٤٤)، وقال الهيثمي : وفيه نافع بن سليمان القرشي، وثَّقه أبو حاتم، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) «فتح الباري» (٦/٨٥-٨٦).

وَتَحْصِيلِ الْمَنْفَعَةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِعَمَلِهِ. قَالَ ﷺ :" **خَيْرُ النَّاسِ مَنْ يَنْفَعُ النَّاسَ** ". أَوْ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الْأَوْقَاتِ فِي الْفَضِيلَةِ .. (١) .

وقَالَ أَبو الوَلِيدِ البَاجِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : رِبَاطُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ : هُوَ أَنْ يَتْرُكَ وَطَنَهُ، وَيَلْزَمَ ثَغْرًا مِنَ الثُّغُورِ الْمَخُوفَةِ، لِمَعْنَى الْحِفْظِ، وَتَكْثِيرِ السَّوَادِ (٢) .

وقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَقَوْلُهُ :" **فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ** ". أَيِ الرِّبَاطُ الْمُرَغَّبُ فِيهِ؛ وَأَصْلُ الرِّبَاطِ الحَبسُ عَلَى الشَّيءِ، كَأَنَّهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى هَذِهِ الطَّاعَةِ؛ قِيلَ : وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَفْضَلُ الرِّبَاطِ، كَمَا قِيلَ : الْجِهَادُ جِهَادُ النَّفْسِ؛ وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ الرِّبَاطُ الْمُتَيَسِّرُ الْمُمْكِنُ؛ أَيْ أَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبَاطِ؛ هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْقَاضِي، وَكُلُّهُ حَسَنٌ (٣) .

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ، أَحَدُ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ وَثِقَاتِهَا : الرِّبَاطُ : مُلَازَمَةُ الثُّغُورِ، وَمُوَاظَبَةُ الصَّلَاةِ أَيْضًا .اه فحَصَلَ أَنَّ انْتِظَارَ الصَّلَاةِ رِبَاطٌ لُغَوِيٌّ حَقِيقَةً؛ وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، عَن فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :" **كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ** ". وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرِّبَاطَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَبْقَى ثَوَابُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ .. وَالرِّبَاطُ يُضَاعَفُ أَجْرُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِلنَّمَاءِ إِلَّا الْمُضَاعَفَةُ، وَهِيَ غَيْرُ مَوْقُوفَةٍ عَلَى سَبَبٍ، فَتَنْقَطِعُ بِانْقِطَاعِهِ، بَلْ هِيَ فَضْلٌ دَائِمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا لِأَنَّ أَعْمَالَ الْبِرِّ كُلَّهَا لَا يُتَمَكَّنُ مِنْهَا إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْعَدُوِّ، وَالتَّحَرُّزِ مِنْهُ بِحِرَاسَةِ بَيْضَةِ الدِّينِ، وَإِقَامَةِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ. قُلْتُ : وَجَاءَ فِي انْتِظَارِ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ أَنَّهُ رِبَاطٌ، فَقَدْ يَحْصُلُ لِمُنْتَظِرِ الصَّلَوَاتِ ذَلِكَ الْفَضْلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى (٤) .

---

(١) «شرح السير الكبير» (١/٧) .
(٢) «المنتقى شرح الموطأ» (٣/١٦١) .
(٣) «شرح مسلم» (٣/١٤١) .
(٤) «تفسير القرطبي» (٤/٣٢٣ – ٣٢٧).

قُلتُ : وكَمَا أَنَّ أَعْمَالَ الْبِرِّ كُلَّهَا لَا يُتَمَكَّنُ مِنْهَا إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ كَيدِ الْعَدُوِّ الْمَادِّيِّ، الَّذِي يَسعَى لِقَتلِ الْمُسلِمِينَ وتَخوِيفِهِم؛ كَذَلِكَ لَا يُمكِنُ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِن كَيدِهِ وجُهدِهِ الْمَعنَوِيِّ، وذَلِكَ بِإِبعَادِ الْمُسلِمِينَ عَن دِينِهِم وتَضلِيلِهِم؛ ولَا شَكَّ أَنَّ مُرَابَطَةَ الدُّعَاةِ إلى اللهِ ﷻ عَلَى الثُّغُورِ الَّتِي يَدخُلُ مِنهَا أَعدَاءُ الإِسلَامِ لِتَضلِيلِ الْمُسلِمِينَ، مِن خِلَالِ مَا يُزَيِّنُونَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ، ومَا يُثِيرُونَهُ مِنَ الشُّبُهَاتِ، لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِن أَعظَمِ الرِّبَاطِ، إِذْ فِتنَةُ الْمُسلِمِينَ عَن دِينِهِم أَشَدُّ عَلَيهِم مِن قَتلِهِم؛ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾. والْمُرَابَطَةُ عَلَى هَذَا الثَّغرِ أَشَدُّ أَهَمِّيَّةً مِن حِفظِ الدَّمِ والْمَالِ، وكِلَاهُمَا مُهِمٌّ، ولَكِنَّ حِفظَ الدِّينِ هُوَ أَولَى الضَّرُورِيَّاتِ بِالْمُرَابَطَةِ لِحِفظِهِ؛ فَنَرجُو اللهَ ﷻ أَنْ يَتَحَصَّلَ هَذَا الثَّوَابَ العَظِيمَ كُلُّ مَنْ رَبَطَ نَفسَهُ لِلجُهدِ لِخِدمَةِ الدِّينِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بِالخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ، لِتَذكِيرِ الْمُسلِمِينَ، والنُّصحِ لَهُم، وتَوعِيَتِهِم؛ أَو كَانَ بِالجُهدِ لِإِعمَارِ الْمَسَاجِدِ بِالأَعمَالِ والأَخلَاقِ النَّبَوِيَّةِ، مِنَ الدَّعوَةِ والتَّعلِيمِ والعِبَادَاتِ والخِدمَةِ ومَكَارِمِ الأَخلَاقِ، والَّتِي تَحفَظُ عَلَى الْمُسلِمِينَ دِينَهُم، وفَهمَهُمُ الصَّحِيحَ لَهُ؛ ونَحوِ ذَلِكَ .

وفِي هَذَا يَقُولُ العَلَّامَةُ الْمُفَسِّرُ الشَّعرَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : والرِّبَاطُ لَا يَكُونُ فَقَط أَنْ تُرَابِطَ بِالخَيلِ لِلعَدُوِّ الْمُهَاجِمِ هُجُومًا مَادِّياً، بَلِ الْمُرَابَطَةُ تَعنِي : الإِعدَادَ لِكُلِّ مَا يُمكِنُ أَنْ يَرُدَّ عَنِ الحَقِّ صَيحَةَ البَاطِلِ؛ فَمِنَ الْمُرَابَطَةِ أَنْ تُعَدَّ النَّاشِئَةُ الإِسلَامِيَّةُ لِوَافِدَاتِ الإِلحَادِ قَبلَ أَن تَفِدَ؛ لِأَنَّ الْمَسأَلَةَ لَيسَت كُلُّهَا غَزواً بِخَيلٍ وسِلَاحٍ وعُدَدٍ، فَقَد يَكُونُ الغَزوُ بِالفِكرِ الَّذِي يَتَسَرَّبُ إلى النُّفُوسِ مِن حَيثُ لا تَشعُرُ؛ فَإِذَنْ لا بُدَّ أَن تَكُونَ أَيضاً فِي الرِّبَاطِ الَّذِي يُمِدُّ الْمُؤمِنَ بِقُدرَةِ وَطَاقَةِ الْمُوَاجَهَةِ، بِحَيثُ إِذَا جَاءَت قَضِيَّةٌ مِن قَضَايَا الإِلحَادِ الَّتِي قَد تَفِدُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ، يَكُونُ عِندَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُم الحَصَانَةُ ضِدَّهَا، والقُدرَةُ عَلَى مُوَاجَهَتِهَا ..

فَالرِّبَاطُ لا يَكُونُ بِقُوَّةٍ عَسكَرِيَّةٍ فَحَسبُ، بَل بِالقُوَّةِ العِلمِيَّةِ أَيضاً؛ فَخُصُومُ الإِسلَامِ قَد يَئِسُوا مِن أَن يَنتَصِرُوا عَلَى الإِسلَامِ بِقُوَّةٍ عَسكَرِيَّةٍ، بَعدَ أَن كَتَّلُوا كُلَّ قُوَاهُم فِي الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ، ولَم يَبقَ لَهُم إِلَّا أَن يَدخُلُوا عَلَينَا مِن خِلَالِ مَنَاهِجِهِم، ومِن خِلَالِ الْمُستَشرِقِينَ هُنَاكَ، والْمُستَغرِبِينَ مِنَّا، فَيَنقُلُوا لَنَا ثَقَافَاتٍ أَجنَبِيَّةً بَعِيدَةً عَن مَنهَجِنَا .. إِذَنْ فَالرِّبَاطُ لَا بُدَّ

أَن يَكُونَ أَيضاً فِي رِبَاطِ الأَفكَارِ، ورِبَاطِ العِلمِ الْمَادِّيِّ، وأَن تُوَضِّحَ أُمُورَ دِينِكَ تَوضِيحاً يَقِفُ أَمَامَ أَيِّ وَافِدَةٍ، قَبلَ أَن تَفِدَ بِالعُدوَانِ الْمُسَلَّحِ، ويَجِبُ أَن تَقِفَ لِغَزوِ الأَفكَارِ، ولِهَدمِ الْمَبَادِئِ؛ فَالرِّبَاطُ بِمَعنَيَيهِ الْمَادِّيِّ وَالْمَعنَوِيِّ (١) .

وقَالَ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَن رَبَطَ نَفسَهُ لِلرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ والضَّلَالِ : إِنَّ نَفْعَ هَذَا عَامٌّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ إِذْ تَطْهِيرُ سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَمِنْهَاجِهِ وَشِرْعَتِهِ وَدَفْعِ بَغْيِ هَؤُلَاءِ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَوْلَا مَنْ يُقِيمُهُ اللَّهُ لِدَفْعِ ضَرَرِ هَؤُلَاءِ، لَفَسَدَ الدِّينُ، وَكَانَ فَسَادُهُ أَعْظَمَ مِنْ فَسَادِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا اسْتَوْلَوْا لَمْ يُفْسِدُوا الْقُلُوبَ وَمَا فِيهَا مِنْ الدِّينِ إِلَّا تَبَعًا، وَأَمَّا أُولَئِكَ فَهُمْ يُفْسِدُونَ الْقُلُوبَ ابْتِدَاءً .. ثُمَّ الْقَائِلُ فِي ذَلِكَ بِعِلْمٍ، إِنْ تَكَلَّمَ لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَانَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ خُلَفَاءِ الرُّسُلِ (٢) .

التَّاسِعُ : «الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ» :

(١) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ** ﴾ [آل عمران:٩٩].

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ : عَنْ دِينِ اللهِ(٣). وقَالَ الرَّبِيعُ وقَتَادَةُ رَحِمَهُمَا اللَّهُ : لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ الإِسْلامِ، وَعَنْ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤) .

---

(١) «تفسير الشعراوي» (١٩٧٤/٤-١٩٧٦) .
(٢) «مجموع الفتاوى» بتصرف يسير (٢٣١/٢٨ - ٢٣٥) .
(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣٨٨٢) .
(٤) «المصدر السابق» (٣٨٨٣) .

وقَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في مَعنَاهَا : لِمَ تُضِلُّونَ عَن طَرِيقِ اللهِ ومَحَجَّتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِأَنبِيَائِهِ وأَولِيَائِهِ وأَهلِ الإِيمَانِ (١). وقَالَ أَيضاً : مَعنَى «السَّبِيل» الَّتِي ذَكَرَهَا في هَذَا الْمَوضِعِ : الإِسلَامُ، ومَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الحَقِّ مِن عِندِ اللهِ (٢). قُلتُ : وتَبِعَهُ عَلَى هَذَا القَولِ أَئِمَّةُ التَّفسِيرِ، سَلَفاً وخَلَفاً، بِدُونِ خِلَافٍ .

وقَالَ أَبُو حَيَّانَ الأَندَلُسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَيْ أَعْرَضُوا عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، أَوْ صَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنْه (٣). وقَالَ الشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : والْمُرَادُ بِـ«الصَّدِّ» : الْمَنعُ، وبِـ«سَبِيلِ اللَّهِ» : دِينُهُ، أَيْ : يَمْنَعُونَ مِنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي دِينِ اللَّهِ (٤) .

وقَالَ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَي أَعرَضُوا عَنِ الإِسلَامِ وسُلُوكِ طَرِيقِهِ، أَو مَنَعُوا غَيرَهُم عَن ذَلِكَ، عَلَى أَنَّ «صَدَّ» لَازِمٌ أَو مُتَعَدٍّ؛ .. والآيَةُ عَامَّةٌ لِكُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بِعُنوَانِ الصِّلَةِ (٥) .

العَاشِرُ : «الصَّدَقَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ» :

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠].

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وأَمَّا قَولُهُ : ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فَإِنَّهُ يَعنِي : وفي النَّفَقَةِ في نُصرَةِ دِينِ اللهِ وطَرِيقِهِ، وشَرِيعَتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ، بِقِتَالِ أَعدَائِهِ، وذَلِكَ هُوَ غَزوُ الكُفَّارِ. وقَالَ ابنُ زَيدٍ في قَولِهِ : ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، قَالَ : الغَازِي في سَبِيلِ اللهِ(٦).

---

(١) «تفسير الطبري» (٥٣/٦) .
(٢) «المصدر السابق» (٥٨/٦) .
(٣) «البحر المحيط» (٤٥٨/٩) .
(٤) «فتح القدير» (٥٢٨/٣) .
(٥) «روح المعاني» (١٩٤/١٣) .
(٦) «تفسير الطبري» (٣١٩/١٤) .

وقَالَ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أَرَادَ بِهَا الْغُزَاةَ، فَلَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ، يُعْطَوْنَ إِذَا أَرَادُوا الْخُرُوجَ إِلَى الْغَزْوِ، وَمَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى أَمْرِ الْغَزْوِ، مِنَ النَّفَقَةِ وَالْكُسْوَةِ وَالسِّلَاحِ وَالْحُمُولَةِ، وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ، وَلَا يُعْطَى شَيءٌ مِنهُ فِي الْحَجِّ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَقَالَ قَوْمٌ : يَجُوزُ أَنْ يُصَرَفَ سَهْمُ «فِي سَبِيلِ اللهِ» إِلَى الْحَجِّ. وَيُرْوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ [١] .

وقَالَ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَأَمَّا ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : فَمِنْهُمُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيوَانِ، وَعِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالْحَسَنِ، وَإِسْحَاقَ : وَالْحَجُّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، لِلْحَدِيثِ [٢] .

وقَالَ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : ذَكَرَ تَعَالَى الإِعَانَةَ عَلَى الجِهَادِ بِقَولِهِ : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. فَيُصرَفُ عَلَى الْمُتَطَوِّعَةِ فِي الجِهَادِ، ويُشتَرَى لَهُمُ الكُرَاعُ والسِلَاحُ. قَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : لَا يُوجِبُ الْقَصْرَ عَلَى كُلِّ الْغُزَاةِ، فَلِهَذَا الْمَعْنَى نَقَلَ الْقَفَّالُ فِي «تفسيره» عَنْ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ : أَنَّهُمْ أَجَازُوا صَرْفَ الصَّدَقَاتِ إِلَى جَمِيعِ وُجُوهِ الْخَيْرِ، مِنْ تَكْفِينِ الْمَوْتَى، وَبِنَاءِ الْحُصُونِ، وَعِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، عَامٌّ فِي الْكُلِّ [٣] .

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَقِسْمٌ ثَانٍ مِنْ وَاجِبِ الْجِهَادِ : فَرْضٌ أَيْضًا عَلَى الْإِمَامِ إِغْزَاءُ طَائِفَةٍ إِلَى الْعَدُوِّ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، يَخْرُجُ مَعَهُمْ بِنَفْسِهِ، أَوْ يُخرِجُ مَن يَثِقُ بِهِ؛ **لِيَدعُوهُم إلى الإِسلَامِ ويُرَغِّبَهُم**، ويَكُفَّ أَذَاهُم، وَيُظْهِرَ دِينَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ، أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ [٤] .

قُلتُ : هَذَا هُوَ الْمَقصُودُ الأَوَّلُ والأَسَاسِيُّ لِلغَزوِ الإِسلَامِيِّ كَمَا تَقَدَّمَ مِرَاراً؛ وهُوَ دَعوَةُ النَّاسِ إلى الإِسلَامِ، فَإِذَا لَم يَستَجِيبُوا لِلدَّعوَةِ القَولِيَّةِ، فَإِنَّهُم يُعطَونَ الفُرصَةَ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى الإِسلَامِ عَن قُربٍ، فَتُؤخَذُ مِنهُمُ الجِزيَةُ، ويُقِيمُونَ بَينَ ظَهرَانَيِ الْمُسلِمِينَ آمِنِينَ مُطمَئِنِّينَ، كَي

---

(١) «تفسير البغوي» (٢/٣٦٢) .
(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/١٦٩) .
(٣) «التفسير الكبير» (١٦/٨٧) .
(٤) «تفسير القرطبي» (٨/١٥٢) .

يَتعَرَّفُوا عَلَى الإِسلَامِ، بِرُؤيَةِ صِفَاتِ أَهلِهِ العَامِلِينَ؛ ولا يَجُوزُ قِتَالُهُم إِنْ تَيَسَّرَ أَحَدُ هَذَينِ الخِيَارَينِ؛ فَإِذَا لَم يَتَيَسَّرْ إِرْسَالُ السَّرَايَا والبُعُوثِ الْمُصطَحَبَةِ بِأَسبَابِ القِتَالِ، بِسَبَبِ عَوَامِلِ الضَّعفِ الْمَادِّيِّ والْمَعنَوِيِّ، وتَغَلُّبِ الكُفَّارِ عَلَيهِم، بِحَيثُ لا يُمكِنُ مُطَالَبَتُهُم بِالجِزيَةِ وقِتَالُهُم إِذَا رَفَضُوا، إِذَا كَانَ ذَلِكَ غَيرَ مُمكِنٍ، وأَمكَنَ إِرسَالُ البُعُوثِ والسَّرَايَا لِلدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والتَّعلِيمِ والتَّذكِيرِ، فَإِنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَى الأُمَّةِ جَمعَاءَ، إِذْ هُوَ الْمَقصُودُ بِالذَّاتِ، والخِيَارَانِ الآخَرَانِ مَقصُودَانِ لِأَجلِهِ، ولا يَسقُطُ الْمُمكِنُ لِتَعَذُّرِ غَيرِهِ، إِذِ «الْمَيسُورُ لا يَسقُطُ بِالْمَعسُورِ»، و«مَا لا يُدرَكُ كُلُّهُ لا يُترَكُ جُلُّهُ»؛ وهَذَا مِن جِنسِ البُعُوثِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَبعَثُهَا ﷺ قَبلَ أَن يَمُنَّ اللهُ عَلَيهِ بِالفَتحِ والتَّمكِينِ؛ فَيَكُونُ خُرُوجُهُم هَذَا «فِي سَبِيلِ اللهِ»، والنَّفَقَةُ فِي هَذِهِ الوِجهَةِ نَفَقَةٌ «فِي سَبِيلِ اللهِ»؛ وأَيضاً يُقَاسُ عَلَى كَلَامِ القُرطُبِيِّ إِخرَاجُ الجَمَاعَاتِ إِلى الدَّاخِلِ والخَارِجِ، لِلدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والتَّذكِيرِ والتَّعلِيمِ، بِصِفَةٍ دَورِيَّةٍ، وبِحَسَبِ الحَاجَةِ؛ واللهُ أَعلَمُ .

قَرارُ الْمَجمَعِ الفِقهِيِّ بِرابِطَةِ العَالَمِ الإِسلامِيِّ فِي بَيَانِ أَنَّ الدَّعوَةَ إِلى اللهِ مِنْ أَعظَمِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ودُخُولِهَا فِي مَعنَى قَولِهِ ﷻ : ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ :

لَقَد قَرَّرَ الْمَجْمَعُ الفِقْهِيُّ بِرَابِطَةِ العَالَمِ الإِسلَامِيِّ دُخُولَ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ ومَا يُعِينُ عَلَيهَا ويَدعَمُ أَعْمَالَهَا، كُلُّ ذَلِكَ يَدْخُلُ فِي مَعنَى : ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ : ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [التوبة: ٦٠] وذَلِكَ لِعِدَّةِ وُجُوهٍ :

١. نَظَرَاً إِلى أَنَّ هَذَا القَولَ قَدْ قَالَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ المسلمين، وأَنَّ لَهُ حَظّاً من النَّظَرِ فِي بَعضِ الآيَاتِ الكَرِيمَةِ، مِثل قَولِهِ ﷻ : ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٢٦٢]؛ ومِنَ الأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ، مِثل مَا جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُودَ، أَنَّ رَجُلاً جَعَلَ نَاقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَرَادَتِ امْرَأَتُهُ الحَجَّ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ :" **ارْكَبِيهَا، فَإِنَّ الحَجَّ فِي سَبِيلِ اللهِ** ". رَوَاهُ أَبُو دَاوُودَ، عَن أُمِّ مَعقِلٍ الأَسَدِيَّةِ (١٩٩١) وابنُ خُزَيمَةَ فِي صَحِيحِهِ (٢٣٧٦)، وأَصلُهُ فِي الصَّحِيحَينِ مُختَصَراً .

٢. ونَظَراً إلى أَنَّ القَصْدَ مِنَ الجِهَادِ بِالسِّلاحِ هُوَ إِعْلاءُ كَلِمَةِ اللهِ ﷻ، وأَنَّ إِعْلاءَ كَلِمَةِ اللهِ ﷻ كَمَا يَكُونُ بِالْقِتَالِ يَكُونُ أَيْضاً بِالدَّعْوَةِ إلى اللهِ ﷻ ونَشْرِ دِينِهِ بِإِعْدَادِ الدُّعَاةِ، ودَعْمِهِم ومُسَاعَدَتِهِم عَلَى أَدَاءِ مُهِمَّتِهِم فَيَكُونُ كِلا الأَمْرَينِ جِهَاداً في سبيل اللهِ، لِمَا رَوَى أَحْمَدُ والنَّسَائيُّ وصَحَّحَهُ الحَاكِمُ عَن أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :" **جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ** ".

٣. ونَظَراً إلى أَنَّ الإِسْلامَ مُحَارَبٌ بِالغَزْوِ الفِكْرِيِّ وَالْعَقَدِيِّ مِنَ الْمَلاحِدَةِ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى وسَائِرِ أَعْدَاءِ الدِّين، وأَنَّ لِهَؤُلاءِ مَنْ يَدْعَمُهُمُ الدَّعْمَ الْمَادِّيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ، فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوهُم بِمِثْلِ السِّلاحِ الَّذِي يَغْزُونَ بِهِ الإِسْلامَ، وبِمَا هُوَ أَنْكَى مِنْهُ.

٤. ونَظَراً إلى أَنَّ الحُرُوبَ في البِلادِ الإِسْلامِيَّةِ أَصْبَحَ لَهَا وَزَارَاتٌ خَاصَّةٌ بِهَا، ولَهَا بُنُودٌ مَالِيَّةٌ في مِيزَانِيَّةِ كُلِّ دَولَةٍ، بِخِلافِ الجِهَادِ بِالدَّعْوَةِ، فَإِنَّهُ لا يُوجَدُ في مِيزَانِيَّاتِ غَالِبِ الدُّوَلِ مُسَاعَدَةٌ ولا عَونٌ، لِذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْمَجْلِسَ يُقَرِّرُ بِالأَكْثَرِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ دُخُولَ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ ﷻ ومَا يُعِينُ عَلَيهَا ويَدْعَمُ أَعْمَالَهَا في مَعْنى  ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في الآية الكريمة[1].

وقَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللهُ : وَمِنْ أَهَمِّ مَا يُنْفَقُ «فِي سَبِيلِ اللهِ» فِي زَمَانِنَا هَذَا إِعْدَادُ الدُّعَاةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَإِرْسَالُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ مِنْ قِبَلِ جَمْعِيَّاتٍ مُنَظَّمَةٍ تَمُدُّهُمْ بِالْمَالِ الْكَافِي، كَمَا يَفْعَلُهُ الْكُفَّارُ فِي نَشْرِ دِينِهِمْ، .. وَيَدْخُلُ فِيهِ النَّفَقَةُ عَلَى الْمَدَارِسِ لِلْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا تَقُومُ بِهِ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُعْطَى مِنْهَا مُعَلِّمُو هَذِهِ الْمَدَارِسِ مَا دَامُوا يُؤَدُّونَ وَظَائِفَهُمُ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي يَنْقَطِعُونَ بِهَا عَنْ كَسْبٍ آخَرَ [2] .

❖❖❖❖❖

(**١**) «قرار المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة المنعقدة في مكة المكرمة فيما بين ٢٧ ربيع الآخرة ١٤٠٥هـ و٨ جمادى الأولى ١٤٠٥هـ» . **تنبيه** : لَمْ أَنْقُلْ هَذِهِ الفَتْوَى لِلاِسْتِدْلالِ عَلَى الْحُكْمِ الْمُقَرَّرِ فِيهَا، فَإِنَّهَا مَسأَلَةٌ خِلافِيَّةٌ بَينَ العُلَمَاءِ؛ وإِنَّمَا أَرَدْتُ الاِسْتِشْهَادَ بِأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إلى اللهِ والجِهَادَ في سَبِيلِهِ مَقْصُودُهُمَا وَاحِدٌ، وهُوَ إِعْلاءُ كَلِمَةِ اللهِ ونَشْرُ دِينِهِ، وأَنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا يُسَمَّى جِهَاداً في سَبِيلِ اللهِ، وأَنَّ القَائِمَ بِهِمَا يَتَحَصَّلُ عَلَى مَوعُود اللهِ ﷻ عَلَى الجِهَاد في سَبِيلِهِ .

(**٢**) «تفسير المنار» (١٠/٤٣٠) .

الحَادِي عَشَرَ: «الضَّربُ في سَبِيلِ اللهِ»:

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ... ﴾ [النساء: ٩٤].

قَالَ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ الْمُبَالَغَةُ فِي تَحْرِيمِ قَتْلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمْرُ الْمُجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ فِيهِ، لِئَلَّا يَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا بِتَأْوِيلٍ ضَعِيفٍ؛ .. والضَّرْبُ: مَعْنَاهُ السَّيْرُ فِيهَا، بِالسَّفَرِ لِلتِّجَارَةِ أَوِ الْجِهَادِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الضَّرْبِ بِالْيَدِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ؛ فَإِنَّ مَنْ ضَرَبَ إِنْسَانًا كَانَتْ حَرَكَةُ يَدِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الضَّرْبِ سَرِيعَةً، فَجُعِلَ الضَّرْبُ كِنَايَةً عَنِ الْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ[1]. وفي الإكليلِ قَالَ: وفي الآيَةِ وُجُوبُ التَّثَبُّتِ في الأُمُورِ، خُصُوصاً القَتلِ، ووُجُوبُ الدَّعوَةِ قَبلَ القِتَالِ[2].

وقَالَ الشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَإِنَّمَا خَصَّ السَّفَرَ بِالْأَمْرِ بِالتَّبَيُّنِ، مَعَ أَنَّ التَّبَيُّنَ وَالتَّثَبُّتَ فِي أَمْرِ الْقَتْلِ وَاجِبَانِ حَضَرًا وَسَفَرًا بِلَا خِلَافٍ، لِأَنَّ الْحَادِثَةَ الَّتِي هِيَ سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ كَانَتْ فِي السَّفَرِ[3].

وقَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللهُ: يَقُولُ: وَلَا تَقُولُوا لِمَنِ اسْتَسْلَمَ لَكُمْ، فَلَمْ يُقَاتِلْكُمْ مُظْهِرًا لَكُمْ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ مَلَّتِكُمْ وَدَعْوَتِكُمْ، لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَتَقْتُلُوهُ ابْتِغَاءَ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَيْ: طَلَبًا لِمَتَاعِهَا الَّذِي هُوَ عَرَضٌ زَائِلٌ، وَمَا أَذِنَ اللهُ لَكُمْ فِي قِتَالِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ لِتَكُونُوا مِثْلَهُمْ فِي أَطْمَاعِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ، بَلْ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَنَشْرِ هِدَايَتِهِ؛ فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ، مِنْ رِزْقِهِ وَفَوَاضِلِ نِعَمِهِ[4].

---

(١) «التفسير الكبير» (١٠/١٨٥).

(٢) «تفسير القاسمي» (٢/٢٨١).

(٣) «فتح القدير» (١/٥٧٨).

(٤) «تفسير المنار» (٥/ ٢٨١ - ٢٨٢).

وقَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : يَأمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤمِنِينَ إِذَا خَرَجُوا جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ وابتِغَاءَ مَرضَاتِهِ أَن يَتَبَيَّنُوا ويَتَثَبَّتُوا فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمُ الْمُشتَبِهَةِ .. قَالَ : وكَمَا أَنَّ الهِدَايَةَ حَصَلَت لَكُم شَيئًا فَشَيئًا، فَكَذَلِكَ غَيرُكُم؛ فَنَظَرُ الكَامِلِ لِحَالِهِ الأُولَى النَّاقِصَةِ، ومُعَامَلَتُهُ لِمَن كَانَ عَلَى مِثلِهَا بِمُقتَضَى مَا يَعرِفُ مِن حَالِهِ الأُولَى، ودُعَاؤُهُ لَهُ بِالحِكمَةِ والْمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ، مِن أَكبَرِ الأَسبَابِ لِنَفعِهِ وانتِفَاعِهِ، ولِهَذَا أَعَادَ الأَمرَ بِالتَّبَيُّنِ فَقَالَ : ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [1] .

قُلتُ : وسَبَبُ نُزُولِ الآيَةِ مَعرُوفٌ، كَمَا رَوَاه الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ سُلَيْمٍ مَرَّ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَعَهُ غَنَمٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا : مَا سَلَّمَ إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ، فَقَتَلُوهُ، وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، وأَتَوا بِهَا الرَّسُولَ ﷺ، فَنَزَلَتْ [2]. وقَد كَانَ هَذَا والصَّحَابَةُ رضي الله عنهم خَارِجُونَ فِي الغَزوِ، إِلَّا أَنَّ الأَمرَ عَامٌّ فِي كُلِّ سَفَرٍ دِينِيٍّ أَو دُنيَوِيٍّ؛ إِذِ «العِبرَةُ بِعُمُومِ اللَّفظِ، لا بِخُصُوصِ السَّبَبِ» . وكَمَا قَالَ الشَّيخُ الشَّعرَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : إِنَّ الضَّربَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَكُونُ فِي سَاعَةِ الجِهَادِ فَقَط، ولَكِن فِي كُلِّ أَحوَالِ الحَيَاةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ «مَا لا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ» [3] .

وقَالَ العَلَّامَةُ أَبُو زَهرَةَ رَحِمَهُ اللهُ : الضَّربُ فِي الأَرضِ مَعنَاهُ السَّيرُ فِيهَا، والضَّربُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَعنَاهُ السَّيرُ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِهِ تَعَالَى، وَكُلُّ جِهَادٍ فِي الإِسلَامِ لَا يُعتَبَرُ جِهَاداً إِلَّا إِذَا كَانَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَي لِإِعلَاءِ كَلِمَةِ الحَقِّ والدِّينِ، ورَدِّ الْمُعتَدِينَ. فَـ«سَبِيلُ اللهِ» هِيَ سَبِيلُ الحَقِّ، وكُلُّ دَعوَةٍ إِلَى الخَيرِ هِيَ «سَبِيلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »؛ .. وإِنَّ الَّذِينَ يَقتُلُونَ مَن يَطلُبُ الأَمَانَ مُستَسلِماً، يَخرُجُ قِتَالُهُم عَن مَعنَى الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، إِلَى مَعنًى آخَرَ يُجَافِيهِ، وهُوَ أَنْ يَبتَغُوا عَرَضَ الدُّنيَا بِالْمَالِ يَطلُبُونَهُ، أَو بِإِعلَانِ قُوَّتِهِم، ولَيسَ ذَلِكَ مَقصَدُ الإِسلَامِ مِنَ القِتَالِ، إِنَّمَا مَقصَدُهُ إِعلَاءُ كَلِمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبَيَانُ كَلِمَةِ الحَقِّ [4] .

---

(١) «تفسير السعدي» ص (١٩٤) .

(٢) «تفسير الشعراوي» (٤/٢٥٥٦) .

(٣) «تفسير السعدي» ص (١٩٤) .

(٤) «زهرة التفاسير» (٤/١٨٠٧ – ١٨٠٨) .

الثَّانِي عَشَرَ : «القِتَالُ في سَبِيلِ اللهِ» :

(١) قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ١٩١ - ١٩٣].

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ وَالشِّرْكُ بِاللَّهِ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ. فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ : وَابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِ فِي دِينِهِ حَتَّى يَرْجِعَ عَنْهُ، فَيَصِيرُ مُشْرِكًا بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِسْلَامِهِ، أَشَدُّ عَلَيْهِ وَأَضَرُّ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ مُقِيمًا عَلَى دِينِهِ، مُتَمَسِّكًا عَلَيْهِ، مُحِقًّا فِيهِ؛ وقَالَ مُجَاهِدٌ : **ارْتِدَادُ الْمُؤْمِنِ إِلَى الْوَثَنِ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ** [١] . فَقَوْلُهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يَعْنِي : حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكٌ بِاللَّهِ، وَحَتَّى لَا يُعْبَدَ دُونَهُ أَحَدٌ، وَتَضْمَحِلَّ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَالْآلِهَةِ، وَالْأَنْدَادِ، وَتَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ [٢] .

وقَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : كَانَ الْمُسلِمُونَ في أَوَّلِ الأَمرِ مَأمُورِينَ بِكَفِّ الأَيدِي عَن قِتَالِ الكُفَّارِ، وإِنَّمَا جِهَادُهُم بِالدَّعوَةِ لِحِكمَةٍ ظَاهِرَةٍ، فَلَمَّا اضطُهِدُوا واضطَرَّهُمُ الأَعدَاءُ إلى تَركِ بِلادِهِم وأَوطَانِهِم، وقَتَلُوا مَن قَتَلُوا، وحَبَسُوا مَن حَبَسُوا، وجَدُّوا في العَدَاوَةِ البَلِيغَةِ بِكُلِّ طَرِيقٍ، وهَاجَرَ الْمُسلِمُونَ بِسَبَبِ ذَلِكَ إلى الْمَدِينَةِ، وقَوَّاهُمُ اللهُ عَلَى قِتَالِ الأَعدَاءِ، وقَد رَمَاهُمُ الأَعدَاءُ عَن قَوسٍ وَاحِدَةٍ، فَحِينَئِذٍ أَذِنَ اللهُ لَهُم في القِتَالِ، ولِهَذَا قَالَ : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج: ٣٩]، لِمَنعِهِم مِن دِينِهِم، وإِخرَاجِهِم مِن دِيَارِهِم، ومُطَارَدَتِهِم لَهُم في كُلِّ مَكَانٍ؛ وهَذَا مَعَ أَمرِهِ لَهُم بِفِعلِ الأَسبَابِ، ومُقَاوَمَةِ الأَعدَاءِ بِكُلِّ مُستَطَاعٍ، أَمَرَ لَهُم بِالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، واستِنصَارِهِ، والطَّلَبِ مِنهُ .. وهَذَا ظَاهِرٌ في حِكمَةِ الجِهَادِ،

---

(١) «تفسير الطبري» (٣٠٩٥) .

(٢) «المصدر السابق» (٣١١٢) .

وعِظَمِ مَصلَحَتِهِ، وأَنَّهُ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّ الْمَقصُودَ بِهِ : **إِقَامَةُ دِينِ اللهِ، والدَّعوَةُ إلى عِبَادَتِهِ**، الَّتِي خَلَقَ اللهُ الْمُكَلَّفِينَ لَهَا، وأَوجَبَهَا عَلَيهِم، ودَفعُ كُلِّ مَن قَاوَمَ الأَمرَ الضَّرُورِيَّ، ومُقَاوَمَةُ الظَّالِمِينَ الْمُعتَدِينَ عَلَى دِينِ اللهِ، وعَلَى الْمُؤمِنِينَ مِن عِبَادِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ [1].

وقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللهُ : الفِتنَةُ بِالكُفرِ، والصَّدُّ عَن سَبِيلِ اللهِ أَعظَمُ مِنَ القَتلِ؛ فَيَتَفَرَّعُ عَلَى هَذِهِ الفَائِدَةِ : أَنَّ استِعمَارَ الأَفكَارِ أَعظَمُ مِن استِعمَارِ الدِّيَارِ؛ لِأَنَّ استِعمَارَ الأَفكَارِ فِتنَةٌ؛ واستِعمَارَ الدِّيَارِ أَقصَى مَا فِيهَا إِمَّا القَتلُ، أَو سَلبُ الخَيرَاتِ، أَوِ الاِقتِصَادِ، أَو مَا أَشبَهَ ذَلِكَ؛ والفِتنَةُ أَشَدُّ؛ لِأَنَّهَا هِيَ القَتلُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي بِهِ خَسَارَةُ الدِّينِ، والدُّنيَا، والآخِرَةِ . واعلَمْ أَنَّ الفَرضَ سَوَاءٌ قُلنَا فَرضُ عَينٍ، أَو فَرضُ كِفَايَةٍ، لَا يَكُونُ فَرضاً إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ قُدرَةٌ؛ أَمَّا مَعَ عَدَمِ القُدرَةِ فَلَا فَرضَ؛ لِعُمُومِ الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ لَا يُكَلِّفُ نَفساً إِلَّا وُسعَهَا، ولِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾ [التوبة: ٩١]؛ فَإِذَا كُنَّا لَا نَستَطِيعُ أَنْ نُقَاتِلَ هَؤُلَاءِ، لَم يَجِبْ عَلَينَا؛ وإِلَّا لَأَثِمْنَا جَمِيعَ النَّاسِ مَعَ عَدَمِ القُدرَةِ؛ ولَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عِندَنَا العَزمُ عَلَى أَنَّنَا إِذَا قَدَرنَا فَسَنُقَاتِلُ؛ ولِهَذَا قَيَّدَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَولِهِ : ﴿ **إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾؛ لَيسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ حَرَجٌ، بِشَرطِ أَنْ يَنصَحُوا للهِ ورَسُولِهِ؛ فَأَمَّا مَعَ عَدَمِ النُّصحِ للهِ ورَسُولِهِ، فَعَلَيهِم الحَرَجُ، حَتَّى وإِنْ وُجِدَتِ الأَعذَارُ فِي حَقِّهِم .

ومِنْ فَوَائِدِ الآيَةِ : أَنَّ الأَمرَ بِقِتَالِهِم مُقَيَّدٌ بِغَايَتَينِ؛ غَايَةٍ عَدَمِيَّةٍ : ﴿ **حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾ أَيْ حَتَّى لا تُوجَدَ فِتنَةٌ؛ و«الفِتنَةُ» : هِيَ الشِّركُ، والصَّدُّ عَن سَبِيلِ اللهِ؛ والغَايَةُ الثَّانِيَةُ إِيجَابِيَّةٌ : ﴿ **وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ بِمَعنَى : أَنْ يَكُونَ الدِّينُ غَالِباً ظَاهِراً، لَا يَعلُو إِلَّا الإِسلَامُ فَقَط؛ ومَا دُونَهُ فَهُوَ دِينٌ مَعلُوٌّ عَلَيهِ، يُؤخَذُ عَلَى أَصحَابِهِ الجِزيَةُ عَن يَدٍ وهُم صَاغِرُونَ.

---

(١) «تيسير اللطيف الرحمن في خلاصة كلام المنان» (١/١٠٨ - ١٠٩) .

ومِنهَا: أَنَّهُ إِذَا زَالَتِ الفِتنَةُ، وقِيَامُ أَهلِهَا ضِدَّ الدَّعوَةِ الإِسلَامِيَّةِ، وذَلِكَ بِبَذلِ الجِزيَةِ، فَإِنَّهُم لا يُقَاتِلُون [١] .

قُلتُ : ومِنَ الفِتنَةِ فِي الدِّينِ : أَن يُمنَعَ الدَّاعِي إِلى الحَقِّ مِنَ الدَّعوَةِ إِلَيهِ، وأَن يُمنَعَ تَعرِيفُ النَّاسِ بِهَذَا الحَقِّ [٢]. وهَذَا كُلُّهُ عِندَ تَوَفُّرِ القُدرَةِ عَلَى القِتَالِ، أَمَّا إِذَا ضَعُفَتِ الأُمَّةُ عَنهُ، فَلَا تُكَلَّفُ بِهِ حَتَّى تُطِيقَهُ، ويَبقَى التَّكلِيفُ بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والنُّصحِ للهِ ورَسُولِهِ ﷺ؛ كَمَا مَرَّ فِي كَلَامِ العَلَّامَةِ ابنِ عُثَيمِينَ وغَيرِهِ .

(٢) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١].

قَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُ هَلْ دَخَلَ تَحْتَ هَذِهِ الآيَةِ مُجَاهَدَةُ الأَعْدَاءِ بِالْحُجَّةِ والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَمْ لا ؟ فَمِنْهُم مَنْ قَالَ : هُوَ مُخْتَصٌّ بِالجِهَادِ بِالْمُقَاتَلَةِ، لأَنَّهُ فَسَّرَ تِلْكَ الْمُبَايَعَةَ بِالْمُقَاتَلَةِ بِقَولِهِ : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾؛ وَمِنْهُم مَنْ قَالَ : **كُلُّ أَنْوَاعِ الجِهَادِ دَاخِلٌ فِيهِ**، بِدَلِيلِ الْخَبَرِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ – وَهُوَ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَغَيرِهِ، قَالُوا : قَالَ عَبدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ . قال :" **أَشْتَرِطُ لِرَبِّي : أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي : أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ** ". قَالُوا : فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَاذَا لَنَا ؟ قَالَ :" **الْجَنَّةُ** ". قَالُوا : رَبِحَ الْبَيعُ، لا نَقِيلُ ولا نَسْتَقِيلُ ! فَنَزَلَتْ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ﴾ [التوبة: ١١١][٣]. وَذَلِكَ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ الْكُبْرَى .

---

(١) «تفسير العثيمين» (٣٧٩/٢ – ٣٨٣) .

(٢) «زهرة التفاسير» (٣١٢٧/٦–٣١٢٨) .

(٣) «تفسير الطبري» (١٧٢٧٠) .

وَأَيْضاً فَالجِهَادُ بِالْحُجَّةِ والدَّعْوَةِ إلى دَلائِلِ التَّوْحِيدْ أَكْمَلُ آثاراً مِنَ الْقِتَالِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه :" **فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ** ". وَلأَنَّ الجِهَادَ بِالْمُقَاتَلَةِ لا يَحْسُنُ أَثَرُهَا إِلاَّ بَعْدَ تَقْدِيمِ الجِهَادِ بِالحُجَّةِ، وأَمَّا الجِهَادُ بِالْحُجَّةِ فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الجِهَادِ بِالْمُقَاتَلَةِ . وَالأَنْفُسُ جَوْهَرُهَا شَرِيفٌ، خَصَّهُ اللهُ سبحانه وتعالى بِمَزِيدِ الإِكْرَامِ فِي هَذَا الْعَالَمِ، ولا فَسَادَ فِي ذَاتِهِ، إِنَّمَا الْفَسَادُ فِي الصِّفَةِ الْقَائِمَةِ بِهِ، وهِيَ الْكُفْرُ والجَهْلُ، ومَتَى أَمْكَنَ إِزَالَةُ الصِّفَةِ الْفَاسِدَةِ مَعَ إِبْقَاءِ الذَّاتِ والجَوْهَرِ كَانَ أَوْلَى، أَلا تَرَى أَنَّ جِلْدَ الْمَيْتَةِ لَمَّا كَانَ مُنْتَفَعاً بِهِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، لا جَرَمَ حَثَّ الشَّرْعُ عَلَى إِبْقَائِهِ، فَقَالَ : "**هَلاَ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ**"[(١)]؛ فَالجِهَادُ بِالْحُجَّةِ يَجْرِي مَجْرَى الدِّبَاغَةِ، وهُوَ إِبْقَاءُ الذَّاتِ مَعَ إِزَالَةِ الصِّفَةِ الفَاسِدَةِ، والجِهَادُ بِالْمُقَاتَلَةِ يَجْرِي مَجْرَى إِفْنَاءِ الذَّاتِ، فَكَانَ الْمَقَامُ الأَوَّلُ أَوْلَى وَأَفْضَلَ [(٢)] .

(٣) قَالَ اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ** ﴾ [التوبة:١٢٣].

قَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رحمه الله : أَيِ الَّذِينَ يَدْنُونَ مِنْكُمْ، وَتَتَّصِلُ بِلَادُهُمْ بِبِلَادِكُمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْقِتَالَ شُرِعَ لِتَأْمِينِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَحُرِّيَّةِ الدِّينِ وَالدِّفَاعِ عَنْ أَهْلِهِ، وَقَدْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ مِنَ الْكُفَّارِ، كَمَا قَالَ سبحانه وتعالى لِرَسُولِهِ : ﴿ **لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا** ﴾ [الشورى: ٧]، وَقَالَ لِأَهْلِ مَكَّةَ : ﴿ **لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ** ﴾ [الأنعام: ١٩]، أَيْ : وَكُلَّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ؛ بَلْ أَمَرَهُ أَنْ يَخُصَّ الْأَقْرَبَ إِلَيْهِ فِي النَّسَبِ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ أُمِّ الْقُرَى، فَقَالَ : ﴿ **وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤] [(٣)] .

وقَالَ رحمه الله أيضاً : وَقِتَالُ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُ كَانَ مُدَافَعَةً عَنِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَحِمَايَةً لِدَعْوَةِ الْحَقِّ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ تَقْدِيمُ الدَّعْوَةِ شَرْطًا لِجَوَازِ الْقِتَالِ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ الدَّعْوَةُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، لَا

---

(١) رواه مسلم عن ابن عباس برقم (٣٦٣) .

(٢) «التفسير الكبير» (١٧٣/١٦) .

(٣) «تفسير المنار» (٦٥/١١) .

بِالسَّيْفِ وَالسِّنَّانِ، فَإِذَا مُنِعْنَا مِنَ الدَّعْوَةِ بِالْقُوَّةِ : بِأَنْ هُدِّدَ الداعِي أَوْ قُتِلَ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَ لِحِمَايَةِ الدُّعَاةِ، وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ، لَا لِلْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ؛ فَاللهُ ﷻ يَقُولُ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وَيَقُولُ ﷻ : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] .. وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي الْقِتَالِ : أَنَّهُ شُرِعَ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ، وَحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ وَنَشْرِهَا [1] .

الثَّالِثُ عَشَرَ : «القَتلُ وَالْمَوتُ فِي سَبِيلِ اللهِ» :

(١) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٥٣ – ١٥٤].

قَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللهُ : عَلِمَ اللهُ ﷻ مَا سَيُلَاقِيهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِ وَتَقْرِيرِهِ وَإِقَامَتِهِ، مِنَ الْمُقَاوَمَاتِ وَتَثْبِيطِ الْهِمَمِ، وَمَا يَقُولُهُ لَهُمُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، وَمَا يَقُولُ الضُّعَفَاءُ فِي أَنْفُسِهِمْ : كَيْفَ تُبْذَلُ هَذِهِ النُّفُوسُ وَتُسْتَهْدَفُ لِلْقَتْلِ بِمُخَالَفَةِ الْأُمَمِ كُلِّهَا ؟ وَمَا الْغَايَةُ مِنْ قَتْلِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ لِأَجْلِ تَعْزِيزِ رَجُلٍ فِي دَعْوَتِهِ ؟ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَرُبَّمَا أَثَّرَ فِي نُفُوسِ بَعْضِ الضُّعَفَاءِ فَاسْتَبْطَئُوا النَّصْرَ، فَعَلَّمَهُمُ اللهُ ﷻ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى مُجَاهَدَةِ الْخَوَاطِرِ وَالْهَوَاجِسِ، وَمُقَاوَمَةِ الشُّبُهَاتِ وَالْوَسَاوِسِ. فَأَمَرَ أَوَّلًا بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَعْظَمَ شَيْءٍ يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَهُوَ الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَحِمَايَتِهِ، ذَكَرَهُ مُدْرَجًا فِي سِيَاقِ تَقْرِيرِ حَقِيقَةٍ وَدَفْعِ شُبْهَةٍ؛ فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ﴾ .. فذَكَرَ اللهُ ﷻ فَضْلَ الشَّهَادَةِ الَّتِي اسْتُهْدِفَ لَهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ [2] .

---

(١) «تفسير المنار» (٢/١٧٣ – ١٧٤) .

(٢) المصدر السابق» (٢/٢٨ – ٣١) .

(٢) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

أَخرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ بِئْرِ مَعُونَةَ، قَالَ : لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ، أَوْ سَبْعِينَ، قَالَ : وَعَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ الْجَعْفَرِيُّ، فَخَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى أَتَوْا غَارًا مُشْرِفًا عَلَى الْمَاءِ قَعَدُوا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَيُّكُمْ يُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ هَذَا الْمَاءِ ؟ فَقَالَ : أُرَاهُ أَبَا مِلْحَانَ الْأَنْصَارِيَّ: أَنَا أُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى حَيًّا مِنْهُمْ، فَاخْتَبَى أَمَامَ الْبُيُوتِ، ثُمَّ قَالَ : **يَا أَهْلَ بِئْرِ مَعُونَةَ، إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** . فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ كَسْرِ الْبَيْتِ بِرُمْحٍ، فَضَرَبَ بِهِ فِي جَنْبِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ، فَقَالَ : **اللَّهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ** . فَاتَّبَعُوا أَثَرَهُ حَتَّى أَتَوْا أَصْحَابَهُ، فَقَتَلَهُمْ أَجْمَعِينَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ . قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ فِيهِمْ قُرْآنًا، رُفِعَ بَعْدَمَا قَرَأْنَاهُ زَمَانًا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [(١)] .

وقَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَولِهِ ﷻ فِي حَقِّ صَاحِبِ يَاسِينَ : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ : وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ لَمَّا قُتِلَ قِيلَ لَهُ : ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾. قَالَ قَتَادَةُ : **أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَهُوَ فِيهَا حَيٌّ يُرْزَقُ**. أَرَادَ قَولَ ﷻ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [(٢)] .

---

(١) «تفسير الطبري» (٣٩٣/٧) . وأخرجه البخاري بنحوه دون ذكر نزول الآية آخره، برقم (٢٨٠١) «بَابُ مَنْ يُنْكَبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وقد جاء أيضًا أنَّ الآية نزلت في شهداء أحد؛ ولا يمنع ذلك من تعدُّد السبب الذي نزلت لأجله.

(٢) «تفسير القرطبي» (٢٠/١٥) .

قُلتُ : هُنَا يَجعَلُ الإمَامُ القُرطُبِيُّ قَتْلَ هَذَا الرَّجُلِ الدَّاعِيَةِ «فِي سَبِيلِ اللهِ»؛ حَيثُ يَدخُلُ فِي الفَضِيلَةِ الثَّابِتَةِ بِهَذِهِ الآيَةِ كُلُّ مَن قُتِلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ، سَوَاءٌ كَانَ جِهَادُهُ بِالسَّيفِ والسِّنَانِ، أَو كَانَ بِالكَلِمَةِ واللِّسَانِ، والدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ .

وقَالَ أَبُو بَكرٍ الجَصَّاصِ رَحِمَهُ اللَّهُ : إذَا كَانَ فِي تَلَفِ نَفْسِهِ مَنْفَعَةٌ عَائِدَةٌ عَلَى الدِّينِ، فَهَذَا مَقَامٌ شَرِيفٌ، مَدَحَ اللَّهُ بِهِ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾؛ فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيِ الَّتِي مَدَحَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ؛ وعَلَى ذَلِكَ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَنَّهُ مَتَى رَجَا نَفْعاً فِي الدِّينِ، فبَذَلَ نَفْسَهُ فِيهِ حَتَّى قُتِلَ كَانَ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الشُّهَدَاءِ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِ لُقْمَانَ : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، وعَنْ أَبِيْ سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :" **أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ** " [(١)][(٢)] .

(٣) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران:١٥٧].

قَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ : وَالْمَوْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، هُوَ : الْمَوْتُ فِي أَيِّ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْإِنْسَانُ للهِ، أَيْ : سَبِيلِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ الَّتِي هَدَى اللهُ الْإِنْسَانَ إِلَيْهَا، وَيَرْضَاهَا مِنْهُ [(٣)] .

---

(١) رواه أبو داوود برقم (٤٣٤٤) والترمذي برقم (٢١٧٤) وقال: حديث حسن. ورواه النسائي برقم (٤٢٠٩) وقال المنذري في الترغيب : بإسناد صحيح .

(٢) «أحكام القرآن للجصاص» (٣٢٨/١) .

(٣) «تفسير المنار» (١٦١/٤) .

قُلتُ : ومِن أَعظَمِ دَرَجَاتِ القَتلِ في سَبِيلِ اللهِ أَنْ يُقتَلَ الْمَرءُ وهُوَ يَدعُو النَّاسَ إلى اللهِ ﷻ، ويُبَلِّغُ رِسَالَتَهُ، ويَأمُرُ بِالْمَعرُوفِ، وينَهَى عَنِ الْمُنكَرِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِن أَعظَمِ دَرَجَاتِ الشَّهَادَةِ في سَبِيلِ اللهِ ﷻ؛ كَمَا كَانَ حَالُ جَمِيعِ مَن قُتِلَ مِنَ الأَنبِيَاءِ عليهم السلام، الَّذِينَ قُتِلُوا وهُم يَدعُونَ أَقوَامَهُم إلى اللهِ ﷻ؛ فَإِنَّهُم قُتِلُوا في مَيدَانِ الدَّعوَةِ، دُونَ القِتَالِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَالْحَسَنُ رحمه الله : **لَمْ يُقْتَلْ نَبِيٌّ قَطُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِقِتَالٍ، وَكُلُّ مَنْ أُمِرَ بِقِتَالٍ نُصِرَ**(١). وكَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :" **أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى سُلْطَانٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ** "(٢). وقَالَ أَيضاً :" **أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**"(٣). وكَمَا تَقَدَّمَ في قِصَّةِ حَرَامِ بْنِ مَلْحَانَ رضي الله عنه يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ ..

(٤) قَالَ اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [آل عمران: ٢١].

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ أَبِي مِسْكِينٍ رحمه الله، قَالَ : **كَانَ الْوَحْيُ يَأْتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيُذَكِّرُونَ قَومَهُم، وَلَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِمْ كِتَابٌ، فَيُقْتَلُونَ، فَيَقُومُ رِجَالٌ مِمَّن اتَّبَعَهُمْ وَصَدَّقَهُمْ، فَيُذَكِّرُونَ قَوْمَهُمْ فَيُقْتَلُونَ، فَهُمُ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ** (٤) .

وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ :" **رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا، أَوْ رَجُلاً أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ ونَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ** ". ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤٣٢/١) .

(٢) رواه الطبري في الأوسط عن ابن عباس برقم (٤٠٧٩) والحاكم في المستدرك عن جابر برقم (٤٨٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) رواه أبو داوود عن أبي سعيد الخدري برقم (٤٣٤٤) والترمذي برقم (٢١٧٤) وقال: حديث حسن. ورواه النسائي برقم (٤٢٠٩) وقال : المنذري في الترغيب : بإسناد صحيح .

(٤) «تفسير الطبري» (٦٧٧٧) .

اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، إِلَى أَنِ انْتَهَى إِلَى : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾؛ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **يَا أَبَا عُبَيْدَةَ قَتَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَامَ مِائَةُ رَجُلٍ وَاثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ عُبَّادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَمَرُوا مَنْ قَتَلَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقُتِلُوا جَمِيعًا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ** ﷻ "(١) .

وقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ : **هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَائِمَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عِنْدَ الْخَوْفِ، تَلِي مَنْزِلَتُهُ فِي الْعِظَمِ مَنْزِلَةَ الْأَنْبِيَاءِ** (٢) .

الرَّابِعُ عَشَرَ : «النَّفرُ في سَبيلِ اللهِ» :

(١) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ .. ﴾الآية [التوبة:٣٨].

قَالَ الفَخرُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : أَصْلُ النَّفْرِ : الْخُرُوجُ إِلَى مَكَانٍ لِأَمْرٍ وَاجِبٍ؛ وَاسْمُ ذَلِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ النَّفِيرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ لَا فِي الْعِيرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ (٣).

وقَالَ ابنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَالنَّفْرُ : الْخُرُوجُ السَّرِيعُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ، وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى الْحَرْبِ، وَمَصْدَرُهُ حِينَئِذٍ النَّفِيرُ (٤) .

---

(١) «المصدر السابق» (٦٧٨٠) و«تفسير ابن كثير» (٢/٢٧) .

(٢) «التفسير الكبير» (٧/١٧٧) .

(٣) «المصدر السابق» (١٦/٤٧) .

(٤) «التحرير والتنوير» (١٠/١٨٩).

(٢) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[التوبة:١٢٢]. قَالَ الإِمَامُ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : وَمُنَاسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا أَنَّ **كِلَا النَّفِيرَيْنِ هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِحْيَاءِ دِينِهِ : هَذَا بِالْعِلْمِ، وَهَذَا بِالْقِتَالِ** [١] .

وقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾، لِيَتَكَلَّفُوا الْفَقَاهَةَ فِيهِ، وَيَتَجَشَّمُوا الْمَشَاقَّ فِي أَخْذِهَا وَتَحْصِيلِهَا، ﴿ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾، وَلِيَجْعَلُوا غَرَضَهُمْ وَمَرْمَى هِمَّتِهِمْ فِي التَّفَقُّهِ إِنْذَارَ قَوْمِهِمْ، وَإِرْشَادَهُمْ، وَالنَّصِيحَةَ لَهُمْ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾، إِرَادَةَ أَنْ يَحْذَرُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا؛ **لِأَنَّ الْجِهَادَ بِالْحُجَّةِ أَعْظَمُ أَمْرًا مِنَ الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ**[٢] .

وقَالَ القَاشَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : **مَنْ أَرَادَ التَّفَقُّهَ فَلْيَنفِرْ في سَبِيلِ اللهِ**، ولْيَسلُكْ طَرِيقَ التَّزكِيَةِ والتَّصفِيَةِ، حَتَّى يَظهَرَ العِلمُ مِنْ قَلبِهِ عَلَى لِسَانِهِ .. وإِذَا تَفَقَّهُوا، وظَهَرَ عِلمُهُم عَلَى جَوَارِحِهِم، أَثَّرَ في غَيرِهِم، وتَأَثَّرُوا مِنهُ، لِارتِوَائِهِم بِهِ، وتَرَشُّحِهِم مِنهُ، كَمَا كَانَ حَالُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَلَزِمَ الإِنذَارُ الَّذِي هُوَ غَايَتُهُ [٣] .

وقَالَ الْمَرَاغِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : هَذِهِ الآيَةُ جَاءَت مُتَمِّمَةً لِأَحكَامِ الجِهَادِ، مَعَ بَيَانِ حُكمِ العِلمِ والتَّفَقُّهِ في الدِّينِ، مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ وَسِيلَةٌ لِلجِهَادِ بالحُجَّةِ والبُرهَانِ، وهُوَ الرُّكنُ الرَّكِينُ في الدَّعوَةِ إلى الإِيمَانِ، وإِقَامَةِ دَعَائِمِ الإِسلَامِ، **ولَمْ يُشرَعْ جِهَادُ السَّيفِ إِلَّا لِيَكُونَ حِمَايَةً وَسِيَاجاً لِتِلكَ الدَّعوَةِ، مِنْ أَنْ تَلعَبَ بِهَا أَيدِي المُعتَدِينَ مِنَ الكَافِرِينَ والمُنَافِقِينَ** [٤] .

(**١**) «البحر المحيط في التفسير» (٥/٥٢٦ - ٥٢٨). قلت : هذا بيان أنَّ كلًّا من الخروج للدَّعوة والخروج للقتال يسمَّى نفراً في سبيل الله، إلَّا أنَّ النَّفر والخروج للدعوة هو المقصود الأساسيُّ وبالذات، بحيث لا يصحُّ الخروج للقتال ابتداءاً، ولا يسمَّى قتالاً في سبيل الله إلَّا بتقديم الدَّعوة .

(**٢**) «الكشاف» (٢/٣٢٣) .

(**٣**) «تفسير القاسمي» (٥/٥٢٦) .

(**٤**) «تفسير المراغي» (١١/ ٤٧ - ٤٨) .

الخَامِسُ عَشَرَ: «الهجرَةُ في سَبِيلِ اللهِ»:

(١) قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ **وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ [النساء:٨٩].

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: حَتَّى يَخرُجُوا مِن دَارِ الشِّرك، ويُفَارِقُوا أَهلَهَا، الَّذِينَ هُم بِاللهِ مُشرِكُونَ، إلى دَارِ الإِسلَامِ وأَهلِهَا؛ ﴿ **فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾، يَعنِي: في ابتِغَاءِ دِينِ اللهِ، وهُوَ سَبِيلُهُ، فَيَصِيرُوا عِندَ ذَلِكَ مِثلَكُم، ويَكُونَ لَهُم حِينَئِذٍ حُكمُكُم .. ثُمَّ رَوَى بِإِسنَادِهِ عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: **حَتَّى يَصنَعُوا كَمَا صَنَعتُم؛ يَعنِي «الهِجرَةَ في سَبِيلِ اللهِ»** [١].

وقَالَ الفَخرُ الرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: اعْلَمْ أَنَّ الْهِجْرَةَ تَارَةً تَحْصُلُ بِالِانْتِقَالِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، وَأُخْرَى تَحْصُلُ بِالِانْتِقَالِ عَنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ إِلَى أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ ﷺ: "**الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّه عَنْهُ** ". وَقَالَ الْمُحَقِّقُونَ: «الْهِجْرَةُ فِي سَبِيلِ اللَّه»: عِبَارَةٌ عَنِ الْهِجْرَةِ عَنْ تَرْكِ مَأْمُورَاتِهِ، وَفِعْلِ مَنْهِيَّاتِهِ. وَلَمَّا كَانَ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ مُعْتَبَرًا، لَا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ ﷻ لفظاً عَامًّا يَتَنَاوَلُ الْكُلَّ، فَقَالَ: ﴿ **حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾؛ فَإِنَّهُ ﷻ لَمْ يَقُلْ حَتَّى يُهَاجِرُوا عَنِ الْكُفْرِ، بَلْ قَالَ: ﴿ **حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾، وَذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهِ مُهَاجَرَةُ دَارِ الْكُفْرِ، وَمُهَاجَرَةُ شِعَارِ الْكُفْرِ؛ ثُمَّ لَمْ يَقْتَصِرْ ﷻ عَلَى ذِكْرِ الْهِجْرَةِ، بَلْ قَيَّدَهُ بِكَوْنِهِ «فِي سَبِيلِ اللَّه»، فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَتِ الْهِجْرَةُ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، وَمِنْ شِعَارِ الْكُفْرِ إِلَى شِعَارِ الْإِسْلَامِ لِغَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ وُقُوعُ تِلْكَ الهِجرَةِ لِأَجلِ أَمرِ اللهِ ﷻ [٢].

وقَالَ عِكْرِمَةُ رَحِمَهُ اللهُ: هِيَ هِجْرَةٌ أُخْرَى، وَالْهِجْرَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: (١) هِجْرَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ** ﴾ [الْحَشْر: ٨] وَقَوْلُهُ: ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾[النِّسَاءِ: ١٠٠]، وَنَحْوُهُمَا مِنَ الْآيَاتِ. (٢) وَهِجْرَةُ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/٨).

(٢) «التفسير الكبير» (١٧١/١٠).

الْمُؤْمِنِينَ : وَهِيَ الْخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صابِرًا مُحْتَسِبًا، كَمَا حُكِيَ هَاهُنَا، وفِي هَذِهِ الآيَةِ مَنَعَ الْمُؤمِنِينَ مِن مُوَالَاةِ الْمُنَافِقِينَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. (٣) وهِجرَةُ سَائِرِ الْمُؤمِنِينَ مَا نَهَى اللهُ عَنهُ : وهي مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ** " (١) .

وقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ : قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ رضي الله عنهم الذَّهَابَ فِي الْأَرْضِ قِسْمَيْنِ : هَرَبًا وَطَلَبًا، فَالْأَوَّلُ يَنْقَسِمُ إِلَى سِتَّةِ أَقسَامٍ :

الأَوَّلُ : الهِجرَةُ : وهِيَ الخُرُوجُ مِن دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ فَرْضًا فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهَذِهِ الْهِجْرَةُ بَاقِيَةٌ مَفْرُوضَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّتِي انْقَطَعَتْ بِالْفَتْحِ هِيَ الْقَصْدُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ كَانَ، فَإِنْ بَقِيَ فِي دَارِ الْحَرْبِ عَصَى، وَيُخْتَلَفُ فِي حَالِهِ.

الثَّانِي : الْخُرُوجُ مِنْ أَرْضِ الْبِدْعَةِ، قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ : لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُقِيمَ بِأَرْضٍ يُسَبُّ فِيهَا السَّلَفُ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْمُنْكَرَ إِذَا لَمْ تَقْدِرْ أَنْ تُغَيِّرَهُ فَزُلْ عَنْهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ **الظَّالِمِينَ** ﴾.

الثَّالِثُ : الْخُرُوجُ مِنْ أَرْضٍ غَلَبَ عَلَيْهَا الْحَرَامُ؛ فَإِنَّ طَلَبَ الْحَلَالِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

الرَّابِعُ : الْفِرَارُ مِنَ الْأَذِيَّةِ فِي الْبَدَنِ، وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ أَرْخَصَ فِيهِ، فَإِذَا خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي الْخُرُوجِ عَنْهُ وَالْفِرَارِ بِنَفْسِهِ لِيُخَلِّصَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَحْذُورِ. وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، فَإِنَّهُ لَمَّا خَافَ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ : ﴿ **إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي** ﴾.

الْخَامِسُ : خَوْفُ الْمَرَضِ فِي الْبِلَادِ الْوَخِمَةِ، وَالْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى الْأَرْضِ النَّزِهَةِ. وَقَدْ أَذِنَ ﷺ لِلرُّعَاةِ حِينَ اسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ، أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الْمَسْرَحِ، فَيَكُونُوا فِيهِ حَتَّى يَصِحُّوا. وَقَدِ

(١) «تفسير البغوي» (٢/٢٦٠) .

اسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ الْخُرُوجُ مِنَ الطَّاعُونِ، فَمَنَعَ اللَّهُ ﷻ مِنْهُ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ، بَيْدَ أَنَّ عُلَمَاءَنَا قَالُوا : هُوَ مَكْرُوهٌ.

السَّادِسُ : الْفِرَارُ خَوْفَ الْأَذِيَّةِ فِي الْمَالِ، فَإِنَّ حُرْمَةَ مَالِ الْمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ، وَالْأَهْلُ مِثْلُهُ وَأَوْكَدُ.

وَأَمَّا قِسْمُ الطَّلَبِ، فَيَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : طَلَبُ دِينٍ، وَطَلَبُ دُنْيَا، فَأَمَّا طَلَبُ الدِّينِ، فَيَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ أَنْوَاعِهِ إِلَى تِسْعَةِ أَقْسَامٍ :

الْأَوَّلُ : سَفَرُ الْعِبْرَةِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ وَهُوَ كَثِيرٌ. وَيُقَالُ : إِنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا طَافَ الْأَرْضَ لِيَرَى عَجَائِبَهَا. وَقِيلَ : لِيُنَفِّذَ الْحَقَّ فِيهَا.

الثَّانِي : سَفَرُ الحَجِّ . والأَوَّلُ وإِن كَانَ نَدْبًا، فَهَذَا فَرْضٌ.

الثَّالِثُ : سَفَرُ الْجِهَادِ، وَلَهُ أَحْكَامُهُ [١].

الرَّابِعُ : سَفَرُ الْمَعَاشِ، فَقَدْ يَتَعَذَّرُ عَلَى الرَّجُلِ مَعَاشُهُ مَعَ الْإِقَامَةِ، فَيَخْرُجُ فِي طَلَبِهِ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ، مِنْ صَيْدٍ أَوِ احْتِطَابٍ أَوِ احْتِشَاشٍ، فَهُوَ فَرْضٌ عَلَيْهِ.

الْخَامِسُ : سَفَرُ التِّجَارَةِ وَالْكَسْبِ الزَّائِدِ عَلَى الْقُوتِ، وَذَلِكَ جَائِزٌ بِفَضْلِ اللَّهِ ﷻ، قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ يَعْنِي : التِّجَارَةَ؛ وَهِيَ نِعْمَةٌ مَنَّ اللَّهُ بِهَا فِي سَفَرِ الْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا انْفَرَدَتْ.

السَّادِسُ : فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَهُوَ مَشْهُورٌ.

السَّابِعُ : قَصْدُ الْبِقَاعِ، قَالَ ﷺ :" **لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ** ".

---

(١) قلت : تقدَّم مراراً أنَّ السَّفرَ للجهادِ لم يُشرع إلَّا لغاية الدَّعوة ونشر الرِّسالة .

الثَّامِنُ : الثُّغُورُ لِلرِّبَاطِ بِهَا، وَتَكْثِيرِ سَوَادِهَا، لِلذَّبِّ عَنْهَا.

التَّاسِعُ : زِيَارَةُ الْإِخْوَانِ فِي اللَّهِ ﷻ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" **زَارَ رَجُلٌ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ مَلَكًا عَلَى مَدْرَجَتِهِ، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ فَقَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ؛ قَالَ : هَلْ لَكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيْهِ ؟ قَالَ : لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ؛ قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ** ". رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ [١] .

وقَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ : وَ«الْمُهَاجَرَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» : هِيَ الْمُهَاجَرَةُ لِأَجْلِ دِينِ اللَّهِ .. قَالَ فِي الْكَشَّافِ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ : وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي بَلَدٍ لَا يَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنْ إِقَامَةِ أَمْرِ دِينِهِ كَمَا يَجِبُ، لِبَعْضِ الْأَسْبَابِ وَالْعَوَائِقِ عَنْ إِقَامَةِ الدِّينِ، لَا تَنْحَصِرُ، أَوْ عَلِمَ أَنَّهُ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ أَقْوَمُ بِحَقِّ اللهِ، وَأَدْوَمُ عَلَى الْعِبَادَةِ، حَقَّتْ عَلَيْهِ الْمُهَاجِرَةُ.اه وَمَعْنَى «سَبِيلِ اللهِ» : الطَّرِيقُ الَّذِي يُرْضِيهِ، وَيُقِيمُ دِينَهُ [٢] .

وَقَالَ الشَّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَدِ اسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ : عَلَى أَنَّ الْهِجْرَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ بِدَارِ الشِّرْكِ، أَوْ بِدَارٍ يُعْمَلُ فِيهَا بِمَعَاصِي اللَّهِ جِهَارًا، إِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْهِجْرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، لِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْعُمُومِ، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ خَاصًّا كَمَا تَقَدَّمَ . وَظَاهِرُهَا : عَدَمُ الفَرقِ بَيْنَ مَكَانٍ وَمَكَانٍ، وَزَمَانٍ وَزَمَانٍ [٣] .

وقَالَ ابنُ عُثَيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ : الهَجرُ فِي الشَّرعِ لَهُ مَعنَيَانِ : عَامٌّ، وخَاصٌّ؛ فَأَمَّا العَامُّ : فَهُوَ هَجرُ مَا حَرَّمَ اللهُ ﷻ؛ وأَمَّا الخَاصُّ : فَهُوَ أَن يَهجُرَ الإِنسَانُ بَلَدَهُ وَوَطَنَهُ للهِ ورَسُولِهِ، فَيُهَاجِرَ مِنْ أَجلِ إِقَامَةِ دِينِ اللهِ، وحِمَايَةِ نَفسِهِ مِنَ الزَّيغِ، **والمُرَادُ بِالهِجرَةِ في الآيَةِ مَا يَشمَلُ المَعنَيَينِ: العَامَّ، والخَاصَّ** [٤] .

---

(١) «أحكام القرآن» (١/٦١٠-٦٦١٣) .

(٢) «تفسير المنار» (٥/٢٩٠) .

(٣) «فتح القدير للشوكاني» (١/٥٨٣) .

(٤) «تفسير ابن عثيمين» (٣/٦٢) .

(٢) قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠].

قَالَ ابنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ ﴾ ومَنْ يُفَارِقْ أَرضَ الشِّرك وأَهلَهَا، هَرَبًا بِدِينه مِنهَا ومِنهُم، إلى أَرضِ الإسلام وأَهلِهَا الْمُؤمِنِينَ؛ ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، يَعني : في مِنهَاج دِينِ اللهِ وطَرِيقهِ الَّذِي شَرَعَهُ لِخَلقِهِ، وذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ .. [١] .

وقَالَ السَّعدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : هَذَا في بَيَانِ الحَثِّ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهَا، وبَيَانِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ، فَوَعَدَ الصَّادِقُ في وَعْدِهِ أَنَّ مَنْ هَاجَرَ في سَبِيلِهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، أَنَّهُ يَجِدُ مُرَاغَماً في الأَرْضِ وسَعَةً، فَـ«الْمُرَاغَمُ» : مُشْتَمِلٌ عَلَى مَصَالِحِ الدِّيْنِ، وَ«السَّعَةُ» : عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا؛ وذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ في الْهِجْرَةِ شَتَاتًا بَعْدَ الأُلْفَةِ، وفَقْرًا بَعْدَ الْغِنَى، وذُلاًّ بَعْدَ الْعِزِّ، وشِدَّةً بَعْدَ الرَّخَاءِ؛ والأَمْرُ لَيسَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ فَدِيْنُهُ في غَايَةِ النَّقْصِ، لا في الْعِبَادَاتِ الْقَاصِرَةِ عَلَيهِ كَالصَّلاةِ ونَحْوِهَا، ولا في الْعِبَادَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ، **كَالجِهَادِ بِالْقَولِ وَالْفِعْلِ**، وتَوَابِعِ ذَلِكَ، لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ ذَلِكَ، وهُوَ بِصَدَدِ أَنْ يُفْتَنَ عَنْ دِيْنِهِ، خُصُوصاً إِنْ كَانَ مُسْتَضْعَفًا . فَإِذَا هَاجَرَ في سَبِيلِ اللهِ تَمَكَّنَ مِنْ إِقَامَةِ دِيْنِ اللهِ، وجِهَادِ أَعْدَاءِ اللهِ، ومُرَاغَمَتِهِم، فَإِنَّ «**الْمُرَاغَمَةَ**» : اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يَحْصُلُ بِهِ إِغَاظَةٌ لأَعْدَاءِ اللهِ، مِنْ **قَولٍ وَفِعْلٍ**؛ وَكَذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ سَعَةٌ في رِزْقِهِ، وقَدْ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ ﷻ .. وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ في قَولِهِ : ﴿ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ قَالَ : **أَيْ مِنَ الضَّلالَةِ إِلَى الْهُدَى، ومِنَ الْقِلَّةِ إِلَى الْغِنَى** .

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، أَيْ : قَاصِداً رَبَّهُ ورِضَاهُ ومَحَبَّةً لِرَسُولِهِ ونَصْرًا لِدِينِ اللهِ، لا لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ ﴿ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ ﴾ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ ﴾، أَيْ : فَقَدْ حَصَلَ لَهُ أَجْرُ الْمُهَاجِرِ الَّذِيْ أَدْرَكَ

(١) «تفسير الطبري» (١١٢/٩) .

مَقْصُودَهُ بِضَمَانِ اللهِ ﷻ، وذَلِكَ لأَنَّهُ نَوَى وجَزَمَ، وحَصَلَ مِنْهُ ابْتِدَاءٌ وشُرُوعٌ في الْعَمَلِ، فَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهِ وبِأَمْثَالِهِ أَنْ أَعْطَاهُمْ أَجْرَهُمْ كَامِلاً، ولَوْ لَمْ يُكَمِّلُوا الْعَمَلَ، وغَفَرَ لَهُمْ مَا حَصَلَ مِنْهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ في الْهِجْرَةِ وغَيْرِهَا [(١)]؛ ومِنْهُ حَدِيثُ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ثُمَّ سَأَلَ عَالِماً : هَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ ؟ فَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ يَعْبُدُ اللهَ فِيهِ. فَلَمَّا ارْتَحَلَ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِراً إِلَى الْبَلَدِ الآخَرِ أَدْرَكَهُ الْمَوتُ في أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائِكَةُ الْعَذَابِ، .. فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِيْ هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِبْرٍ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ [(٢)] .

وقَالَ مُحَمَّدُ رَشِيد رضَا رَحِمَهُ اللهُ : ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ : الْمُهَاجِرُ كَسَائِرِ النَّاسِ، عُرْضَةٌ لِلْمَوْتِ، ولَمَّا وَعَدَ تَعَالَى مَنْ يُهَاجِرُ فَيَصِلُ إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ، بِالظَّفَرِ بِمَا يَنْبَغِي مِنْ وِجْدَانِ الْمُرَاغَمِ وَالسَّعَةِ، وَعَدَ مَنْ يَمُوتُ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ بُلُوغِهَا بِأَجْرٍ عَظِيمٍ يَضْمَنُهُ ﷻ لَهُ، فَمَتَى خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بِقَصْدِ الْهِجْرَةِ إِلَى اللهِ أَيْ : **حَيْثُ يُرْضِي اللهَ، وَإِلَى نُصْرَةِ رَسُولِهِ فِي حَيَاتِهِ، وَمِثْلُهَا إِقَامَةُ سُنَنِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ،** كَانَ مُسْتَحِقًّا لِهَذَا الأَجْرِ، وَلَوْ مَاتَ بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ عَتَبَةَ الْبَابِ [(٣)] .

وقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ مَنْ سَارَ لأَمْرٍ فِيهِ مَنْفَعَةٌ : كَطَلَبِ عِلْمٍ، وحَجٍّ، وَكَسْبِ حَلالٍ، ومَاتَ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى مَقْصَدِهِ، فَلَهُ مِثْلُ هَذَا الْحُكْمِ؛ كَمَا أَنَّ حُكْمَ هَذِهِ الآيَةِ بَاقٍ في الجهَادِ، والْمَشْيِ إلى الصَّلَاةِ، والحَجِّ، ونَحْوِهِ [(٤)] .

---

(١) «تفسير السعدي» ص (١٩٦) .

(٢) «تفسير ابن كثير» باختصار (٥٤٩/١). قلت : انظر إلى هذا الحَبرِ العلَّامة ابن كثير، كيف جعل مَنْ خرج من بيئة الفساد قاصداً بيئة الصَّلاح الْمُعِينَةَ على الثَّبات على التَّوبة، جعل هذا من «الهجرة في سبيل الله»، بحيث يدخل في فضائل الهجرة وأحكامها في الجملة؛ وهذا يشترك مع مقصد «الخروج في سبيل» لدى المبلِّغين في زماننا، لتكوين بيئةِ الإيمان والتَّعليم، ودعوةِ النَّاس إليها؛ والله أعلم .

(٣) «تفسير المنار» (٢٩٣/٥) .

(٤) «تفسير القطان» (٣٣١/١) «تفسير الثعالبي» (٢٨٩/٢) .

وقَالَ أَبُو حَيَّانَ التَّوحِيدِيُّ وَالزَّمَخْشَرِيُّ رَحِمَهُمَاللهُ حِكَايَةً عَنِ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ كُلَّ هِجْرَةٍ لِغَرَضٍ دِينِيٍّ، مِنْ طَلَبِ عِلْمٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ جِهَادٍ أَوْ فِرَارٍ إِلى بَلَدٍ يَزْدَادُ فِيهِ طَاعَةً أَوْ قَنَاعَةً أَوْ زُهْداً فِي الدُّنْيَا وَابْتِغَاءَ رِزْقٍ طَيِّبٍ، فَهِيَ هِجْرَةٌ إِلى اللهِ ورَسُولِهِ، وإِنْ أَدْرَكَهُ الْمَوتُ فِي طَرِيقِهِ فَأَجْرُهُ وَاقِعٌ عَلَى اللهِ [(١)] .

قُلتُ : هَذَا الكَلَامُ يَنطَبِقُ عَلَى «خُرُوجِ الدُّعَاةِ والْمُبَلِّغِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ» مِن بَابِ أَولَى؛ إِذْ تَزدَادُ طَاعَةُ الخَارِجِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وقَنَاعَتُهُم وزُهدُهُم فِي الدُّنيَا، ويَتَعَلَّمُونَ الصِّفَاتِ الإِيمَانِيَّةَ الْمَحبُوبَةَ عِندَ اللهِ، ويَجتَهِدُونَ لِنَشرِهَا بَينَ النَّاسِ؛ وهَذَا وَاقِعٌ وثَابِتٌ لِمَن أَنصَفَ وتَجَرَّدَ عَنِ الهَوَى؛ فَـ«الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ» : هِجْرَةٌ إِلى اللهِ ورَسُولِهِ، يَجِدُ صَاحِبُهَا مَوعُودَ اللهِ ﷻ لِمَن هَاجَرَ فِي سَبِيلِهِ بِالْمُرَاغَمِ الكَثِيرِ والسَّعَةِ؛ فَيَحفَظُ إِيمَانَهُ، ويَزدَادُ إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِ، ويَجتَهِدُ لِنَشرِ هَذَا الإِيمَانِ فِي النَّاسِ؛ وإِنْ أَدْرَكَهُ الْمَوتُ فِي طَرِيقِهِ هَذَا، فَأَجْرُهُ وَاقِعٌ عَلَى اللهِ ﷻ؛ وذَلِكَ فَضلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ، واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ .

وقَالَ البَيضَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الهِجرَةِ مِن مَوضِعٍ لا يَتَمَكَّنُ فِيهِ الرَّجُلُ مِن إِقَامَةِ دِينِهِ .انتهى. قُلتُ : ويَدخُلُ فِيهِ – عَلَى طَرِيقِ الخُصُوصِ – مَنْ فَرَّ مِن مَوضِعٍ تَكثُرُ فِيهِ الشَّهَوَاتُ والعَوَائِدُ، أَو تَكثُرُ فِيهِ العَلَائِقُ والشَّوَاغِلُ، إِلى مَوضِعٍ يَقِلُّ فِيهِ ذَلِكَ، طَلَبًا لِصَفَاءِ قَلبِهِ، ومَعرِفَةِ رَبِّهِ، بَل هُوَ أَولَى .. واللهُ أَعلَمُ [(٢)] .

وقَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : الْهِجْرَةُ ضَرْبَانِ : ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ؛ فَالْبَاطِنَةُ : تَرْكُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ وَالشَّيْطَانُ؛ وَالظَّاهِرَةُ : الْفِرَارُ بِالدِّينِ مِنَ الْفِتَنِ.. بَلْ حَقِيقَةُ الْهِجْرَةِ تَحْصُلُ لِمَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، فَاشْتَمَلَتْ هَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ عَلَى جَوَامِعَ مِنْ مَعَانِي الْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ [(٣)] .

---

(١) «تفسير البحر المحيط» (٣/٢٧٤) و«تفسير الكشاف» (١/٥٩٠) .

(٢) «البحر المديد» (١/٥٥٢) .

(٣) «فتح الباري» (١/٥٤) .

وَقَالَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْلُهُ :" **وَلَكِنْ جِهَادٌ** ". عَطْفٌ عَلَى مَدْخُولِ :" **لَا هِجْرَةَ بعد الفتح** ". أَيِ الْهِجْرَةُ : إِمَّا فِرَارًا مِنَ الْكُفَّارِ، وَإِمَّا إِلَى الْجِهَادِ، وَإِمَّا إِلَى نَحْوِ طَلَبِ الْعِلْمِ؛ وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْأُولَى فَاغْتَنِمُوا الْأَخِيرَتَيْنِ (١) . قُلتُ : ولا يَخفَى أَنَّ خُرُوجَ الْمُبَلِّغِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ جِهَادٌ، وطَلَبٌ لِلعِلمِ النَّافِعِ، الدَّافِعِ لِلعَمَلِ والتَّبليغ .

(٣) قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ** ﴾[الحج: ٥٨].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ العَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ **هَاجَرُواْ** ﴾ : تَرَكُوا أَوْطَانَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إيثَارًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي إعْلَاءِ دِينِهِ، وَإِظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وَلُزُومِ طَاعَتِهِ، وَعُمُومِ دَعْوَتِهِ (٢) .

وقَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ مَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : سَوَاءٌ الْمَقْتُولُ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتُ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْمَقْتُولُ أَفْضَلُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ، يُعَلِّمُهُمُ اسْتِوَاءَ أَمْرِ الْمَيِّتِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْمَقْتُولِ فِيهَا، فِي الثَّوَابِ عِنْدَهُ (٣) .

وقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : يُخْبِرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِراً فِي سَبِيلِ اللهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وطَلَباً لِمَا عِنْدَهُ، وتَرَكَ الأَوْطَانَ والأَهْلِينَ والخِلاَّنَ، وفَارَقَ بِلادَهُ فِي اللهِ ورَسُولِه، ونُصْرَةً لِدِينِ اللهِ، ﴿ **ثُمَّ قُتِلُوٓاْ** ﴾ أَيْ : فِي الجِهَادِ، ﴿ **أَوْ مَاتُواْ** ﴾أَيْ : حَتْفَ أَنْفِهِم، أَيْ مِنْ غَيرِ قِتَالٍ عَلَى فُرُشِهِم، فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالثَّنَاءِ الجَمِيلِ . وقَولُهُ : ﴿ **لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا** ﴾ أَيْ : لَيُجْرِيَنَّ عَلَيهِم مِنْ فَضْلِهِ ورِزْقِهِ فِي الْجَنَّة مَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُم، .. فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيرِ مُهَاجِرٍ، فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيْمَةُ مَعَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ، وعَظِيمَ إِحْسَانِ اللهِ إِلَيْهِ، .. فَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ

---

(١) «المصدر السابق» (٤٧/٤) .

(٢) «أحكام القرآن» (٤٣٩/٢) .

(٣) «تفسير الطبري» (٦٧٣/١٦) .

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :" **مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً أُجْرِيَ عَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ الأَجْرِ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَّانَيْنِ؛ وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ...** ثُمَّ تَلا الآيَةَ [(١)]. وعَنْ عَبدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَحْدَمٍ الخَوْلانِيِّ : أَنَّهُ حضَرَ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ فِي الْبَحْرِ مَعَ جَنَازَتَيْنِ : أَحَدُهُمَا أُصِيبَ بِمَنْجَنِيقٍ، والآخَرُ تُوُفِّيَ، فَجَلَسَ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ عِنْدَ قَبْرِ الْمُتَوَفَّى، فَقِيلَ لَهُ : تَرَكْتَ الشَّهِيدَ فَلَمْ تَجْلِسْ عِنْدَهُ ؟ فَقَالَ : **مَا أُبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ، إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فَمَا تَبْتَغِي أَيُّهَا الْعَبْدُ، إِذَا أُدْخِلْتَ مُدْخَلاً تَرْضَاهُ، وَرُزِقْتَ رِزْقاً حَسَناً، وَاللهِ مَا أُبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ**"[(٢)(٣)].

وعَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ : **مَا ازْدَادَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِيْهِمْ فِيْ سَبِيلِ اللهِ بُعْداً، إِلاَّ ازْدَادُوْا مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قُرْباً** [(٤)] .

فَلَمَّا كَانَ الْخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ مِن أَقْرَبِ الأَحوَالِ إِلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لا جَرَمَ أَنَّ دُعَاءَ الخَارِجِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَحرَى الدُّعَاءِ أَنْ يُسْتَجاب، كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ رَحِمَهُ اللهُ : **مَا مِنْ حَالٍ أَحْرَى أَنْ يُسْتَجَابَ لِلْعَبْدِ فِيْهِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِيْ سَبِيلِ اللهِ، مِنْ أَنْ يَكُونَ عَافِراً وَجْهَهُ سَاجِداً** [(٥)] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره واللفظ له (١٤٨٤٢)، ورواه أحمد في مسنده بمعناه عن أبي هريرة (٢٤٤)، وابن ماجه (٢٧٦٧)، ورواه ابن حبان في صحيحه عن سلمان (٤٦٢٦)، وقال البوصيري في الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، ورواه الحاكم في المستدرك بنحوه (٢٤٢٢) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٢) رواه ابن المبارك في «الجهاد» (٦٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في «تفسير ابن كثير» (٣/٢٣٧) .

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/٢٣٦–٢٣٧) .

(٤) «تفسير الطبري» (١٧٤٦٥) و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠٩٤٥) و«تفسير ابن كثير» (٣/٣٩٨).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧٦٣٨) و(١٩٤٨٤) .

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ : «فَصلٌ فِي الهِجرَةِ إلى اللهِ ورَسُولِهِ» :

الهِجرَةُ إلى اللهِ ورَسُولِهِ فَرضُ عَينٍ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ وَقتٍ، ولَا انفِكَاكَ لِأَحَدٍ عَن وُجُوبِهَا، وهِيَ مَطلُوبُ اللهِ ومُرَادُهُ مِنَ العِبَادِ؛ إِذِ الهِجرَةُ هِجرَتَانِ :

الهِجرَةُ الأُولَى : هِجرَةٌ بِالجِسمِ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وهَذِهِ أَحكَامُهَا مَعلُومَةٌ، ولَيسَ الْمُرَادُ الكَلَامَ فِيهَا.

والهِجرَةُ الثَّانِيَةُ : الهِجرَةُ بِالقَلبِ إلى اللهِ ورَسُولِهِ، وهَذِهِ هِيَ الْمَقصُودَةُ هُنَا، وهَذِهِ الهِجرَةُ هِيَ الهِجرَةُ الحَقِيقِيَّةُ، وهِيَ الأَصلُ، وهِجرَةُ الجَسَدِ تَابِعَةٌ لَهَا .

وهِيَ هِجرَةٌ تَتَضَمَّنُ «مِن» و«إلى»، فَيُهَاجِرُ بِقَلبِهِ مِن مَحَبَّةِ غَيرِ اللهِ إلى مَحَبَّتِهِ، ومِن عُبُودِيَّةِ غَيرِهِ إلى عُبُودِيَّتِهِ، ومِن خَوفِ غَيرِهِ ورَجَائِهِ والتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، إلى خَوفِ اللهِ ورَجَائِهِ والتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، ومِن دُعَاءِ غَيرِهِ، وسُؤَالِهِ والخُضُوعِ لَهُ، والذُّلِّ والاِستِكَانَةِ لَهُ، إلى دُعَائِهِ وسُؤَالِهِ، والخُضُوعِ لَهُ، والذُّلِّ لَه والاِستِكَانَةِ لَهُ، وهُجرَانِ مَا يَكرَهُهُ، وإِتيَانِ مَا يُحِبُّهُ ويَرضَاهُ؛ وهَذَا بِعَينِهِ مَعنَى الفِرَارِ إِلَيهِ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾، والتَّوحِيدُ الْمَطلُوبُ مِنَ العَبدِ هُوَ الفِرَارُ مِنَ اللهِ إِلَيهِ؛ فَتَأَمَّلْ كَيفَ عَادَ الأَمرُ كُلُّهُ إلى الفِرَارِ مِنَ اللهِ إِلَيهِ، وهُوَ مَعنَى الهِجرَةِ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنهُ** ". ولِهَذَا يَقرِنُ اللهُ تَعَالَى بَينَ الإِيمَانِ والهِجرَةِ فِي غَيرِ مَوضِعٍ لِتَلَازُمِهِمَا، واقتِضَاءِ أَحَدِهِمَا لِلآخَرِ.

«الهِجرَةُ العَارِضَةُ» : والَّذِي يَقضِي مِنهُ العَجَبُ : أَنَّ الْمَرءَ يُوَسِّعُ الكَلَامَ، ويُفَرِّعُ الْمَسَائِلَ فِي الهِجرَةِ مِن دَارِ الكُفرِ إلى دَارِ الإِسلَامِ، وفِي الهِجرَةِ الَّتِي انقَطَعَت بِالفَتحِ، وهَذِهِ هِجرَةٌ عَارِضَةٌ، رُبَّمَا لا تَتَعَلَّقُ بِهِ فِي العُمُرِ أَصلاً .

«الهِجرَةُ الدَّائِمَةُ» : وأَمَّا هَذِهِ الهِجرَةُ الَّتِي هِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى مَدَى الأَنفَاسِ، فَإِنَّهُ لا يُحَصِّلُ فِيهَا عِلماً ولَا إِرَادَةً، ومَا ذَاكَ إِلَّا لِلإِعرَاضِ عَمَّا خُلِقَ لَهُ، والاِشتِغَالِ بِمَا لَا يُنجِيهِ .

وأَمَّا «الهِجرَةُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ »، فَعِلمٌ لَم يَبقَ مِنهُ سِوَى اسْمِهِ، ومَنهَجٌ لَم تَترُكْ بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ سِوَى رَسمِهِ، ومَحَجَّةٌ سَفَتْ عَلَيهَا السَّوَافِي، فَطَمَسَت رُسُومَهَا، وغَارَت عَلَيهَا الأَعَادِي

فغَوَّرت مَنَاهِلَهَا وعُيُونَهَا؛ فَسَالِكُهَا غَرِيبٌ بَينَ العِبَادِ، فَرِيدٌ بَينَ كُلِّ حَيٍّ ونَادٍ، بَعِيدٌ عَلَى قُربِ الْمَكَانِ، وَحِيدٌ عَلَى كَثرَةِ الجِيرَانِ، مُستَوحِشٌ مِمَّا بِهِ يَستَأنِسُونَ، مُستَأنِسٌ مِمَّا بِهِ يَستَوحِشُونَ، مُقِيمٌ إِذَا ظَعَنُوا، ظَاعِنٌ إِذَا قَطَنُوا، مُنفَرِدٌ فِي طَرِيقِ طَلَبِهِ، لا يَقَرُّ قَرَارُهُ حَتَّى يَظفَرَ بِأَرَبِهِ، فَهُوَ الكَائِنُ مَعَهُم بِجَسَدِهِ، البَائِنُ مِنهُم بِمَقصَدِهِ، نَامَت فِي طَلَبِ الهُدَى أَعيُنُهُم، ومَا لَيلُ مَطِيَّتِهِ بِنَائِمٍ، وقَعَدُوا عَنِ الهِجرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وهُوَ فِي طَلَبِهَا مُشَمِّرٌ قَائِمٌ، يَعِيبُونَهُ بِمُخَالَفَةِ آرَائِهِم، ويُزرُونَ عَلَيهِ إِزرَاءَهُ عَلَى جَهَالَاتِهِم وأَهوَائِهِم، قَد رَجَمُوا فِيهِ الظُّنُونَ، وأَحدَقُوا فِيهِ العُيُونَ، وتَرَبَّصُوا بِهِ رَيبَ الْمَنُونِ، ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

والْمَقصُودُ : أَنَّ هَذِهِ الهِجرَةَ فَرضٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ، وهِيَ مُقتَضَى «شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولِ اللهِ ﷺ » كَمَا أَنَّ الهِجرَةَ الأُولَى مُقتَضَى «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ وعَن هَاتَينِ الهِجرَتَينِ يُسأَلُ كُلُّ عَبدٍ يَومَ القِيَامَةِ، وفِي البَرزَخِ، ويُطَالَبُ بِهَا فِي الدُّنيَا ودَارِ البَرزَخِ ودَارِ القَرَارِ[1].

وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ أيضًا : وَللهِ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ هِجْرَتَانِ؛ وَهُمَا فَرْضٌ لَازِمٌ لَهُ عَلَى الْأَنْفَاسِ :

«هِجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى » : بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالْحُبِّ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ وَالْعُبُودِيَّةِ.

«وَهِجْرَةٌ إِلَى رَسُولِهِ ﷺ » : بِالتَّحْكِيمِ لَهُ، وَالتَّسْلِيمِ، وَالتَّفْوِيضِ، وَالِانْقِيَادِ لِحُكْمِهِ، وَتَلَقِّي أَحْكَامِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مِنْ مِشْكَاتِهِ.

فَمَا لَمْ يَكُنْ لِقَلْبِهِ هَاتَانِ الْهِجْرَتَانِ، فَلْيَحْثُ عَلَى رَأْسِهِ الرَّمَادَ، وَلْيُرَاجِعِ الْإِيمَانَ مِنْ أَصْلِهِ، فَيَرْجِعَ وَرَاءَهُ لِيَقْتَبِسَ نُورًا، قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَيُقَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى الصِّرَاطِ مِنْ وَرَاءِ السُّورِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ [2].

---

(١) «الرسالة التبوكية – زاد المهاجر إلى ربه –» ص (١٦ – ٢٢) .

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٤٣٣) .

الْمَبحَثُ الثَّانِي :

ذِكرُ أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ وآثَارٍ سَلَفِيَّةٍ عَن الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ، والأَئِمَّةِ الْمَهدِيِّينَ، فِيهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» بِمَفهُومِهِ العَامِّ :

أَوَّلاً : بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» :

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي صَحِيْحِهِ فِي «كِتَابِ الجِهَادِ» فِي «بَابِ مَسْحِ الْغُبَارِ عَنِ الرَّأْسِ فِي سَبِيْلِ اللهِ » عَنْ أَبِيْ سَعِيْدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا نَنْقُلُ لَبِنَ الْمَسْجِدِ لَبِنَةً لَبِنَةً، وَكَانَ عَمَّارٌ يَنْقُلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَمَرَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ عَنْ رَأْسِهِ الْغُبَارَ، وَقَالَ :" **وَيْحَ عَمَّارٍ ! تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، عَمَّارٌ يَدْعُوهُمْ إِلى اللهِ، وَيَدْعُونَهُ إِلى النَّارِ** " [(١)] .

قُلتُ : إِيرَادُ الإِمَامِ البُخَارِيِّ هَذَا الحَدِيثِ فِي كِتَابِ الجِهَادِ، وتَبوِيبُهُ عَلَيهِ بِ«بَابِ مَسْحِ الْغُبَارِ عَنِ الرَّأْسِ فِي سَبِيْلِ اللهِ»، وَإِنَّمَا كَانُوا يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ، هَذَا استِعمَالٌ مِنهُ لِمُصطَلَحِ «**سَبِيْلِ اللهِ**» بِمَفهُومِهِ العَامِّ، ولَيسَ فِي هَذَا الِاستِعمَالِ مَحظُورٌ شَرعِيٌّ، ولا تَحرِيفٌ لِلكَلِمِ عَن مَوَاضِعِهِ، بَل هُوَ سَائِغٌ، مُتَمَاشٍ مَعَ فَهمِ السَّلَفِ لِنُصُوصِ الشَّرِيعَةِ ومُرَادِ الشَّارِعِ .

ثَانِياً : الحَجُّ والعُمرَةُ «فِي سَبِيلِ اللهِ» :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحَجَّ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ لِزَوْجِهَا : أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى جَمَلِكَ. فَقَالَ : مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكِ عَلَيْهِ. قَالَت : أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلاَنٍ. قَالَ : ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ امْرَأَتِي تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَرَحْمَةَ اللهِ، وَإِنَّهَا سَأَلَتْنِي الْحَجَّ مَعَكَ، قَالَتْ : أَحِجَّنِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ : مَا عِنْدِي مَا أُحِجُّكِ عَلَيْهِ. فَقَالَتْ : أَحِجَّنِي عَلَى جَمَلِكَ فُلاَنٍ. فَقُلْتُ : ذَاكَ حَبِيسٌ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ :" **أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَحْجَجْتَهَا عَلَيْهِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللهِ** ". قَالَ :

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧) و(٢٨١٢) .

وَإِنَّهَا أَمَرَتْنِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا يَعْدِلُ حَجَّةً مَعَكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **أَقْرِئْهَا السَّلَامَ وَرَحْمَةَ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ، وَأَخْبِرْهَا أَنَّهَا تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي** ". يَعْنِي عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ [(١)]. وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى :" **إِنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ مِنْ سَبِيلِ اللهِ** "[(٢)] .

وعَنْ نَافِعٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ : إِنَّ رَجُلاً أَوْصَى إِلَيَّ وَجَعَلَ نَاقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَيْسَ هَذَا زَمَانٌ يُخْرَجُ إِلَى الْغَزْوِ، أَفَأَحْمِلُ عَلَيهَا فِي الْحَجِّ ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : **الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ** [(٣)] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ سِيْرِيْنَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : إِنَّ امْرَأَةً أَوْصَتْ بِثَلاثِيْنَ دِرْهَماً فِي سَبِيلِ اللهِ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ التَّرَفِ، قُلْتُ لابْنِ عُمَرَ : امْرَأَةٌ أَوْصَتْ بِثَلاثِيْنَ دِرْهَماً فِي سَبِيلِ اللهِ، أَفَنُعْطِيهَا فِي الحَجِّ ؟ فَقَالَ : **أَمَا إِنَّهُ مِنْ سَبِيلِ اللهِ** [(٤)] .

وَعَنْهُ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ : إِنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيَّ بِدَرَاهِمَ أَجْعَلُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنَّ مِنَ الْحَاجِّ مَنْ بَيْنَ مُنقَطِعٍ بِهِ، وَبَيْنَ مَنْ قَدْ ذَهَبَتْ نَفَقَتُهُ، أَفَأَجْعَلُهَا فِيْهِمْ ؟ قَالَ : **نَعَمْ، اجْعَلْهَا فِيْهِمْ فَإِنَّهُ سَبِيلُ اللهِ** . قَالَ : قُلْتُ : إِنِّيْ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبِي إِنَّمَا أَرَادَ الْمُجَاهِدِينَ، قَالَ : **اجْعَلْهَا فِيْهِمْ، فَإِنَّهُ فِي سَبِيلِ اللهِ**. قَالَ : قُلْتُ : إِنِّيْ أَخَافُ اللهَ أَنْ أُخَالِفَ مَا أُمِرْتُ بِهِ، قَالَ : فَغَضِبَ وَقَالَ : **وَيْحَكَ أَوَلَيْسَ بِسَبِيلِ اللهِ** [(٥)] .

---

(١) رواه أبو داوود في سننه واللفظ له (١٩٩٢) والحاكم في المستدرك عن أم معقل برقم (١٧٧٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٧٧) وأصله في الصحيحين مختصراً .

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه بسند صحيح برقم (٣٠٧٥) والحاكم في المستدرك عن أم معقل (١٧٧٤) وقال : صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الدارمي في سننه (٣٣٠٤) وقال المحقق : إسناده صحيح .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٠٨٣٧) .

(٥) رواه البيهقي في سننه برقم (١٢٩٨٠) .

وقد صحَّ عنهُ ﷺ أنَّهُ سَمَّى الحجَّ جِهاداً، فقالَ :" **جِهَادُ الْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ** [١]. وقالَ ﷺ :" **أَفْضَلُ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ** "[٢]؛ وذَلِكَ لاِشْتِرَاكِهِ مَعَ الْجِهَادِ فِي الْوَسَائِلِ وَالْمَقَاصِدِ، حَيْثُ إِنَّهُ يَخْرجُ الْمُسْلِمُ فِيْهِ عَنْ هَوَى نَفْسِهِ إلى مُرَادِ رَبِّهِ ﷻ، وَيُفَارِقُ مَحْبُوبَاتِهِ لإِقَامَةِ شَعَائِرِ اللهِ وَمَحْبُوبَاتِهِ؛ وَكُلٌّ مُنْهُمَا يُقْصَدُ لِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَتَطْوِيْعِهَا لأَمْرِ رَبِّهَا ﷻ، كَمَا يُقْصَدُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا تَبْلِيْغُ رِسَالَةِ اللهِ وَإِقَامَةِ الأُمَّةِ عَلَى مَسْؤُولِيَّةِ حَمْلِ الرِّسَالَةِ إلى النَّاسِ كَافَّةً، كَمَا حَمَّلَ ﷺ أُمَّتَهُ – فِي حِجَّةِ الوَدَاعِ – مَسؤُولِيَّةَ حَمْلِ رِسَالَةِ اللهِ، وَبَذْلِ الْجُهْدِ لِتَبْلِيغِهَا إلى النَّاسِ كَافَّةً، فَقَالَ بَعْدَ خُطْبَتِهِ :" **فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**"[٣]؛ وَقَالَ عِنْدَ مَسْجِدِ الْخَيْفِ بِمِنىً :" **نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ** "[٤]؛ فَلَمَّا اشْتَرَكَ الْحَجُّ مَعَ الْجِهَادِ فِي الْوَسَائِلِ وَالْمَقَاصِدِ، أَخَذَ نَفْسَ الْحُكْمِ فِي كَوْنِهِ جِهَاداً فِي سَبِيْلِ اللهِ ﷻ. وَاللهُ أَعْلَمُ .

ثَالِثاً : الخُرُوجُ لِطَلَبِ العِلمِ هُوَ خُرُوجٌ «فِي سَبِيلِ اللهِ» :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ :" **مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلاَّ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنظُرُ إِلى مَتَاعِ غَيْرِهِ** " [٥] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٩٤٥٩) والنسائي في سننه (٢٦٢٦) والطبراني في الكبير (١٢٢٧) والأوسط (٨٧٥١) والبيهقي في سننه (٨٥٤١) وقال المنذري: بإسناد حسن . وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه البخاري عن عائشة (١٥٢٠) و(٢٧٨٤) .

(٣) رواه البخاري عن أبي بكرة برقم (١٧٤١) .

(٤) رواه الترمذي (٢٦٥٧) عن ابن مسعود وغيره، وقال : حديث حسن صحيح .

(٥) رواه أحمد في مسنده برقم (٩٤١٩) وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٧٥١٧) وابن ماجه من طريقه واللفظ له برقم (٢٢٧) وقال في الزوائد : إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه الحاكم في المستدرك برقم (٣٠٩) وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

وقَالَ أَبُو الدَّرداءِ رضي الله عنه : **مَا مِنْ أَحَدٍ يَغْدُوْ إِلى الْمَسْجِدِ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَ مُجَاهِدٍ لا يَنقَلِبُ إِلاَّ غَانِماً** [(١)]؛ وقَالَ رضي الله عنه : **مَنْ رَأَى الْغُدُوَّ وَالرَّوَاحَ إِلى الْعِلْمِ لَيْسَ بِجِهَادٍ فَقَدْ نَقَصَ عَقْلُهُ وَرَأْيُهُ**[(٢)]؛ وقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : **لأَنْ أَعْلَمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ فِي أَمْرٍ وَنَهْيٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةً فِي سَبِيلِ اللهِ** عز وجل[(٣)]؛ وقَالَ الحَسَنُ البِصْرِيُّ رحمه الله : **لأَنْ أَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ، فَأُعَلِّمَهُ مُسْلِماً، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِيَ الدُّنْيَا كُلُّهَا، أَجْعَلُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ** سبحانه وتعالى [(٤)] .

وقَالَ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله : وَإِنَّمَا جُعِلَ طَلَبُ الْعِلمِ مِن سَبِيلِ اللهِ، لِأَنَّ بِهِ قِوَامَ الإِسلَامِ، كَمَا أَنَّ قِوَامَهُ بِالْجِهَادِ؛ فَقِوَامُ الدِّينِ بِالْعِلمِ وَالْجِهَادِ، وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ نَوْعَيْنِ : **جِهَادٌ بِالْيَدِ والسِّنَانِ، وَهَذَا المُشَارِكُ فِيهِ كَثِيرٌ**؛ وَالثَّانِي : جِهَادٌ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَان، وَهَذَا جِهَادُ الْخَاصَّةِ مِن أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، وَهُوَ جِهَادُ الأَئِمَّةِ، وَهُوَ أَفضَلُ الجِهَادَين، لِعِظَمِ مَنفَعَتِهِ، وَشِدَّةِ مُؤْنَتِهِ، وَكَثْرَةِ أَعدَائِهِ؛ قَالَ سبحانه وتعالى فِي سُورَةِ الْفرْقَان، وَهِي مَكِّيَّة : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾. فَهَذَا جِهَادٌ لَهُم بِالْقُرْآنِ، وَهُوَ أَكبَرُ الجِهَادَين، وَهُوَ جِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَيضًا، فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَم يَكُونُوا يُقَاتِلُونَ الْمُسلِمِينَ، بَل كَانُوا مَعَهُم فِي الظَّاهِرِ، وَرُبَمَا كَانُوا يُقَاتِلُونَ عَدُوَّهُم مَعَهُم، وَمَعَ هَذَا، فَقَد قَالَ سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾. وَمَعْلُومٌ أَنَّ جِهَادَ الْمُنَافِقِينَ بِالْحُجَّةِ وَالْقُرْآنِ؛ «**وَالْمَقْصُودُ أَنَّ سَبِيلَ اللهِ هِيَ : الْجِهَادُ، وَطلبُ الْعِلمِ، ودَعوَةُ الْخَلقِ بِهِ إِلى اللهِ**» ..

وَلَمَّا كَانَ كُلٌّ مِنَ «**الْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالْحُجَّةِ يُسَمَّى سَبِيلَ اللهِ**» فَسَّرَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم قَوْلَهُ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ بِالأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ،

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٦٣) .

(٢) «المصدر السابق» .

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» برقم (٥١) .

(٤) «المصدر السابق» برقم (٥٢) .

فَإِنَّهُمُ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، هَؤُلَاءِ بِأَيْدِيهِم، وَهَؤُلَاء بِأَلسِنَتِهِم؛ فَطَلَبُ الْعِلمِ وتَعلِيمُهُ مِن أَعظَمِ سَبِيل اللهِ ﷻ [١] .

وقَالَ الشَّيخُ عَبدُ اللهِ البَسَّامُ رَحِمَهُ اللهُ : ويَنبَغِي أَنْ يُعلَمَ أَنَّ طَلَبَ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ نَوعٌ عَظِيمٌ مِنَ الجِهَاد فِي سَبِيلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأَنَّ الِانتِصَارَ لِلحَقِّ ودَحْضَ حُجَجِ الزَّنَادِقَةِ والْمُلحِدِينَ، والغَربِيِّينَ الْمُبَشِّرِينَ، الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الإِسْلامَ، ويُرِيدُونَ القَضَاءَ عَلَيهِ، هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ؛ فَالْقَصْدُ مِنَ الجِهَادِ إِظْهَارُ الإِسْلام ونَصْرُهُ، فَكَتْبُ هَؤُلاءِ مِنَ الجِهَادِ الكَبِيرِ العَظِيمِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ أَيْ : بِالقُرآنِ [٢] .

رَابِعاً : الخُرُوجُ لِلجِهَادِ الكَبِيرِ، بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المنكَرِ، بِاللِّسَانِ، ولِلجِهَادِ بِالسَّيفِ والسِّنَانِ، هُوَ خُرُوجٌ وجِهَادٌ «فِي سَبِيلِ اللهِ» :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ : قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ ؟ قَالَ : "**لَا تَسْتَطِيعُونَهُ** "، قَالَ : فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ :" **لَا تَسْتَطِيعُونَهُ** "، وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ :" **مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى** " [٣] . وفِي رِوَايَةٍ : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ ؟ قَالَ :" **لاَ أَجِدُهُ** ". ثُمَّ قَالَ : "**هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ، فتقومَ وَلاَ تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ**؟" فَقَالَ : وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ؟! [٤] .

(**١**) «مفتاح دار السعادة» (١/٧٠-٧١) .

(**٢**) «تيسير العَلاَّم» (٢/٢١٣) .

(**٣**) رواه مسلم برقم (١٨٧٨) والبخاري مختصرا (٢٧٨٧) .

(**٤**) رواه البخاري برقم (٢٧٨٥) .

وعَنْهُ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :" **مَنْ خَرَجَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَتَنْجِيْزاً لِمَوْعُوْدِ اللهِ، فَهُوَ مِثْلُ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ** " (١) .

وعَنْ أَبِي أُمَامَة ﷺ : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ ! فَقَالَ النبيُّ ﷺ :" **إنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبيلِ اللهِ ﷻ** " (٢) .

وعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ قَالَ : أَتَى رَجُلٌ رسولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : أيُّ النَّاسِ أفْضَلُ ؟ قَالَ :" **مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ في سَبيلِ اللهِ** ". قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ :" **مُؤْمِنٌ في شِعَبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ اللهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ** " (٣) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ :" **مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ** " (٤) .

وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :" **يَوْمٌ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيْمَا سِوَاهُ** " (٥) .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" **غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** " (٦). وعَنْهُ ﷺ قَالَ : **غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ عَشْرِ**

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح (١٩٥٠٥) .

(٢) رواه أَبُو داود في سننه (٢٤٨٦) وقال النووي في رياض الصالحين : بإسنادٍ جيدٍ.

(٣) رواه والبخاري (٢٧٨٦) ومسلم (١٨٨٨) .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٦٠٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٨٦) وغيرهما بسند صحيح.

(٥) رواه النسائي في سننه برقم (٣١٧٠) وابن حبان في صحيحه برقم (٤٦٠٩) والحاكم في المستدرك برقم (٢٣٨١) وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي .

(٦) رواه البخاري عن أنس برقم (٢٧٩٢) وعن أبي هريرة برقم (٢٧٩٣) وعن سهل بن سعد برقم (٦٤٩٥) ورواه مسلم عن أنس برقم (٤٩٨١) وعن سهل بن سعد برقم (٤٩٨٣) وعن أبي هريرة برقم (٤٩٨٤) وعن أبي أيوب برقم (٤٩٨٥) .

حِجَجٍ لِمَنْ قَدْ حَجَّ [(١)]. وعَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : **لَسَفْرَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسِينَ حِجَّةً** [(٢)]. وَقَالَ ابْنُ مَسعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : **لَئِنْ أُمَتِّعَ بِسَوْطٍ فِي سَبِيلِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحُجَّ حِجَّةً بَعْدَ حِجَّةٍ** [(٣)] .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :" **مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ سَأَلَ اللهَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقاً ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً**[(٤)]، **فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ، لَوْنُهَا لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ، وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعَ الشُّهَدَاءِ**[(٥)] " [(٦)] .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : وَعُرِفَ بِهَذِهِ أَنَّ الصِّفَةَ الْمَذْكُورَةَ لا تَخْتَصُّ بِالشَّهِيدِ، بَلْ هِيَ حَاصِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ جُرِحَ [(٧)]. - أَيْ «فِي سَبِيلِ اللهِ» - وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ فِي غَارٍ فَنُكِبَتْ إِصْبَعُهُ. فَقَالَ :" **هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ** " [(٨)] .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٣٥٨) .

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم (٩٥٤٦) وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٩٣٥٩) وهو موقوفٌ لفظاً مرفوعٌ حكماً، وقال محقق المصنف : رجاله ثقات .

(٣) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه (١٩٣٨٨) والطبراني في الكبير (٨٥٧٥) وابن المبارك في «الجهاد» (٢٢٦) وقال الهيثمي في المجمع : رجاله ثقات .

(٤) أَيْ : تَعَرَّضَ لِحَادِثَةٍ جُرِحَ فِيهَا جِرَاحَةً مِنْ غَيرِ الْعَدُوِّ . «مرقاة المفاتيح» (٣٥٦/٧).

(٥) أَيْ : عَلَى صَاحِبِهِ عَلامَةُ الشُّهَدَاءِ وأَمَارَاتُهُم، لِيُعْلَمَ أَنَّهُ سَعَى فِي إِعْلاءِ الدِّينِ، ويُجَازَى جَزَاءَ الْمُجَاهِدِينَ . «مرقاة المفاتيح» (٣٥٧/٧) .

(٦) رواه أحمد في مسنده برقم (٢٢٠١٤) وأبو داوود واللفظ له برقم (٢٥٤٣) والنسائي (٣١٤١) والترمذي برقم (١٦٥٧) وقال: هذا حديث صحيح .

(٧) «فتح الباري» (٢٥/٦-٢٦) .

(٨) رواه مسلم عن جندب بن سفيان برقم (١٧٩٦) .

وعَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :" **لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ – إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ** " (١) .

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : قَالُوا : وَهَذَا الْفَضْلُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ مَنْ **خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللهِ** فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ، **وَفِي إِقَامَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ** وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ (٢) .

وعَنْ أَبِيْ هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" .. **وَمَنْ خَرَجَ غَازِيًا فَمَاتَ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْغَازِي إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** " (٣). وفي رِوَايَةٍ :" **مَنْ خَرَجَ مُجَاهِداً فِي سَبِيْلِ اللهِ ثُمَّ مَاتَ كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرَ الْمُجَاهِدِ إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** " (٤).

وعَن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :" **مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ، فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، أَوْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، أَوْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ مَاتَ قَعْصًا فَقَدِ اسْتَوْجَبَ الْمَآبَ**" (٥) . أَيْ حُسْنَ الْمَرْجِعِ بَعْدَ الْمَوتِ، وَهُوَ الجَنَّةُ .

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٠٣) ومسلم برقم (٤٩٧٠) .

(٢) «شرح مسلم للنووي» (٢٦/١٣) .

(٣) رواه الطبراني في الكبير برقم (٨٠٥) وفي الأوسط برقم (٥٣٢١) وأبو يعلى في مسنده (٦٣٥٧) قال المنذري في الترغيب : رواه أبو يعلى من رواية محمد بن اسحاق، وبقية رواته ثقات .

(٤) رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» عن أبي هريرة (٤٠٠٨٦) وابن شاهين في «الثواب» (٣٢٥).

(٥) رواه أحمد في مسنده واللفظ له (١٦٤٦١) والحاكم في المستدرك (٢٤٤٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

وقَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ : «فَمَنْ كَانَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ بِاللِّسَانِ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَانِ الدِّينِ، وتَبْلِيغِ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ والْخَبَرِ، وبَيَانِ الأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ، وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ بِالْيَدِ كَقِتَالِ الْكُفَّارِ، فَإِذَا أُوْذِيَ عَلَى جِهَادِهِ بِيَدِ غَيْرِهِ، أَوْ لِسَانِهِ، فَأَجْرُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى اللهِ» [(١)] .

قُلتُ : هَذِهِ الأَحَادِيثُ وغَيرُهَا، تَشمَلُ بِعُمُومِهَا كُلَّ مَنْ خَرَجَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ؛ سَوَاءٌ كَانَ خُرُوجُهُ هَذَا لِأَجْل إِقَامَةِ الدِّينِ ونَشْرِهِ، بِالدَّعْوَةِ والتَّبْلِيغِ، والْبَيَانِ بِاللِّسَانِ، – وهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جِهَاداً كَبِيراً، كَمَا تَقَدَّمَ مِرَارًا–؛ أَو كَانَ خُرُوجُهُ لِلجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، لِأَجلِ إِزَالَةِ العَقَبَاتِ مِن طَرِيقِ هَذِهِ الدَّعوَةِ، أَوْ لِلذَّبِّ عَنْ حِمَى الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ، أَو الْمُرَابَطَةِ عَلَى الثُّغُورِ مَعَ الأَعدَاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ «فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »؛ فَمَنْ خَرَجَ «فِي سَبِيْلِ اللهِ»، لَا يُرِيْدُ إِلاَّ جِهَاداً فِي سَبِيْلِ اللهِ، لإِعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ، سَوَاءٌ كَانَ الجِهَادُ بِالْمَالِ أَوِ بِالنَّفْسِ أَوِ بِاللِّسَانِ – وهُوَ جِهَادُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ –، فَإِنَّهُ يَتَحَصَّلُ عَلَى هَذِهِ الْفَضَائِلِ بِإِذْنِ اللهِ، وذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ .

خَامِساً : السَّعيُ على إعفَافِ النَّفسِ والوَالِدَينِ وَالأَولادِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا شَابٌّ مِنَ الثَّنِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ بِأَبْصَارِنَا قُلْنَا : لَوْ أَنَّ هَذَا الشَّابَ جَعَلَ شَبَابَهُ وَنَشَاطَهُ وَقُوَّتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَالَ : فَسَمِعَ مَقَالَتَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ :" **وَمَا سَبِيلُ اللهِ إِلاَّ مَنْ قُتِلَ ؟! مَنْ سَعَى عَلَى وَالِدَيْهِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى عِيَالِهِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ سَعَى عَلَى التَّكَاثُرِ فَهُوَ فِيْ سَبِيلِ الشَّيْطَانِ** "[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠١/٨) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة (٤٢١٤) وفي الصغير (٩٤٠) والبيهقي في سننه (١٨٢٨٠) واللفظ له، وقال الهيثمي في المجمع : وفيه رياح بن عمرو، وثقه أبو حاتم وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح . وقال عنه أبو زرعة : صدوق، وذكره ابن حبان في الثقات . ورواه الطبراني في الكبير عن كعب بن عجرة (٢٨٢) وفي الأوسط (٦٨٣٥) وقال المنذري في الترغيب والهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح .

وفي رِوَايَةٍ عَن عُمَرَ ﷺ، .. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :" **مَهْ يَا عُمَرُ، فَلَعَلَّهُ في بَعضِ سُبُلِ اللهِ وأنتَ لَا تَعلَمُ..**" [1] .

سَادِساً : الْمَشيُ إلى الجُمُعَةِ والجَمَاعَةِ «في سَبِيلِ اللهِ» :

أَخرَجَ البُخَارِيُّ في صَحِيحِهِ، في «كِتَابِ الجُمُعَةِ» «بَابِ الْمَشيِ إلى الجُمُعَةِ» وفي «كِتَابِ الجِهَادِ» عَنْ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ قَالَ : أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ ﷺ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلى الْجُمُعَةِ فَقَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ :" **مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ** " [2]. ورَوَاهُ البَيهَقِيُّ في سُنَنِهِ، عَن يَزِيدَ بنِ أَبِي مَريَمَ، قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا رَائِحٌ إِلى الْجُمُعَةِ، إِذْ لَحِقَني عَبَايَةُ بْنُ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، وهُوَ رَاكِبٌ وأَنَا مَاشٍ، فَقَالَ : **احْتَسِبْ خُطَاكَ هَذِهِ في سَبِيلِ اللهِ** [3] . وفي رِوَايَةِ التِّرمِذِيِّ قَالَ : **أَبْشِرْ فَإِنَّ خُطَاكَ هَذِهِ في سَبِيْلِ اللهِ** [4] .

قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : قَوْلُهُ «بَابُ مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ الله» وَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ** ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ ؛ قَالَ ابن بَطَّالٍ : وَالْمُرَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَمِيعُ طَاعَاتِهِ اه. وَهُوَ كَمَا قَالَ، إِلَّا أَنَّ الْمُتَبَادَرَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ مِنْ لَفْظِ سَبِيلِ اللَّهِ الْجِهَادُ [5]؛ وَقَدْ أَوْرَدَهُ الْمُصَنِّفُ فِي «فَضْلِ الْمَشْيِ إِلَى الْجُمُعَةِ»

---

(١) أخرجه إسماعيل الحطبي في حديثه، والخطيب البغدادي في المفترق (١٥٣) وفيه أبو غالب، عن ابن أحمد ابن النصر الأزدي، قال الدارقطني : ضعيف، وقال أحمد بن كامل القاضي : لا أعلمه ذُمَّ في الحديث؛ حكاها في الميزان؛ وقال في اللّسان : ذكره سلمة الأندلسي، وقال : إنه ثقة. «كنز العمال» (١١٧٦٠) .

(٢) رواه البخاري في «كتاب الجمعة باب المشي إلى الجمعة» برقم (٩٠٧) ورواه في كتاب «الجهاد» برقم (٨١١) .

(٣) «السنن الكبرى» برقم (٦٠٨٧) .

(٤) «سنن الترمذي» برقم (١٦٣٢) وقال الترمذي : حديث حسن غريب صحيح .

(٥) قلت : سبق وأنْ بيَّنَّا مراراً، أن لفظ الجِهادِ إذا أطلق يراد به جهادُ الدَّعوَةِ بِاللِّسانِ، وهو الجهادُ الكَبيرُ، بالإضافةِ إلى جِهادِ السَّيفِ والسِّنان .

اسْتِعْمَالًا لِلَّفْظِ فِي عُمُومِهِ؛ .. وَقَالَ ابن الْمُنِيرِ : مُطَابَقَةُ الْآيَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ اللَّهَ أَثَابَهُمْ بِخُطُوَاتِهِمْ وَإِنْ لَمْ يُبَاشِرُوا قِتَالًا؛ وَكَذَلِكَ دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ، سَوَاءٌ بَاشَرَ قِتَالًا أَمْ لَا .

وقَالَ أَبُو أُمَامَةَ ﷺ : **الْغُدُوُّ وَالرَّوَاحُ إِلى هَذِهِ الْمَسَاجِدِ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ**(١).

قُلتُ : فَإِذَا كَانَ مَنْ مَشَى إِلى الْجُمُعَةِ أَوْ إِلى الْجَمَاعَةِ أَوْ مَنْ بَنَى مَسْجِداً في سَبِيْلِ اللهِ، فَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَامَ يَدْعُو النَّاسَ إِلى اللهِ ﷻ وَإِلى شَعَائِرِهِ، كَانَ «في سَبِيْلِ اللهِ» مِنْ بَابَ أَوْلَى.

سَابِعاً: الْمَشْيُ لِتَودِيعِ الْمُجَاهِدِينَ والخَارِجِينَ لِخِدمَةِ الدِّين «في سَبِيلِ اللهِ»:

أَخْرَجَ مَالِكٌ في الْمُوَطَّإِ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيْدٍ الأَنْصَارِيِّ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ لَمَّا بَعَثَ يَزِيدَ ابْنَ أَبِيْ سُفْيَانَ إِلى الشَّامِ خَرَجَ يَمْشِي مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ، فَقَالَ: **مَا أَنَا بِرَاكِبٍ وَمَا أَنْتَ بِنَازِلٍ، إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِيْ سَبِيلِ اللهِ** . ثُمَّ أَوْصَاهُمْ بِوَصَايَا وَآدَابٍ في الْقِتَالِ (٢) .



---

(١) رواه أحمد في مسنده بسند صحيح (٢٢٣٥٨) .

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٩٦٥) والطبراني في الكبير (٦٠٧) وقال الهيثمي: إسناده منقطع ورجاله إلى يحيى ثقات .

صَفوَةُ الكَلامِ

أَنَّ الخُرُوجَ لِلجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ وفَضَائِلَهُ كَمَا تَشمَلُ جِهَادَ السَّيفِ والسِّنَانِ، كَذَلِكَ تَشمَلُ جِهَادَ الدَّعوَةِ واللِّسَانِ، بالقَصدِ الأَوَّلِ :

وبِناءً عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِن نُصُوصِ الوَحيِ وَكَلَامِ الأَئِمَّةِ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَفهُومَ «الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ» إِذَا أُطلِقَ، أُرِيدَ بِهِ أَوَّلاً «الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ» باللِّسَانِ : بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَانِ الدِّينِ، وتَبْلِيغِ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ والْخَبَرِ؛ وأَنَّ هَذَا الجِهَادَ هُوَ الجِهَادُ الكَبِيرُ، وأَنَّهُ الْمَقصُودُ لِذَاتِهِ، وأَنَّ القَائِمَ بِهِ هُوَ مُجَاهِدٌ في سَبِيلِ اللهِ، مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وخُلَفَاءِ الرُّسُلِ؛ كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ الإِمَامِ ابنِ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ : «وأَمَّا مُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ بِاللِّسَانِ فَمَا زَالَ مَشْرُوعاً مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ إِلَى آخِرِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا شُرِعَ جِهَادُهُم بِالْيَدِ فَباللِّسَانِ أَوْلَى، وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "**جاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**"[١]. ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ القِتَالَ إِنَّمَا شُرِعَ لِلضَّرُورَةِ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ آمَنُوا بِالبُرْهَانِ والآيَاتِ لَمَا احْتِيجَ إلى الْقِتَالِ؛ فَبَيَانُ آيَاتِ الإِسْلامِ وبَرَاهِينِهِ وَاجِبٌ مُطْلَقاً وُجُوباً أَصْلِيّاً، وأَمَّا الْجِهَادُ فَمَشْرُوعٌ لِلضَّرُورَةِ»؛ وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ أيضاً في قَولِهِ تَعَالَى : ﴿**وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ : «**والجِهَادُ بِالنَّفسِ يَكُونُ بِاللِّسَانِ، كَمَا يَكُوُن بِاليَدِ، بَل قَدْ يَكُونُ أَقْوَى مِنهُ**». وقَالَ رَحِمَهُ اللهُ أَيضاً : «ثُمَّ الْقَائِلُ فِي ذَلِكَ بِعِلْمٍ، إِنْ تَكَلَّمَ لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَانَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، خُلَفَاءِ الرُّسُلِ»[٢] .

فَمَنْ خَرَجَ لِأَجلِ هَذَا الجِهَادِ يُسَمَّى خَارِجاً ومُجَاهِداً في سَبِيلِ اللهِ؛ فَيَنَالُهُ مَا وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأُجُورِ والدَّرَجَاتِ عَلَى الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ بِدُونِ أَدْنَى شَكٍّ؛ وإِذَا رَبَطَ نَفسَهُ

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٣١ - ٢٣٥) .

وحَبَسَهَا عَلَى هَذَا العَمَلِ مُحتَسِباً أَجرَهُ عَلَى اللهِ، كَانَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى ثَغْرٍ، هُوَ مِنْ أَعظَمِ الثُّغُورِ خَطَراً عَلَى الإِسلَامِ والْمُسلِمِينَ؛ وإِذَا أَصَابَهُ شَيءٌ مِنَ الأَذَى فِي طَرِيقِهِ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ فِي «سَبِيلِ اللهِ»، وإِذَا مَاتَ أَو قُتِلَ فِي ذَلِكَ السَّبِيلِ كَانَ مَوتُهُ أَو قَتلُهُ شَهَادَةً فِي «سَبِيلِ اللهِ»، ويَقَعُ أَجرُهُ عَلَى اللهِ؛ كَمَا قَالَ الإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ : «فَمَنْ كَانَ مُجَاهِداً فِي «سَبِيلِ اللهِ» بِاللِّسَانِ بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وبَيَانِ الدِّينِ، وتَبْلِيغِ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ والْخَبَرِ، وبَيَانِ الأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ، وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، أَوْ بِالْيَدِ كَقِتَالِ الْكُفَّارِ، فَإِذَا أُوْذِيَ عَلَى جِهَادِهِ بِيَدِ غَيْرِهِ أَوْ لِسَانِهِ، فَأَجْرُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى اللهِ»[1].

ومَا جَاءَ مِنَ الآيَاتِ والأَحَادِيثِ والآثَارِ الَّتِي تُبَيِّنُ فَضَائِلَ الجِهَادِ، والإِنفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ، والخُرُوجِ، والهِجرَةِ، والنَّفَرِ، والرِّبَاطِ، والغُدُوِّ والرَّوَاحِ فِي سَبِيلِ اللهِ، والخِدمَةِ والحِرَاسَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، والأَحوَالِ الَّتِي تُصِيبُ الخَارِجِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، .. فَإِنَّهُ يَدخُلُ فِيهَا الجِهَادُ بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والبَيَانِ بِاللِّسَانِ، بِالقَصدِ الأَوَّلِ، كَمَا يَدخُلُ فِيهَا الجِهَادُ بِاليَدِ والسَّيفِ والسِّنَانِ، تَبَعاً لِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُسَمَّى القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا بِاقتِرَانِ نِيَّةِ إِعلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ بِهِ؛ سَوَاءٌ كَانَ قِتَالَ ابتِدَاءٍ وطَلَبٍ، أَم قِتَالَ دَفعٍ؛ فَنِيَّةُ إِعلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ شَرطٌ فِي كَونِ القِتَالِ «فِي سَبِيلِ اللهِ»، كَمَا قَالَ ﷺ :" **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** "[2]. وكَمَا قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا الحَدِيثِ : الْمُرَادُ بِ«كَلِمَةِ اللَّهِ» دَعْوَةُ اللَّهِ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ سَبَبُ قِتَالِهِ طَلَبَ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ فَقَطْ[3] .

ولَا يَجُوزُ أَنْ يُخْرَجَ مِنهَا جِهَادُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، وهُوَ الجِهَادُ الكَبِيرُ، والْمَقصُودُ الأَسَاسِيُّ مِنْ جِهَادِ السَّيفِ، ومُقَدَّمٌ عَلَيهِ فِي الرُّتبَةِ والفَضِيلَةِ؛ فَإِنَّ مَا كَانَ مَقصُوداً لِذَاتِهِ، فَهُوَ أَعْلَى

---

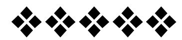
(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠١/٨) .

(٢) رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري (١٢٣) ومسلم (١٩٠٤).

(٣) «فتح الباري» (٢٨/٦) .

رُتبَةً مِمَّا هُوَ مَقصُودٌ لِغَيرِهِ؛ فَإِخرَاجُ الجِهَادِ الكَبِيرِ مِنْ فَضَائِلِ الجِهَادِ العَامِّ الْمُطلَقِ - بَعدَ ثُبُوتِ دُخُولِهِ بِنَصِّ القُرآنِ والسُّنَّةِ، وفَهمِ سَلَفِ الأُمَّةِ وخَلَفِهَا - تَحَكُّمٌ مَحضٌ، بِتَخصِيصِ النُصُوصِ الشَّرعِيَّةِ العَامَّةِ بِلَا مُخَصِّصٍ، وتَقيِيدِ مُطلَقِهَا بِلَا مُقَيِّدٍ؛ وهَذَا بَغيٌ عَلَى نُصُوصِ الشَّرعِ وعُدوَانٌ، يَتَنَزَّهُ عَنهُ أَهلُ العِلمِ والإِيمَانِ .

وعَلَى هَذَا فَإِنَّ استِعمَالَ الدُّعَاةِ والْمُبَلِّغِينَ لِآيَاتِ وأَحَادِيثِ الْهِجرَةِ والجِهَادِ والرِّبَاطِ والإِنفَاقِ «فِي سَبِيلِ اللهِ» ونَحوِهَا، لِلتَّرغِيبِ فِي «الخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللهِ» لِلدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والتَّعلِيمِ والتَّعَلُّمِ، والرِّبَاطِ عَلَى هَذِهِ الثُّغرَةِ العَظِيمَةِ، والإِنفَاقِ فِي سَبِيلِهَا، إِنَّ ذَلِكَ أَمرٌ سَائِغٌ، مُوَافِقٌ لِمُرَادِ اللهِ ﷻ، ورَسُولِهِ ﷺ، ومُتَّبِعٌ لِسَبِيلِ الْمُؤمِنِينَ، مِنَ الأَئِمَّةِ الْمَهدِيِّينَ، مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ وخَلَفِهَا، فِي فَهمِ نُصُوصِ الوَحيِ، وتَنزِيلِهَا عَلَى مَا أُنزِلَت لَهُ؛ ولَيسَ فِيهِ خُرُوجٌ عَن مَنهَجِهِم، ولا مُخَالَفَةٌ لَهُم؛ والحَمدُ للهِ مِنْ قَبلُ ومِن بَعدُ .



رِسَالَةٌ مُهِمَّةٌ إِلَى عُمُومِ الأُمَّةِ

إِنَّ أَكْبَرَ مُهِمَّةٍ دِينِيَّةٍ فِي هَذَا العَصْرِ وَأَعْظَمَ خِدْمَةٍ وَأَجَلَّهَا لِلأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ هِيَ دَعْوَةُ السَّوَادِ الأَعْظَمِ لِلأُمَّةِ وَأَغْلَبِيَّتِهَا السَّاحِقَةِ إِلَى الاِنْتِقَالِ مِنْ صُورَةِ الإِسْلَامِ إِلَى حَقِيقَتِهِ، وَيَبْذُلُوا جُهُودَهُم وَمَسَاعِيَهُم فِي بَثِّ رُوحِ الإِسْلَامِ فِي جِسْمِ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ، وَلَا يَدَّخِرُوا فِي ذَلِكَ وُسْعاً؛ فَلِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ؛ فَبِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ شَأْنُ الأُمَّةِ، وفِي نَتِيجَتِهِ شَأْنُ العَالَمِ بِأَسْرِهِ، فَإِنَّ شَأْنَ العَالَمِ تَبَعٌ لِشَأْنِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَشَأْنَ الأُمَّةِ تَبَعٌ لِحَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، فَإِذَا زَالَتْ حَقِيقَةُ الإِسْلَامِ مِنَ الأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، فَمَنْ يَدْعُو العَالَمَ إِلَى حَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، وَمَنْ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ؟ قَالَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَصْحَابِهِ : **أَنْتُم مِلْحُ الأَرْضِ، فَإِذَا زَالَتْ مُلُوحَةُ الْمِلْحِ فَمَاذَا يُمَلِّحُ الطَّعَامَ ؟**. قَدْ أَصْبَحَتْ حَيَاتُنَا اليَومَ جَسَداً بِلَا رُوحٍ، لِأَنَّ السَّوَادَ الأَعْظَمَ لِلأُمَّةِ مُجَرَّدٌ عَنِ الرُّوحِ، فَارِغٌ عَنِ الحَقِيقَةِ، فَكَيفَ تَعُودُ الرُّوحُ وَالحَقِيقَةُ فِي الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ مَرَّةً أُخْرَى؟

إِنَّ قَضِيَّةَ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ الكُبْرَى اليَومَ، هِيَ رِدَّةٌ اكْتَسَحَتْهُ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَى أَقْصَاهُ، وَغَزَتِ الأُسَرَ وَالبُيُوتَاتِ، وَالْمَدَارِسَ وَالكُلِّيَّاتِ، وَالجَامِعَاتِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ؛ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَلْفِتِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ تَشْغَلْ خَاطِرَهُم، لِأَنَّ صَاحِبَهَا لَا يَدْخُلُ كَنِيسَةً أَوْ هَيكَلاً، وَلَا يُعْلِنُ رِدَّتَهُ وَانْتِقَالَهُ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ، وَلَا تَنْتَبِهُ لَهُ الأُسْرَةُ فَتُقَاطِعُهُ، بَلْ يَظَلُّ يَعِيشُ فِيهَا وَيَتَمَتَّعُ بِحُقُوقِهَا، وَقَدْ يُسَيْطِرُ عَلَيهَا؛ وَلَا يَتَنَبَّهُ لَهُ الْمُجْتَمَعُ، فَلَا يُحَاسِبُهُ، وَلَا يُعَاتِبُهُ، بَلْ يَظَلُّ يَعِيشُ فِيهِ وَيَتَمَتَّعُ بِحُقُوقِهِ، وَقَدْ يُسَيْطِرُ عَلَيهِ .

إِنَّهَا قَضِيَّةٌ لَا تَتَطَلَّبُ حَرْباً، وَلَا ثَوْرَةً، وَلَا عُنْفاً، بَلْ إِنَّ العُنْفَ يَضُرُّهَا وَيُهَيِّجُهَا؛ وَإِنَّمَا تَتَطَلَّبُ رِجَالاً يَنْقَطِعُونَ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَيُكَرِّسُونَ عَلَيهَا عِلْمَهُم وَمَوَاهِبَهُم وَكِفَايَتَهُم، وَلَا يَطْمَعُونَ فِي مَنْصِبٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ وَظِيفَةٍ أَوْ حُكُومَةٍ، وَلَا يَحْمِلُونَ لِأَحَدٍ حِقْداً، يَنْفَعُونَ وَلَا يَنْتَفِعُونَ، وَيُعْطُونَ وَلَا يَأْخُذُونَ، وَلَا يُزَاحِمُونَ طَبَقَةً فِي شَيْءٍ تَحْرِصُ عَلَيهِ وَتَتَهَالَكُ، حَتَّى لَا تَكُونَ لَهَا حُجَّةٌ عَلَيهِم، وَلَا لِلشَّيْطَانِ سَبِيلٌ إِلَيهِم، شِعَارُهُمُ الإِخْلَاصُ وَالتَّجَرُّدُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالأَنَانِيَّاتِ وَالعَصَبِيَّاتِ، فَيَتَجَرَّدُونَ عَنِ الْمَطَامِعِ، وَيُخْلِصُونَ لِلدَّعْوَةِ، مُتَمَثِّلِينَ أَخْلَاقَ الأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاءِهِمْ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ حَيَاةَ الأُمَمِ بِالرِّسَالَةِ وَالدَّعْوَةِ، وَأَنَّ الأُمَّةَ الَّتِي لَا تَحْمِلُ رِسَالَةً وَلَا تَسْتَصْحِبُ دَعْوَةً، حَيَاتُهَا مُصْطَنَعَةٌ غَيرُ طَبْعِيَّةٍ، وَأَنَّهَا كَوَرَقَةٍ انْفَصَلَتْ عَنْ شَجَرَتِهَا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْيَا بِسَقْيٍ أَوْ رِيٍّ؛ إِنَّنَا أُمَّةُ الحَاضِرِ وَأُمَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ، قَدْ كَتَبَ اللهُ لَنَا الخُلُودَ وَالنَّصْرَ، لِأَنَّنَا أَصْحَابُ دَعْوَةٍ وَرِسَالَةٍ نَبَوِيَّةٍ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ الأَبَدِيَّةُ الَّتِي قَضَى اللهُ بِخُلُودِهَا وَظُهُورِهَا؛ فَلَسْنَا تَحتَ سَيْطَرَةِ الْمَادَّةِ وَحُكْمِ الزَّمَانِ، بِشَرْطِ أَنْ نَقُومَ بِدَعْوَتِنَا، وَنَسْتَقِلَّ بِرِسَالَتِنَا، وَنَعُودَ أُمَّةَ دَعْوَةٍ نَبَوِيَّةٍ كَمَا بَدَأْنَا : دَعْوَةٍ فِيمَا بَينَنَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ وَدَعْوَةٍ فِي غَيرِنَا مِنَ الأَجَانِبِ فِي الدِّينِ .

لَقَدْ تَخَلَّفْنَا عَنِ الأُمَمِ الْمُعَاصِرَةِ فِي العُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالأَسْبَابِ الحَرْبِيَّةِ، وفِي الأَخْذِ بِأَسْبَابِ الرُّقِيِّ الْمَادِّيِّ بِعِدَّةِ قُرُونٍ؛ فَلَوْ حَارَبْنَا هَذِهِ الأُمَمَ اليَومَ لَاسْتَغْرَقَ ذَلِكَ قُرُوناً، ثُمَّ كَانَتِ الْمُقَارَنَةُ بِحِسَابٍ دَقِيقٍ؛ فَإِذَا أَفَاقَ العَدُوُّ، وَسَبَقْنَا بِشَعْرَةٍ فِي القُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ وَالعُدَدِ الحَرْبِيَّةِ رَجَحَتْ كِفَّتُهُ، لِأَنَّ الْمَادَّةَ عَمْيَاءُ، وَهِيَ مِنَ القَسَاوَةِ وَالحِيَادِ بِمَكَانٍ لَا تُفَرِّقُ فِيهِ بَينَ الْمُحِقِّ وَالْمُبْطِلِ، وَالشَّرِيفِ وَالوَضِيعِ؛ بَلْ حَتَّى وَلَوْ تَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيهِم فِي العَدَدِ وَالعُدَدِ، دُونَ تَقْدِيمِ الدَّعْوَةِ، وَإِرَادَةِ الهِدَايَةِ لِلنَّاسِ، لَمَا كَانَ لِهَذِهِ الأَسْبَابِ أَثَرٌ فِي تَحْقِيقِ الغَلَبَةِ .

وَلَكِنَّ الدَّعْوَةَ وَالرِّسَالَةَ – وَهِيَ الرُّوحُ الَّتِي تَقْهَرُ الْمَادَّةَ، وَتُسَخِّرُ الأَسْبَابَ، وَتَسْتَنْزِلُ النَّصْرَ بِإِذْنِ اللهِ – تَأْتِي بِخَوَارِقَ وَمُعْجِزَاتٍ، فَلَطَالَمَا قَهَرَتِ القَاهِرَ، وَفَتَحَتِ الغَالِبَ؛ وَطَالَمَا خَضَعَتِ الحُكُومَاتُ القَاهِرَةُ، وَدَانَتِ الْمُلُوكُ الجَبَابِرَةُ بِقُوَّةِ الدَّعْوَةِ وَالرِّسَالَةِ لِلْمَمَالِيكِ وَالصَّعَالِيكِ؛ وَالتَّارِيخُ يَشْهَدُ بِهَذَا بِوُضُوحٍ، مِنْ خِلَالِ خُرُوجِ الصَّحَابَةِ لِبِلَادِ الفُرْسِ وَالرُّومِ، دُعَاةً مُبَشِّرِينَ؛ فَكَانَ الِانْتِصَارُ لِأَصْحَابِ الدَّعْوَةِ وَالرِّسَالَةِ عَلَى أَصْحَابِ القُوَّةِ وَالأَسْبَابِ الْمَادِّيَّةِ؛ فَالرِّسَالَةُ الإِسْلَامِيَّةُ تَأْتِي بِالْمُعْجِزَاتِ، وَتَقْهَرُ الأُمَمَ طَوعًا – لَا كَرْهاً – بِسُلْطَانِهَا الرُّوْحِيِّ، وَنُفُوذِهَا العَجِيبِ .

إِنَّ الأُمَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ لَا تَزَالُ – عَلَى عِلَّاتِهَا وَضَعْفِهَا – مُسْتَمْسِكَةً اسْتِمْسَاكاً مَا بِعُرْوَةِ الدِّينِ، وَهِيَ الإِيْمَانُ بِاللهِ وَالرَّسُولِ ﷺ، وَاليَقِينُ بِالدَّارِ الآخِرَةِ وَالحِسَابِ، لَمْ تَتْرُكْهَا أَلْبَتَّةَ؛ وَلَا

يَزَالُ كِتَابُ رَبِّهَا فِي يَدِهَا لَمْ يَتَنَاوَلْهُ التَّحْرِيفُ، وَلَا تَزَالُ سِيرَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَأُسْوَتُهُ الحَسَنَةُ بِمُتَنَاوَلِ يَدِهَا؛ فَالدَّعْوَةُ إِلَى الدِّينِ مَيْسُورَةٌ، وَالتَّجْدِيدُ مُمْكِنٌ، وَالقُلُوبُ مُتَهَيِّئَةٌ، وَجَمْرَةُ الإِيمَانِ سَرِيعَةُ الاِتِّقَادِ، وَالشُّقَّةُ بَيْنَ الصُّورَةِ وَالحَقِيقَةِ قَصِيرَةٌ، وَالقَنْطَرَةُ بَيْنَهُمَا : الدَّعْوَةُ إِلَى تَجْدِيدِ الإِيْمَانِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الدِّينِ، وَالتَّشَبُّعِ بِرُوحِهِ، وَالتَّحَلِّي بِحَقِيقَتِهِ .

إِنَّ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ لَمْ تَزَلْ تَطْفُو كُلَّمَا رَسَبَتْ، وَتَظْهَرُ كُلَّمَا اخْتَفَتْ؛ وَكُلَّمَا ظَهَرَتْ حَقِيقَةُ الإِسْلَامِ وَتَجَلَّتْ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِيْ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ أَوْ عَصْرٍ مِنْ عُصُورِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، غَلَبَتْ وَانْتَصَرَتْ، وَكَذَّبَتْ تَجَارِبَ النَّاسِ وَقِيَاسَهُمْ وَتَقْدِيرَهُمْ؛ وَهَبَّتْ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ نَفَحَاتُ القَرْنِ الأَوَّلِ؛ وَإِنَّ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ فِي هَذَا العَصْرِ إِذَا ظَهَرَتْ وَتَمَثَّلَتْ فِي جَمَاعَةٍ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تُذَلِّلَ كُلَّ عَقَبَةٍ، وَتَهْزِمَ كُلَّ قُوَّةٍ، وَتَأْتِي بِعَجَائِبَ وَآيَاتٍ مِنَ الإِيْمَانِ وَالشَّجَاعَةِ وَالإِيْثَارِ، يَعْجِزُ النَّاسُ عَنْ تَعْلِيلِهَا، كَمَا عَجَزُوا مِنْ قَبْلُ عَنْ تَعْلِيلِ حَوَادِثِ الفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ، وَأَخْبَارِ القَرْنِ الأَوَّلِ .

إِنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ قَدِ انْتَشَرُوا فِي عَوَاصِمِ الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَى وَمَرَاكِزِهَا الكُبْرَى، يَقُولُونَ : **اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَورِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ** . وَخَلَّصُوا الأُمَّةَ الرُّوْمِيَّةَ مِنْ عِبَادَةِ الْمَسِيحِ وَالصَّلِيبِ وَالأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَالْمُلُوكِ؛ وَخَلَّصُوا الأُمَّةَ الفَارِسِيَّةَ مِنْ عِبَادَةِ النَّارِ، وَالأُمَّةَ الهِنْدِيَّةَ مِنْ عِبَادَةِ البَقَرِ؛ وَأَخْرَجُوهَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا فِعْلاً، وَمِنْ جَورِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ؛ وَالعَالَمُ يَنْتَظِرُ مُنْذُ زَمَانٍ رُسُلَ الْمُسْلِمِينَ، يَنْتَشِرُونَ فِي عَوَاصِمِ الجَاهِلِيَّةِ الثَّانِيَةِ، يَهْتِفُونَ : اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ العِبَادَ مِنْ عِبَادَةِ الْمَادَّةِ وَالشَّهَوَاتِ، إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَمِنْ ضِيقِ عَالَمِ التَّنَافُسِ وَالأَثَرَةِ وَالجَشَعِ الْمَادِّيِّ، إِلَى سَعَةِ عَالَمِ القَنَاعَةِ وَالإِيْثَارِ وَالزُّهْدِ، وَنَعِيمِ الرُّوحِ وَطُمَأْنِينَةِ القَلْبِ، وَمِنْ جَورِ النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ .

فَالبَشَرِيَّةُ البَائِسَةُ تَسْتَصْرِخُ هَذِهِ الأُمَّةَ وَتَسْتَغِيثُهَا، وَلَيسَ العَالَمُ اليَومَ بِأَقَلَّ ظَمَأً وَفَاقَةً إِلَى الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيحَةِ مِنْهُ بِالأَمْسِ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ، لَيسَ لَهُمْ دَعْوَةٌ إِلَى اللهِ، وَلَا رِسَالَةٌ لِلإِنْسَانِيَّةِ الْمُحْتَضَرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُم هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَبُطُونَهُم

وَشَهَوَاتِهِمْ، لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ مَا يُبَرِّرُ تَارِيخَهُمُ الْمَاضِي، الَّذِي افْتُتِحَ بِالدَّعْوَةِ الدِّينِيَّةِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهَا، وَلَا مَا يُبَرِّرُ وُجُودَهُمْ فِي هَذَا العَصْرِ، فَإِنَّمَا نُصِرُوا وَاسْتُبْقُوا بِشَرِيطَةِ القِيَامِ بِالعِبَادَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيهَا .

إِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ فَرِيضَةٌ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْخِيرَ، وَلَا تَأْخِيرَ يَومٍ وَاحِدٍ، فَالعَالَمُ الإِسْلَامِيُّ يُوَاجِهُ اليَومَ رِدَّةً عَنِيفَةً مُنْتَشِرَةً فِي أَعَزِّ أَبْنَائِهِ وَأَقْوَى أَجْزَائِهِ؛ إِنَّهَا ثَورَةٌ عَلَى أَعَزِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ عَقِيدَةٍ وَخُلُقٍ وَقِيَمٍ، وَلَا بَقَاءَ لِلعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ بَعدَ ضَيَاعِ هَذِهِ الثَّرْوَةِ الَّتِي خَلَّفَهَا الرَّسُولُ ﷺ، وَتَوَارَثَهَا الأَجْيَالُ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِهَا أَبْطَالُ الإِسْلَامِ؛ فَهَذِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى دِينِنَا العَظِيمِ هِيَ القُوَّةُ الكُبْرَى بِأَيْدِينَا، فَهِيَ حَاجَةُ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، وَفِيهَا إِنْقَاذُ العَالَمِ مِنْ نِهَايَتِهِ الأَلِيمَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ وَتَدْنُو إِلَيهِ، وَبِهَا تُسْتَنْزَلُ نُصْرَةُ اللهِ وَحِفَاظَتُهُ لَنَا .

فَلْنَتَّجِهْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى البشرية الحَائِرَةِ التَّائِهَةِ، بِإِخْلَاصٍ وَنَزَاهَةٍ، وَتَوَجُّعٍ وَشَفَقَةٍ، وَبِقُوَّةٍ وَثِقَةٍ وَإِيْمَانٍ؛ وَلْنَنْظُرْ إِلَى أَنْفُسِنَا كَدُعَاةٍ وَمُنْقِذِينَ، وَمُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَنَسْتَخْدِمْ هَذِهِ القُوَّةَ الجَبَّارَةَ فِي تَغْيِيرِ مَصِيرِنَا وَمَصِيرِ العَالَمِ؛ وَلْنَحْتَلَّ بِفَضْلِهَا مَكَانَةَ الزَّعَامَةِ وَالقِيَادَةِ فِي رَكْبِ الإِنْسَانِيَّةِ وَمَصَافِّ الأُمَمِ، بَعْدَمَا عِشْنَا زَمَناً طَوِيلاً فِي مُؤَخَّرِ الرَّكْبِ، وَلْنَتَّجِهْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُقَدَّسَةِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي : **إِمَّا تُقْبَلُ، فَتَرْفَعُ وَتُؤَمِّنُ؛ وَإِمَّا تُرْفَضُ، فَتُهْلِكُ وَتَقْهَرُ** .

وَلْنَتَّجِهْ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي أَوْجَبَ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ نَصْرَهَا وَنَصْرَ رِجَالِهَا إِلَى مَجَالَاتٍ مَهْجُورَةٍ وَكُنُوزٍ مَطْمُورَةٍ، فِي آسْيَا وَإِفْرِيقْيَا وأوروبا، إِلَى الشُّعُوبِ الَّتِي مَلَكَتِ الوَسَائِلَ وَالعِلْمَ وَالصِّنَاعَةَ، وَالبِلَادَ الوَاسِعَةَ، وَالعُقُولَ الخَصْبَةَ، وَالسَّوَاعِدَ القَوِيَّةَ، وَجَهِلَتِ الدِّينَ وَالغَايَاتِ الصَّالِحَةَ، وَالْمَبَادِئَ الفَاضِلَةَ، وَهِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لِقَبُولِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَإِذَا قَبِلَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةَ وَفَقِهَتْهَا وَأَخْلَصَتْ لَهَا، تَغَيَّرَ مَجْرَى التَّارِيخِ مِنْ جَدِيدٍ، كَمَا تَغَيَّرَ فِي العَهْدِ الأَوَّلِ، بِإِسْلَامِ الفُرْسِ وَالتُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ، وَفِي العَهْدِ الأَوْسَطِ بِإِسْلَامِ التَّتَارِ وَالْمَغُولِ [(١)] .

---

(١) من كتاب «إلى الإسلام من جديد» لأبي الحسن الندوي. من صفحة (١٩) وما بعدها، وصفحة (٨٩) وما بعدها إلى آخر الكتاب، بتصرف واختصار .

خاتمة

بَعدَ هَذِهِ الجَوْلَةِ الْمُبَارَكَةِ – إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى –، والَّتِي طُفْتُ مِنْ خِلَالِهَا بِبَيَانِ مَفهُومِ «سَبِيلِ اللهِ»، وبَيَانِ حَقِيقَةِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأَنوَاعِهِ، ومَرَاتِبِ كُلِّ نَوعٍ، وأَنَّ جِهَادَ النَّفسِ فِي اللهِ هُوَ أَسَاسُ الجِهَادِ، ولَا يَتَمَكَّنُ مِن جِهَادِ اللِّسَانِ أَوِ السِّنَانِ إِلَّا مَن جَاهَدَ نَفسَهُ فِي اللهِ، وأَنَّهُ الجِهَادُ الأَكبَرُ، وأَنَّ الجِهَادَ الكَبِيرَ – بِنَصِّ القُرآنِ الكَرِيمِ – هُوَ جِهَادُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ؛ وتَقدِيمِ جِهَادِ الدَّعوَةِ عَلَى جِهَادِ القِتَالِ فِي الرُّتبَةِ والفَضِيلَةِ، وأَنَّ جِهَادَ الْمُنَافِقِينَ هُوَ جِهَادٌ بِالدَّعوَةِ والحُجَّةِ؛ كَمَا بَيَّنتُ فَهمَ الصَّحَابَةِ ﷺ لِلغَايَةِ مِنَ الخُرُوجِ ولِلجِهَادِ والقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأَنَّ الغَايَةَ مِن خُرُوجِهِم هِيَ عَينُ الغَايَةِ مِن خُرُوجِ الْمُبَلِّغِينَ فِي زَمَانِنَا، وأَنَّ سَبِيلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّتِي بُعِثَ بِهَا هِيَ «الدَّعوَةُ إِلَى اللهِ»، وهِيَ أَيضاً سَبِيلُ أَتبَاعِهِ؛ وبَيَّنتُ الغَرَضَ الأَسَاسِيَّ مِن تَشرِيعِ الخُرُوجِ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومَرَاحِلِ تَشرِيعِهِ؛ ومَفهُومَ النُّصرَةِ الْمَطلُوبَةِ لِلدِّينِ، والنَّصرِ الْمَوعُودِ عَلَيهَا، وأَسبَابَ انتِصَارِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى أَعدَاءِهَا، وحَقِيقَةَ الفَتحِ الَّذِي بَشَّرَ اللهُ ﷻ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وأَنَّهُ فَتحُ قُلُوبِ العِبَادِ لِدُخُولِ الإِسلَامِ.

ثُمَّ بَيَّنتُ الْمَصَادِرَ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وكَيفَ حَمَلَ أَئِمَّةُ التَّفسِيرِ – سَلَفاً وخَلَفاً – لِآيَاتٍ فِيهَا هَذَا الْمُصطَلَحُ عَلَى مَفهُومِهِ العَامِّ؛ وذَكَرتُ أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً، وآثَاراً سَلَفِيَّةً عَنِ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ، والأَئِمَّةِ الْمَهدِيِّينَ، فِيهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» بِمَفهُومِهَا العَامِّ؛ وخَلَصتُ إِلَى أَنَّ حُكمَ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وفَضَائِلَهُ، كَمَا تَشمَلُ جِهَادَ السَّيفِ والسِّنَانِ، كَذَلَك تَشمَلُ جِهَادَ الدَّعوَةِ واللِّسَانِ، بِالقَصدِ الأَوَّلِ؛ وأَنَّهُ قَد ثَبَتَ مِن كَلَامِ جَهَابِذَةِ أَئِمَّةِ التَّفسِيرِ – سَلَفاً وخَلَفاً –: أَنَّ لَفظَ «الجِهَادِ»، وغَيرِهِ مِنَ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا مَفهُومُ «سَبِيلِ اللهِ» فِي القُرآنِ والسُّنَّةِ، غَيرُ مُختَصَّةٍ بِقِتَالِ الأَعدَاءِ، بَل هُوَ لَفظٌ عَامٌّ يَشمَلُ جَمِيعَ أَنوَاعِ الجِهَادِ، وعَلَى رَأْسِهَا الجِهَادُ الْمَكِّيُّ، وهُوَ الجِهَادُ الكَبِيرُ، جِهَادُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الجِهَادِ الْمَدَنِيِّ، الَّذِي شُرِعَ لِإِزَالَةِ العَقَبَاتِ مِن طَرِيقِ الدَّعوَةِ؛ وأَنَّهُ إِذَا وَرَدَ تَفسِيرٌ عَن أَحَدٍ مِنَ الأَئِمَّةِ، يُبَيِّنُ فِيهِ أَنَّ الْمُرَادَ مِن هَذَا اللَّفظِ جِهَادُ القِتَالِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ – كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ العَلَّامَةِ القَاسِمِيِّ – مِن بَابِ قَصرِ العَامِّ عَلَى أَهَمِ أَفرَادِهِ، وَقتَ نُزُولِ الآيَةِ؛ وَالَّذِي كَانَ سَبَباً لِنُزُولِ الآيَةِ؛ ولَيسَ فِيهِ نَفيٌ لِدُخُولِ أَنوَاعِ الجِهَادِ الأُخرَى فِيهِ، لِأَنَّ «العِبرَةَ

بِعُمُومِ اللَّفظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ»، وعُمُومُ لَفظِ الجِهَادِ يَشمَلُ جَمِيعَ أَنوَاعِهِ . واللهُ أَعلَمُ .
بَعْدَ هَذِهِ الجَوْلَةِ أَقُولُ : هَذَا مَا مَنَّ اللهُ بِهِ، ثُمَّ مَا وَسِعَهُ الجُهْدُ، وسَمَحَ بِهِ الوَقْتُ، وتَوَصَّلَ إِلَيهِ الفَهْمُ الْمُتَوَاضِعُ؛ فَيَا أَيُّهَا الْقَارِئُ لَهُ، لَكَ غُنْمُهُ وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ، لَكَ ثَمَرَتُهُ وَعَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، فَمَا وَجَدْتَ فِيْهِ مِنْ صَوَابٍ وَحَقٍّ فَاقْبَلْهُ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلى قَائِلِهِ، بَلِ انْظُرْ إِلَى مَا قَالَ، لَا إِلَى مَنْ قَالَ، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ ﷻ مَنْ يَرُدُّ الْحَقَّ إِذَا جَاءَ بِهِ مَنْ يُبْغِضُهُ، وَيَقْبَلُهُ إِذَا قَالَهُ مَنْ يُحِبُّهُ، فَهَذَا خُلُقُ الأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ؛ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ : **اقْبَلِ الْحَقَّ مِمَّنْ قَالَهُ، وَإِنْ كَانَ بَغِيْضاً، وَرُدَّ الْبَاطِلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ، وَإِنْ كَانَ حَبِيْباً** [(١)]. وأَلتَمِسُ مِمَّن تَحَلَّى بِالعِلمِ، وتَدَثَّرَ بِالحِلمِ، وتَدَرَّعَ الإِنصَافَ، وتَجَنَّبَ طَرِيقَ الاِعتِسَافِ، أَن يُحِيطَ بِمَا استَخرَجتُهُ مِن كُتُبِ العُلَمَاءِ، ويُمعِنَ الفِكرَ بِمَا حَرَّرتُهُ مِنَ الأَقوَالِ والآرَاءِ، فَإِنَّ فِيهَا كِفَايَةً لِكُلِّ ذِي لُبٍّ مِنَ العُقَلَاءِ.

وَالصَّوَابُ مِنَ اللهِ ﷻ وَحْدَهُ، وَهُوَ الْمَانُّ بِهِ؛ وَمَا كَانَ فِيْهِ مِنْ خَطَإٍ فَمِنْ نَفْسِيْ وَالشَّيْطَانِ، وَاللهُ بَرِيْءٌ مِنْهُ وَرَسُولُهُ، وَلَمْ آلُ جُهْدَ الإِصَابَةِ، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَنْفَرِدَ بِالْكَمَالِ، وَكَيْفَ يُعْصَمُ مِنَ الْخَطَإِ مَنْ خُلِقَ ظَلُوماً جَهُولاً ؟! وَلَكِنْ مَنْ عُدَّتْ غَلَطَاتُهُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ مِمَّنْ عُدَّتْ إِصَابَاتُهُ [(٢)] .

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ بِأَسْمَاءِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يُرِيَنَا الْحَقَّ حَقّاً وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، ويُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلاً وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ، وَأَلَّا يَجْعَلَهُ مُلْتَبِساً عَلَيْنَا فَنَضِلَّ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تم الكتاب بحمد الله

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٥٣٧) عَنْ مَعْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللهِ – يعني ابن مَسعُودٍ –: أَوْصِنِي بِكَلِمَاتٍ جَوَامِعَ نَوَافِعَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ : **اعْبُدِ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَزُلْ مَعَ الْقُرْآنِ حَيْثُ زَالَ، وَمَنْ أَتَاكَ بِحَقٍّ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا، وَمَنْ أَتَاكَ بِبَاطِلٍ فَارْدُدْهُ، وَإِنْ كَانَ حَبِيبًا قَرِيبًا**. قال الهيثمي : رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ، إِلَّا أَنَّ مَعْنًا لَمْ يُدْرِكِ ابْنَ مَسْعُودٍ.
(٢) «مدارج السالكين» (٣/٤١٠) .

فهرس المحتويات

مُقَدِّمَة .... (٥)

الفَصْلُ الأَوَّلُ .... (١٢)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ الْمَعنَى الشَّرعِيِّ لِمُصطَلَحِ «سَبِيلِ اللهِ» .... (١٢)

الْمَبْحَثُ الثَّانِي : بَيَانُ حَقِيقَةِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأَنوَاعِهِ ومَرَاتِبِ كُلِّ نَوعٍ .... (١٨)

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : بَيَانُ أَنَّ جِهَادَ النَّفسِ فِي اللهِ هو أَسَاسُ الجِهَادِ، ولا يَتَمَكَّنُ مِن جِهَادِ اللِّسَانِ أَوِ السِّنَانِ إِلَّا مَن جَاهَدَ نَفسَهُ فِي اللهِ، وهُوَ الجِهَادُ الأَكبَرُ .... (٢٣)

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ : بَيَانُ أَنَّ الجِهَادَ الكَبِيرَ – بِنَصِّ القُرآنِ الكَرِيمِ – هُوَ جِهَادُ الدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ؛ وتَقَدُّمِ جِهَادِ الدَّعوَةِ عَلَى جِهَادِ القِتَالِ فِي الرُّتبَةِ والفَضِيلَةِ .... (٢٥)

الْمَبْحَثُ الخَامِسُ : بَيَانُ أَنَّ جِهَادَ الْمُنَافِقِينَ هُوَ جِهَادٌ بِالدَّعوَةِ والحُجَّةِ .... (٣١)

المبحث السادس : بَيَانُ أَنَّ مَا يُوَاجِهُهُ الدَّاعِيَةُ مِنَ الصَّدِّ والأَذَى أَشَدُّ عَلَى النَّفسِ مِنْ مُقَارَعَةِ العَدُوِّ بِالسَّيفِ .... (٣٥)

الفَصْلُ الثَّانِي .... (٣٦)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ فَهمِ الصَّحَابَةِ ﷺ لِلغَايَةِ مِنَ الخُرُوجِ والجِهَادِ والقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وأَنَّ الغَايَةَ مِنْ خُرُوجِهِم هِيَ عَينُ الغَايَةِ مِنْ خُرُوجِ الْمُبَلِّغِينَ فِي زَمَانِنَا.............................. (٣٦)

الْمَبْحَثُ الثَّانِي : بَيَانُ أَنَّ سَبِيلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّتِي بُعِثَ بِهَا هِيَ «الدَّعوَةُ إِلى اللهِ»، وهِيَ أَيضاً سَبِيلُ أَتْبَاعِهِ .... (٤٢)

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ : بَيَانُ الغَرَضِ الأَسَاسِيِّ مِن وَرَاءِ تَشرِيعِ الخُرُوجِ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ومَرَاحِلِ تَشرِيعِهِ .... (٤٧)

الْمَبْحَثُ الرابع : بَيَانُ مَفهُومِ النُّصرَةِ الْمَطلُوبَةِ لِلدِّينِ، والنَّصرِ الْمَوعُودِ عَلَيهَا، وأَسبَابِ انتِصَارِ هَذهِ الأُمَّةِ على أَعدَاءِهَا .... (٥٨)

أَسبَابِ انتِصَارِ هَذهِ الأُمَّةِ على أَعدَاءِهَا .... (٦٥)

المبحث الخامس : بَيَانُ حَقِيقَةِ الفَتحِ الَّذِي بَشَّرَ اللهُ ﷻ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وأَنَّهُ فَتحُ قُلُوبِ العِبَادِ لِقَبُولِ الإِسلَامِ، ودُخُولهُم فِيهِ .... (٦٩)

الفَصْلُ الثَّالِثُ .... (٧٢)

الْمَبْحَثُ الأَوَّلُ : بَيَانُ الْمَصَادِرِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وحَمل أَئِمَّةِ التَّفسِيرِ لِآيَاتٍ فِيهَا هذا الْمُصطَلَحُ عَلَى مَفهُومِهِ العَامِّ .... (٧٣)

(١) «الإِحصَارُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (٧٣)

(٢) «الإِصَابَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (٧٣)

(٣) « الإِضلَالُ وَالضَّلَالُ عَن سَبِيلِ اللهِ» .... (٧٨)

(٤) الإِنفَاقُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (٧٩)

(٥) الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (٨٤)

(٦) الخُرُوجُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (٩٩)

(٧) الدَّعوَةُ إِلَى سَبِيلِ اللهِ» .... (١٠١)

(٨) «الرِّبَاطُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (١٠٢)

(٩) «الصَّدُّ عَن سَبِيلِ اللهِ» .... (١٠٧)

(١٠) الصَّدَقَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (١٠٨)

قَرَارُ الْمَجمَعِ الفِقهِيِّ بِرَابِطَةِ العَالَمِ الإِسلَامِيِّ فِي بَيَانِ أَنَّ الدَّعوَةَ إِلى اللهِ مِنْ أَعظَمِ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ودُخُولِهَا فِي مَعنَى قَولِهِ ﷻ : «**وفِي سَبِيلِ اللهِ**» فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ ....(١١٠)

(١١) الضَّربُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (١١٢)

(١٢) القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (١١٤)

(١٣) القَتلُ والْمَوتُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .... (١١٨)

(١٤) النَّفَرُ في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٢٢)

(١٥) الهِجرَةُ في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٢٤)

المبحث الثاني .... (١٣٥)

ذِكرُ أَحَادِيث نَبَوِيَّةٍ وآثَارٍ سَلَفِيَّةٍ عَن الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ، والأَئِمَّةِ الْمَهدِيِّينَ، فِيهَا مُصطَلَحُ «سَبِيلِ اللهِ» بِمَفهُومِهِ العَامِّ .... (١٣٥)

أَوَّلاً : بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ «في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٣٥)

ثَانِياً : الحَجُّ والعُمرَةُ «في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٣٥)

ثَالِثاً : الخُرُوجُ لِطَلَبِ العِلمِ هُوَ خُرُوجٌ «في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٣٧)

رَابِعاً : الخُرُوجُ لِلجِهَادِ الكَبِيرِ، بِالدَّعوَةِ والتَّبلِيغِ، والأَمرِ بِالْمَعرُوفِ والنَّهيِ عَنِ الْمُنكَرِ، بِاللِّسَانِ، ولِلجِهَادِ بِالسَّيفِ والسِّنَانِ، هُوَ خُرُوجٌ وجِهَادٌ «في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٣٨)

خَامِساً : السَّعيُ على إِعفَافِ النَّفسِ والوَالِدَينِ وَالأَولَادِ «في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٤٣)

سَادِساً : الْمَشيُ إلى الجُمُعَةِ والجَمَاعَةِ «في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٤٤)

سَابِعاً : الْمَشيُ لِتَودِيعِ الْمُجَاهِدِينَ والخَارِجِينَ لِخِدمَةِ الدِّينِ «في سَبِيلِ اللهِ» .... (١٤٥)

صَفوَةُ الكَلَامِ : أَنَّ حُكمَ الجِهَادِ في سَبيلِ اللهِ وفَضَائِلِهِ كَمَا تَشمَلُ جِهَادَ السَّيفِ والسِّنَانِ، كَذَلِكَ تَشمَلُ جِهَادَ الدَّعوَةِ واللِّسَانِ، بِالقَصدِ الأَوَّلِ .... (١٤٦)

رِسَالَةٌ مُهِمَّةٌ إِلَى عُمُومِ الأُمَّةِ .... (١٤٩)

خاتمة .... (١٥٣)

فهرس المحتويات .... (١٥٥)